

تاريخ التمدن الإسلامي (الجزء الخامس)

المحتويات

٧	مقدمة
١١	نظام الاجتماع في المملكة الإسلامية
١٣	طبقات الناس قبل الإسلام
٢٥	نظام الاجتماع في العصر العباسي
٦١	الآداب الاجتماعية
٦٣	آداب العرب في الجاهلية
٦٩	آداب العرب في صدر الإسلام
١٠٣	حضارة الدولة الإسلامية
١٠٥	عمارة المدن والقصور
١٢٣	الثروة والرخاء ونتائجها
١٥٧	أبهة الدولة

مقدمة

هذا الجزء الخامس من تاريخ التمدن الإسلامي هو آخر أجزاء الكتاب، فنحمد الله لأننا وفقنا إلى إتمام هذا العمل الشاق، مع ما يعتوره من العقبات ويحتاج إليه من إعمال الفكرة والمراجعة لما تخيّناه فيه من التحقيق والتدقيق، ولا سيما بعد أن عمدنا إلى ذكر المراجع في هوامش الصفحات، مع الإشارة إلى الكتاب والجزء والصفحة من كل منها، ولا يخفى ما يقتضيه ذلك من التيقظ والتعب في ضبطه والتوفيق بين أجزائه، ولكنه أعاانا من الجهة الأخرى على الإيجاز في بعض الأماكن، اكتفاء بالإشارة إلى خلاصة الموضوع وإحالة القارئ في استيفائه إلى المصدر الأصلي لئلا يخرجنا إبراده إلى التطويل.

على أن كثرة الموضوعات وتعدد فروعها وتدخلها، قد حملنا أحياً على إيراد بعض النصوص في جزء مع ورودها في جزء آخر قبله، وإنما فعلنا ذلك رغبة في استيفاء الأدلة وإحكام البرهان، وبتنسيق المقدمات ونتائجها وتفاديًا من إرجاع القارئ إلى بعض الأجزاء السابقة، وإن كنا لم نعمد إلى هذا التكرار إلا عند الضرورة؛ لأن وجهتنا الأولى في كتابتنا إنما هي بسط العبارة وإيضاح الموضوع، حتى ينجلي للقارئ كأنه مجسم، على أننا كثيراً ما أحملنا المطالع إلى مراجعة ما سبق ذكره في أماكنه.

والجزء الذي نحن بصدده أكثر سائر الأجزاء طلاوة وأقربها إلى أفهم المطالعين على اختلاف طبقاتهم وتفاوت معارفهم؛ لأنه يبحث في مثل ما ألفوه من العادات والأداب مما تلذ مطالعته وتتوق النفوس إلى معرفته، من الأبحاث الاجتماعية والمواضيعات العمرانية والأحوال العائلية، مما يريده الناس عادة بقولهم «حضارة» أو «مدنية»، وهو في الحقيقة بعض ظواهرهما على ما تبين لك في الأجزاء السابقة.

فموضوعات هذا الجزء سهلة على المطالع، ولكنها شاقة على المؤلف، لخلو كتب القوم من أمثالها على الأسلوب الذي تطلبناه في هذا الكتاب، ولو بحثت فيما كتبه أسلافنا في

التاريخ والأدب والعلم وغيرها، ما رأيت لأحدhem فصلًا ولا جملة ولا فقرة في نظام الاجتماع مثلًا أو طبقات الناس أو الآداب الاجتماعية أو الحضارة أو الأئمة، إلا ما قد يرد عرضاً في أثناء النواود أو الحكم أو التراجم أو الواقع مما استعنا به في الاستدلال على بعض الحقائق المذكورة.

وأبحاث هذا الجزء تنتظم في أربعة أبواب كبرى:

- (١) نظام الاجتماع.
- (٢) الآداب الاجتماعية.
- (٣) حضارة المملكة.
- (٤) أئمة الدولة.

فنظام الاجتماع أساسه طبقات الناس، ولذلك قدمنا الكلام بفصول في طبقاتهم قبل الإسلام في جزيرة العرب وما يحده بها من البلاد العامرة في الشام والعراق ومصر وفارس وإفريقية، ثم طبقاتهم بعد الإسلام وما طرأ عليها من التغيير في أيام الراشدين فالأمويين فالعباسيين، وبسطنا الكلام في نظام الاجتماع في العصر العباسي، فقسمنا الناس إلى طبقتين كبيرتين: الخاصة والعامة، وجعلنا الخاصة أربع طبقات: الخليفة، وأهله، وأهل دولته، وأرباب البيوتات، وأضفنا إلى الخاصة طوائف من الناس يصح إلحاقهم بها سميائهم «أتباع الخاصة» وهم: الجن، والأعوان، والخدم، ويدخل في طائفة الخدم: العبيد، والجواري، والخصيان، وبينما ما كانت عليه كل طبقة أو طائفة في عهد ذلك التمدن.

وجعلنا العامة طبقتين كبيرتين: الأولى المقربون وهم فئة من العامة سمت بهم قرائهم أو همهم إلى اللحاق بالخاصة، ك أصحاب الفنون الجميلة وأهل الأدب والشعر والغناء وأرباب التجارة الثمينة والصناعات العليا ... وذكر ما كان يكتسبه هؤلاء من الأموال المتداقة من خزانة الدولة، وأما الطبقة الثانية من العامة فهم معظم الأمة، وينقسمون إلى فئتين: الأولى أهل القرى وهم السواد الأعظم، والثانية عامة أهل المدن وهو أكثر سكانها، ويتعاطون الصناعات اليدوية والتجارات الصغرى، وبينهم طوائف العيارين والشطار والمخنثين وغيرهم، وذكرنا تاريخ كل منها.

وأما الآداب الاجتماعية فصدرناها بتمهيد في تاريخها من زمن الجahلية، فذكرنا مناقب البدو كالعصبية والأنفة والوفاء والسؤء والنجد والرأبحة والعفة، وكيف تسرب الفساد إلى هذه المناقب تدريجًا بتقدم القوم في معارج الحضارة، وذكرنا الأسباب التي

بعثت على تبديل بعضها في عصر الراشدين فالأمويين إلى العصر العباسي، وبسطنا الكلام في آداب هذا العصر بسطًا وافيًّا؛ لأنَّه هو المراد بهذا الباب، فقسمنا الكلام فيه إلى فصول في العائلة ونظامها وما يتخلَّ ذلك من حال المرأة العربية، فيينا عفتها وأنفتها في الجاهلية وأوردنَا أمثلةً من اشتهرنَّ فيها بالشجاعة والحزم والرأي، وكيف تبدلت أحوالها في عصر الترف بما أدخله عليها الرجل من الجواري والسراري، حتى ذهبت الغيرة ونشأت سوء الظن فحبسها وضيق عليها، وأوردنَا فصلًا لأسلوب الارتزاق في عهد ذلك التمدن بالسخاء المتسلسل على سنة العرب.

وجعلنا كلامنا في المعيشة العائلية فصوًلاً في الطعام واللباس والماوى، فأجملنا في تاريخ كل منها في أيام الجاهلية وما أحدثه فيه ذلك التمدن.

ثم أتينا إلى الباب الثالث من هذا الجزء وهو حضارة المملكة، فقسمناه إلى قسمين: أولهما العمارة أو العمران، وثانيهما الثروة والرخاء، والعمارة إما في المدن أو في القصور، فاتينا بأمثلة من عمارة أهم المدن الإسلامية، وأشهر القصور والمباني في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وغرناطة وغيرها، أما الثروة فيدور الكلام فيها على أبحاث في ثروة الخلفاء والأمراء وما تقتضيه من التأنيق في الطعام والتنعم باللباس والتزيين بالأثاث والرياش والمجوهرات ونحوها ... ثم القصف وما يلبسه من التسري وعقد مجالس الغناء والشراب، ثم السخاء وقد نظرنا فيه من أيام الراشدين إلى العباسيين، وكيف تدرج القوم في مقدار الصلة ونوعها، ويتأخل ذلك فصول في الغناء وتاريخه من الوجهة الاجتماعية والأدبية، والمسكر وخلاصة أقوالهم في تحريميه وتحليليه وتاريخ انتشاره وانغماس الخاصة فيه، فضلًا عن العامة وما نتج عن ذلك من التهتك والإسراف والفحشاء.

أما أبهة الدولة فجعلنا مدار الكلام فيها على الخلفاء وأحوالهم، من سذاجة الراشدين وتقشفهم إلى بذخ العباسيين وأبهتهم، وقسمنا البحث في هذا العصر إلى فصول عديدة في مجالس الخلفاء ومواكبهم واحتفالاتهم وعلاقاتهم بالدول المعاصرة وملابسهم وألعابهم ولملاهيهم، ويترعرع القول في مجالسهم إلى المجالس العامة ومجالس الأدب والغناء والمناظرة وغيرها، فوصفتنا المجلس وفرشه ومراتب مجلسه فيه وشروط الاستئذان في الدخول والتحية وأداب المجالسة وعلامة الصرف ونحو ذلك، وقسمنا ملاهيهم إلى فصول في الصيد والسباق والكرة والصلوجان ورمي البندق وارتباط السباع وغيرها.

وذيلنا هذا الجزء بجدول أسماء الكتب التي ذكرت في هوماش الأجزاء الخمسة مع اسم المؤلف وسنة نشر الكتاب ومحل طبعه، فضلًا عن فهرس هذا الجزء.

وقد بذلنا الجهد في تحري الحقيقة وتوخيانا الإنصاف والإخلاص بما يبلغ إليه الإمكان، فإن أحسنا فذلك قصدنا وأقصى مرادنا، وإن أساءنا فعن غير عمد مما وما العصمة إلا لله وحده.

نظام الاجتماع في المملكة الإسلامية

موضوع هذا الباب النظر في حال الهيئة الاجتماعية في إبان التمدن الإسلامي، وبيان الجماعات التي كانت تتتألف منها طبقاتهم وعلاقتهم بعضها ببعض، ولزيادة الإيضاح نمهد بالكلام عن نظام الاجتماع على عهد الروم والفرس في البلاد التي فتحها المسلمون من تينك الملكتين، وما كان من تأثير الإسلام في ذلك النظام، وكيف تدرج في الارتفاع من أيام الراشدين فالأمويين فالعباسيين، ثم نبسط القول في نظام الاجتماع في العصر العباسي.

طبقات الناس قبل الإسلام

ويقسم الكلام في ذلك إلى وصف طبقات الناس:

- (١) في الشام وال العراق.
- (٢) في مصر.
- (٣) في إفريقيا.
- (٤) في بلاد فارس.
- (٥) في جزيرة العرب.

(١) طبقات الناس في الشام وال伊拉克

نريد بهذهين البلدين ما بين دجلة في الشمال الشرقي وأخر حدود الشام في الجنوب الغربي، وسكان هذه البقعة أكثر أمم الأرض احتلالاً في أجناسهم وأديانهم وأدابهم لكثره الدول التي توالى عليها من أقدم أزمنة التاريخ، وللعلماء أبحاث طويلة وآراء متضاربة في أحوالهم لا محل لها ولا فائدة منها، وخلاصة ما يستخرج من أبحاثهم أن أقدم من عرف من أهل تلك البلاد بطون من الساميين، وكانت مساكن القبائل السامية تمتد من دجلة عند ما بين النهرين شملاً شرقياً إلى سواحل سوريا حتى العريش فالبحر الأحمر غرباً، وشواطئ اليمن وحضرموت جنوباً، فخليج فارس وبحر عمان شرقاً، وهي عبارة عن بلاد ما بين النهرين وال伊拉克 وسوريا وفلسطين وجزيرة سينا وجزيرة العرب.

والساميون ثلاثة فروع كبرى:

- (١) الآراميون، وهم القبائل السامية الشمالية، كانت مواطنهم فيما بين النهرين والعراق وسوريا إلا قسماً من شواطئها.
- (٢) العبرانيون، وهم القبائل السامية الوسطى، وموطنهم في فلسطين وشواطئ سوريا.
- (٣) العرب، وهم القبائل السامية الجنوبية، ومقامهم في جزيرة العرب وما يليها من بادية الشام والعراق وجزيرة سيناء.

١-١) الآراميون

فالآراميون كانت لغتهم فرعاً من اللغة السامية يُعرف باللغة الآرامية، وانقسموا بتوالي الأجيال إلى أمم اشتهرت في التاريخ، أهمها أمة السريان فيما بين النهرين والعراق، والكلدان في أعلى سوريا، وانقسمت اللغة بهذا الاعتبار إلى الفرعين السرياني والكلداني. والعربانيون يُردد بهم أبناء إبراهيم عليه السلام، وقد استقروا في فلسطين نحو القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ويلحق بهم финيقيون وكانوا يتكلمون لغة تشبه العبرانية. وأما العرب فكانوا يتقاهمون بلغة من اللغات السامية هي العربية، ومن فروعها أو أخواتها الحميرية والحبشية، وأقرب القبائل العربية إلى الشام الأنباط، وكان لهم شأن في أثناء تسلط الرومان على الشام سيأتي ذكره.

فما بين النهرين والعراق والشام وفلسطين كانت في أقدم أزمنة التاريخ مأهولة بشعوب سامية تتقارب نسبياً ولغة، أما قبل نزول الساميين فكانت مقاماً لأمم لا يُعرف أصلها، وكان الساميون أقوى منهم فغلبوا عليهم واستقروا فيها، وأخذ أولئك في الانقراض قبل الميلاد بعدهة قرون، وهكذا ترتيب مساكن الساميين هناك من الشمال إلى الجنوب: السريان، فالكلدان، فالفينيقيون، فالعربانيون، فالأنباط، وحالطتهم أمم شتى غير سامية، أقامت بين أظهرهم في يقان مختلفة من بلادهم، غير بقایا الشعوب الأصلية مما يطول بيانه، ولكن الساميين تغلبوا عليهم جميعاً وعاشت أديانهم وأدابهم وعاداتهم. على أن مركز هذه البلاد الجغرافي جعلها عرضة لمطامع الفاتحين من الأمم القديمة، كالحثيين والأشوريين والفرس، فكانوا يتناوبون فتحها أو اكتساحها وتتقاطر شعوبهم إليها، ولكن الأمر لم يستقم لدولة من هذه الدول في سوريا كما استقام لليونانيين خلفاء

الإسكندر، فإن هذا القائد العظيم فتح هذه البلاد في القرن الرابع قبل الميلاد، وأوغل فيها وغرس في نواحيها بذور الحضارة الإغريقية، وقد اختلطت هذه العناصر الإغريقية بعناصر الحضارات الأصلية في هذه البلاد ونشأ عن ذلك ما يُعرف بالحضارة الشبيهة بالهيلينية Hellenistic، وتواجد إليها اليونان وأقاموا فيها واحتلوا بأهلها ولا سيما بعد ظهور النصرانية وهي في سلطة الرومان، ولكن العنصر اليوناني ما زال متغلباً عليها، وأكثر تغلبه على سواحل بحر الروم، ويضعف شأنه في الداخل تدريجياً.

ومع ذلك الاختلاط ظلت الشعوب السامية محافظة على آدابها وعاداتها ولغاتها، ولا سيما اليهود فإنهم مع ما أصابهم من الاضطهاد والسببي ظلوا من حيث الآداب والدين على نحو ما كانوا عليه في أيام داود وسليمان، إلا ما أصاب لغتهم من التغيير في أثناء السبي ببابل، فإنها اختلطت بالسريانية والكلدانية وعرفت باللغة الآرامية أو الكلدانية، وبها كتبوا التلمود وانقسموا إلى اليهود والسامريين، أما من بقي من الشعوب السامية ولا سيما السريان فنتصروا وانفردوا بآدابهم وعاداتهم، وأكثراهم كانوا يقيمون في العراق وما بين النهرين وأعلى سوريا إلى فلسطين.

(٢-١) الأنباط

فكان حدود الشام الغربية على سواحل بحر الروم يغلب عليها العنصر اليوناني، وحدودها الشرقية مما يلي البادية يغلب عليها العنصر العربي، وكان هناك في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد أمة عربية عُرِفت بالأنباط أو النبط، كان مقامهم وراء فلسطين غرباً جنوبياً على أنقاض الأدوميين، في بقعة تمتد من جزيرة سينا إلى حوران، تُعرف بالبلاد العربية الصخرية Arabia petraea، ولا تزال آثار مدينة بطرا باقية إلى الآن وفيها الأبنية المتقوسة والتماييل المنحوتة ونحوها، حاربهم الروم سنة ٣١٢ ق.م بقيادة انتيجونوس وكان الأنباط عشرة آلاف مقاتل، وذكر ديودورس أنهم يجتذبون الزراعة رغبة في الرحلة، ويعيشون على اللحوم والألبان ويحرمون الخمر تحت طائلة القتل، وإنما شرابهم الماء يحلونه بالمن وهو كثير عندهم، وكانوا يتجررون بالمر والأطبار يحملونها من شواطئ البحر الأحمر وبلاد العرب، وبالبحر أو القار يحملونه من البحر الميت إلى مصر ليستخدمه المصريون في التحنط، وكانت طرق التجارة بين مصر وسائر المشرق لا تسلك إلا على يدهم، وإنما يهاجمون القوافل وينهبون التجار، ثم تغلب عليهم البطالسة وقهروهم، فتباعدوا عن حدود مصر ونزلوا حوران، ونبغ منهم في القرن الأول قبل الميلاد

ملك يسميه اليونانيون اريتاس (الحارث) حarb عامل دمشق وغلبه على مدینته واستولى عليها وعلى ملحقاتها تحت رعاية الرومانيين نیفأ وأربعين سنة، ثم صار الأنبط حلفاء الرومان في القرن الأول للميلاد، وامتدت شوكتهم في أثناء ذلك إلى جزيرة العرب مما يلي سواحل البحر الأحمر.

وظلت مدينة بطرا مركزاً تجارياً بين الشرق ومصر، حتى اكتشف الناس الطريق من القصير إلى فقط على النيل فأخذت بطرا في التقهقر، وكان الأنبط قد تحضروا فذهبوا خشونتهم وعجزوا عن الغزو وال الحرب ورکنوا إلى الزراعة وألووا إلى المنازل وانغمسووا في الترف، فجاءهم تراجان الروماني سنة 105 م فحاربهم وأخضعهم وأذلهم فذهبوا عصبيتهم وانحلت قواهم وأخلدوا إلى الدعة، واحتلّوا بأهل البلاد الأصليين من السريان أو الآراميين، وانتشروا على حدود سوريا وفلسطين مما يلي الbadية بين جزيرة سينا والفرات، ولم تقم لهم قائمة من ذلك الحين.

ولما جاء المسلمين لفتح الشام وجدوا بقایا هذه الأمة هناك يتكلمون اللغة الآرامية أو السريانية، لغة أهل العراق وما بين النهرين، فحسبوا الأنبط وال العراقيين أمة واحدة فأطلقوا عليهم جميعاً اسم «الأنبط»، والذي اتفق عليه المحققون أن الأنبط بطرا وما يليها عرب، وإنما تكلموا الآرامية على أثر اختلاطهم بأهل الشام والعراق بعد ذهاب دولتهم، ويظن علماء التوراة أن النبطيين ينسبون إلى نباطوط من آباء التوراة.

ولما ضعف الأنبط ظهر مكانهم على حدود الشام والعراق أجيال جديدة من العرب، اتّخذهم الروم والفرس حلفاء يردون عنهم غارات إخوانهم أهل الbadية، أو ينصرّونهم في الحروب التي كانت تنشب بين تينك الدولتين قبيل الإسلام، فأقام حلفاء الروم في جهات حوران وهم الغساسنة، وأقام حلفاء الفرس على شاطئ الفرات في الحيرة وهم المناذرة، فإذا انتشت حرب بين الروم والفرس تجد الغساسنة للروم والمناذرة للفرس، ودافع كل منهما عن أصحابه، فكانوا مع بذواتهم وسذاجتهم عوناً قوياً لهاتين الدولتين الضخمتين ينصرّون إحداهما على الأخرى، ولنحو هذا السبب أقام العرب على الحدود بين الفرس والروم فيما بين النهرين وال伊拉克، وفيهم بطنون من إياد وربيعة ولخم وتنوخ.

فسكان الشام وال伊拉克 عند ظهور الإسلام كان معظمهم من بقایا الآراميين الأصليين، وهم السريان في الشمال والشرق، واليهود والسامريون في الجنوب، وبقایا الأنبط في الغرب، يليهم العرب الغساسنة والمناذرة ثم قبائل إياد وربيعة بين النهرين، ويختل هذا المجموع شتات من أمم أخرى كالجراجمة في جبل اللكام^١ والجرامقة في الموصل^٢ وأخلاقط من مولدي

اليونان والرومان على الشواطئ، ومولدي الفرس والأكراد في الشمال، وكانت جامعة الدين قد غلت على جامعة النسب أو الجنس أو اللغة، فأصبحت الطوائف تتنسب إلى مذاهبها الدينية، كالنصارى واليهود والسامريين، وينقسم النصارى إلى ملكين ويعاقبة ونساطرة وموارنة وغيرهم، وكانت الديانة والسياسة مرتبطتين إداهما بالأخرى، والحزب الديني عبارة عن حزب سياسي يستخدم في تأييد الدولة، فالكنيسة القسطنطينية كانت أم كنائس المشرق، وشعوب هذه الكنائس تتقاد إلى تلك الكنيسة لتأييد سلطة القيصر صاحب العرش فيها، والكلام في تفصيل ذلك يطول.

(٣-١) نظام الاجتماع في الشام والعراق

أما موقف الأهالي من الحكومة فكان على غير المألوف بيننا، بعد النسبة بين الحاكم والمحكوم في تلك الأيام، ولا سيما في البلاد التي يحكمها الغرباء البعيدين عن أهلها لغة أو دينًا أو جنسًا. فالرومان كانوا يعودون البلاد وأهلها ملگا لهم يتصرفون فيهم كيف شاءوا، وكان الفلاحون في كثير من البلاد يعودون من توابع العقار، فينتقل العقار من مالك إلى آخر، وفلاحوه معه يسمونهم serfs أي الأقنان (جمع قن)، إلا الذين تسمو بهم همهم إلى التقرب من رجال الدولة بالصناعة أو الأدب أو التجارة وهم قليلون. فكان الناس طبقتين: طبقة الخاصة وهم الملك وأهله وأعوانه ورجال الدين ومن جرى مجريهم، والعامة أهل البلاد الأصليون وأكثرهم الفلاحون أو الأكراة.

خاصة أهل الشام في العصر الروماني حكامها وهم البطارقة، والبطريق غير البطريق. وكان البطارقة عند الرومانيين جماعة من أشراف المملكة الرومانية، نشأوا مع مدينة روما وكان لهم نفوذ عظيم في الدولة الرومانية، وانحط شأنهم بعد انقسامها ولم يبق لهم عمل، فلما امتدت سطوة الروم إلى المشرق رأوا تلك البلاد البعيدة لا يستطيع الحكم فيها وإخضاع أهلها إلا أهل السلطة والهيبة، فعهدوا بذلك إلى البطارقة وولوهم المستعمرات الشرقية وفي جملتها الشام ومصر، وكانت الشام ولاية واحدة تقسم إلى ١١ إقليمًا، على كل إقليم بطريق معه الجندي أنه حاكم مستقل،^٢ وكانت حدود الشام بالنظر إلى الحكومة تنتهي من الشمال الشرقي إلى الفرات، ولا يدخل العراق وما بين النهرين فيها، وإنما جعلناهما في كلامنا عن الأهالي؛ لأنهم وأهل الشام من أصل واحد كما رأيت.

(٢) طبقات الناس في مصر

إن سكان مصر أقل احتلاطًا بغيرهم من سكان الشام والعراق، ومع ذلك فقد توالى الهجرة إلى مصر من أقدم أزمنة التاريخ قبل زمن الفراعنة.

والفراعنة أكثرهم من الفاتحين الغرباء، فكأنوا إذا فتحوا مصر واستقام الأمر فيها هاجر إليها أهل عصبيتهم لاستثمار ذلك الفتح، فيأتون على أن تكون إقامتهم وقتيّة ريثما يجتمع لهم المال، ولكن أكثرهم لا يرجعون ولا تمضي بضعة أجيال حتى يختلطوا بالسكان ويصبحوا جزءاً منهم، كما حدث في زمن الرعاعة والفرس واليونان والرومان وغيرهم من فتحوا مصر قبل الإسلام، والغالب في الفاتحين أنهم لا يزالون يميزون عصبيتهم على عصبية سائر رعاياهم، حتى ينتقل الأمر من أيديهم إلى فاتح آخر فتناسي عصبيتهم ويندمجون في جملة الوطنيين، ناهيك بمن يأتي مصر للاتجار أو الاستثمار لاشتهرها بالخصب والرخام.

وكان الفاتحون يتعرفون غالباً عن الاختلاط بسائر أفراد الأمة، فيكون منهم الجندي ورجال الدولة والكهنة ونحوهم من أهل السيادة، ويجعلون مقامهم في المدن الكبرى ويبقى الشعب للفلاحة والصناعة والخدمة، فالبطالسة حكموا مصر نحو ٣٠٠ سنة، وتقاطر اليونان في أيامهم بكثرة، وكانوا يقيمون في الإسكندرية أو غيرها من العواصم، وأكثرهم من الجندي أو التجار أو رجال الدولة لإدارة الحكومة، وكذلك كان شأن الرومان، فإنهم توّلوا وادي النيل ستة قرون، والروماني يجتهد في أن يميز نفسه عن المصري لغة ومذهبًا وخلقاً، وكانوا يقيمون في المعاقل والمحصون أو المدن الكبرى كما كان حالهم في الشام.

فلما ظهر الإسلام كان سكان مصر طبقتين:

(١) الرومان أو الروم، وعاصمتهم الإسكندرية ومنهم رجال الدولة والأجناد وبعض رجال الدين.

(٢) الأهالي وهم الأقباط الأصليون، يخالفتهم بعض المولدين من اليونان والرومان وغيرهم من النازحين للتجارة أو الخدمة أو غيرهما، من أهل الشام واليمن وال伊拉克 والتوبة وإفريقيا، وكان بين الحكومة والأهالي فاصل آخر مذهب، فكان الروم على مذهب الملك وهم الملكيون، والأقباط على مذهب يعقوب البردعني وهم يعاقبه.

(٣) طبقات الناس في إفريقيا

يريد العرب بإفريقيا البلاد الواقعة في شمال إفريقيا، حيث الآن تونس وطرابلس والجزائر ومراكش، وهي في الأصل مستعمرة سامية لبعض النازحين من فينيقية قبل الميلاد بعده قرون، بناوا فيها مدينة قرطاجنة وأنشأوا دولة تعتبر شرقية باعتبار أصلها وإن كانت غريبة في موقعها؛ لأن أهلها ساميون ولغتها من أخوات اللغة العربية، وقد حارب القرطجنيون الرومانين ونمازعوهم على السيادة، فقطعوا إليهم البحار وجبل الألب حتى حاصروا روما وكادوا يذهبون بدولتها، ولو فعلوا ذلك لتغير وجه الأرض عما نعرفه، ولكنهم أخفقوا فرجعوا ثم ارتد عليهم الرومان وحاربوهم في بلادهم حتى أفنوهم وخربوا مدينتهم، وتولى على قرطاجنة بعدهم أمم شتى كالرومان والوندال وغيرهم.

أما أهل البلاد الأصليون فقد كان معظمهم قبل القرطجنيين أقواماً من الجنس البربر يعتصمون بالجبال وأدبهم النهب والغزو، ولما ذهب القرطجنيون وخلفهم الرومان وجدوا أهل تلك البلاد طبقتين؛ إحداهما: حضريّة تتوطن السواحل فيما هو الآن مراكش والجزائر وتونس يتعاطون التجارة والصناعة، والأخرى: تسكن الجبال والبادية، فسموا الأولى الموريتانيين والثانية النوميديين، وكان النوميديون من القبائل الرحل الأشداء فلم تقو الدولة الرومانية على إذلالهم، بل كانوا كثيراً ما يهاجمون حاميتها في المدن ويعودون إلى جبالهم، ذلك كان شأنهم مع من فتح إفريقيا بعد الرومان، وما زالوا على ذلك حتى جاء المسلمين وفتحوا إفريقيا وأهلها طبقتان: الأولى أهل المدن وهو الموريتانيون ومن اختلط بهم من الأمم الفاتحة كالروم والوندال وقد اعتنقوا النصرانية وتحضروا، والثانية النوميديون وهو لا يزالون على بداوتهم وظلوا ممتنعين في جبالهم إلى أواخر القرن الأول للهجرة، وهو الذين يسميهم العرب قبائل البربر على ما هو مدون في كتبهم، ولهم شأن كبير في تاريخ الإسلام.

(٤) طبقات الناس في بلاد فارس

نريد ببلاد فارس ما بين دجلة في الغرب الجنوبي ونهر جيحون في الشرق الشمالي، ويدخل فيها خوزستان وكرمان ومكران وببلاد الجبال وخراسان وأذربيجان وأرمانيا وغيرها، وهي تحوي شعوبًا شتى من أمم مختلفة لا يمكن حصرها وتمييزها بعد أن طال العهد عليها، ولكنها تمتاز على أي حال بما يجاورها من سكان العراق والشام وامتيازاً

كلياً في الجنس واللغة والدين: أما الجنس فسكان بلاد فارس أكثرهم من الجنس الآري وهو غير الجنس السامي الذي عمر الشام وما وراءها كما تقدم، أما اللغة فالفارسية من اللغات الآرية أخوات لغات أوروبا وهي غير اللغات السامية، وأما الدين فالمذهب الذي كان شائعاً في تلك البلاد قبل الإسلام هو الزرديشتية أو المجوسية في حين أن ديانة أهل العراق والشام كانت النصرانية واليهودية.

وتولى على بلاد فارس دول كثيرة حتى فتحها الإسكندر في القرن الرابع قبل الميلاد، فلما مات واقتسم الملكة قواده لم يستطعوا استبقاء تلك البلاد في حوزتهم، فاقتسمها أمراؤها وهم المعروفون بملوك الطوائف، حتى قام أردشير بن ساسان سنة ٢٢٤ م فجمع كلمتها بالسيف وتولى عليها أهله إلى ظهور الإسلام، وهي الدولة الساسانية.

فلما ظهر الإسلام كان سكان تلك المملكة طبقتين: العامة والخاصة، أما العامة فأهل البلاد الأصليون ومنهم الفلاحون والصناع والخدم وغيرهم من نتاج الاختلاط قررواً بين القبائل الآرية وبعض القبائل الطورانية من الأتراك والدليم، وكانوا يسمون عند ظهور الإسلام «الطاجية»، ولا يعرف أصل هذه اللفظة تماماً، ولكنهم يريدون بها طبقة العامة، والطاجية ضخام الأجسام أقوياء الأبدان.

وأما الخاصة فملك وأهله ورجال دولته ورجال الدين والأشراف من بقايا الدول السالفة، فبعد الملك وأهله تأتي طبقة الشهارجة «شهریجان» أو السهارجة، وهم أشراف السواد وأرباب الدولة كالبطارقة عند الروم، تليهم طبقة الدهاقين – وأحدهم دهقان – وينتسبون إلى الملوك القدماء من الدول السالفة، وهم أصحاب الأرض وفي أيديهم أكثر البقاع التي يستغلونها على رقب الطاجية، والدهاقين خمس مراتب، وقد يتولون الإمارات ويتعاطون الحكومة كأمراء بخارا (بخارا خدا) فقد كانوا عند ظهور الإسلام من الدهاقين، وكذلك هرات، وقد يكون الدهقان مثل بعض العامة.

وكانت مملكة فارس – عند ظهور الإسلام – في حوزة الدولة الساسانية، تقسم إلى عمالات يتولى كل عمالة أمير يسمونه «مرزبان» وأصل معنى هذه اللفظة قائد الحدود، على أن بعض العمال كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال في أحکامهم، ولا سيما في الإمارات البعيدة، وكان بعضها مستقلاً استقلالاً تاماً ويتخذ كل أمير لقباً خاصاً به، مثل «رتبيل» لقب أمير سجستان، و«رنجان» لأمير سمندجان، و«جيغفويه» لصاحب طخارستان، و«اصبهيد» لصاحب بلخ، و«بازان» ل ولو الروذ، «شهرك» للطالقان، و«أخشيد» لصاحب فرغانة، وقس عليه، على أن بعض الولايات، كمرو وسرخس وطوس، كان يتولاها المرازبة.

وأكبر نفوذاً وسطوة من أشراف المملكة وملوكها رجال الدين وهم كهنة الزرديشية، ويسمىهم المسيحيون المجوس، واسمهم عند الفرس الموبذان وأحدهم «موبد»، وهم كالأساقفة عند النصارى، رئيسهم يسمونه «موبد موبذان» مثل رئيس الأساقفة، وكان نفوذهم في الدولة يفوق نفوذ الملك،^٦ ومنهم القضاة أو من يقوم مقامهم في الحكومة بين الناس.

وكان في بلاد الفرس جماعات تجمعهم نسبة أو صفة يقيمون في بلد أو يتنقلون في البلاد، كالأساورة والسياجة والزلط والأحمراء ونحوهم.^٧

(٥) طبقات الناس عند العرب الجاهلية

قد علمت أن سكان جزيرة العرب من الشعوب السامية إخوان الآراميين والعربانيين، ولكنهم لم يصيّبهم ما يصيّب إخوانهم في العراق والشام من الاحتكاط، لامتنان جزيرتهم على الفاتحين بما يحقق بها من البوادي التي يعسر سلوكها على الجيوش، وقد هم بها الآشوريون واليونان والروم وغيرهم ورجعوا عنها بلا طائل، حتى إذا كان القرن الخامس للميلاد فتح الأحباش قسمها الجنوبي (اليمن) وعجزوا عن الحجاز، فاستنصر اليمنيون بالفرس فنصرتهم وأخرجوا الأحباش وحلوا محلهم واحتلّوا بأهل اليمن وعرفوا بالأبناء الأحرار.

على أن بلاد العرب كانت ملجاً للنازحين من الشام أو مصر أو العراق، فراراً من ظلم أو ضغط أو امتناعاً على الحكومة لسبب من الأسباب، وأكثر الأمم نزوحًا إليها اليهود، لكثرة ما قاسوه من اضطهاد منذ خروجهم من مصر إلى أن اضطهدتهم الروم في عهد طيبوس وغيره، وهاجر إليها كثيرون من اليونان والرومان والفرس والهنود والأحباش وغيرهم بلا حرب ولا اضطهاد، ومع ذلك فإن العرب ظلوا مستقلين بأنسابهم وعاداتهم وآدابهم، ويقسمون باعتبار النسب أو الوطن إلى: قحطانية أو يمنية، وعدنانية أو حجازية، وانقسمت لغتهم بهذا الاعتبار إلى حميرية ومضرية، وقد فصلنا طبقات العرب وقبائلهم وخلفاءهم ومواليهم وعيدهم في الجزء الرابع من هذا الكتاب.

(٦) نظام الاجتماع في عصر الراشدين

بينا في الجزء الرابع ما أحدثه الإسلام من التغيير في العصبية العربية، وما تولد به من الطبقات الجديدة التي لم تكن قبل الإسلام، كالهاجرين والأنصار وأهل بدر وأهل القدسية، وما اقتضاه النسب الهاشمي أو القرشي من العصبيات الجديدة، ومنهم طبقات الأشراف من العلوين أو العباسيين وأبناء الأنصار والهاجرين، على ما وضعه عمر في ديوانه من مراتب العطاء باعتبار تلك الطبقات^٨ وما يلحق بذلك من طبقات التابعين وتابعـيـ التابـعـينـ والـانتـسـابـ إـلـىـ مشـاهـيرـ الصـحـابةـ كـآلـ الزـبـيرـ وـآلـ أـبـيـ بـكـرـ وـغـيرـ ذـلـكـ مـاـ اـقـتـضـاهـ إـلـيـهـ إـلـمـ إـسـلـامـ وـالـفـتوـحـ، فـتـولـدـ مـنـ ذـلـكـ بـيـوتـ إـسـلـامـيـةـ غـيرـ بـيـوتـ الـعـربـيـةـ الـعـرـبـيـةـ الـتـيـ كـانـتـ قـبـلـ إـلـاسـلامـ.

وعندما سار العرب لفتح الشام والعراق كان أول من لقيهم على حدودها العرب أبناء لغتهم وأهل عصبيتهم، ولما أوغروا في هذين البلدين استأنس أهلوها باللسان العربي لقربه من لسانهم الaramي أو السرياني، مع بعد لسان حكامهم يومئذ الرومي أو الفارسي عنهم — فكان ذلك من جملة ما مهد لهم أسباب الفتح — أما طبقات الناس الأصلية في هذين القطرين فقلما أصابها تغير في عصر الراشدين؛ لأن المسلمين لم يكونوا يخالطونهم ولا يدخلون في شيء من أحوالهم الإدارية أو الدينية أو السياسية، وإنما كان همهم اقتضاء الجزية والخرج وحماية من دخل في ذمتهم من أهل الكتاب، فكانوا يقيمون في مصاربهم أو معاقلهم بضاحية البلد المفتوح بما يشبه الاحتلال العسكري — إلا من دخل في حوزتهم من الأرقاء بالأسر أو السبي ومن اعتقوه فصار من المواري — وهناك طبقة جديدة نشأت بانتشار الإسلام خارج جزيرة العرب، وهم المسلمون من غير العرب، ولهم شروط وأحوال تختلف ما للعرب على ما بيناه في الجزء الرابع.

(٧) نظام الاجتماع في عصر الأمويين

كانت قصبة الإسلام على عهد الراشدين في المدينة بجوار قبر النبي ﷺ، فنقلها الأمويون إلى الشام قرب البلاد المفتوحة، وعملوا على توسيع دائرة مملكتهم، فجردوا الجيوش وفتحوا المدن حتى وطئت حوافر خيولهم ما وراء النهر في أقصى الشرق ... وركبوا بحر المجاز (مضيق جبل طارق)، إلى إسبانيا ففتحوها وما وراءها من بلاد الإفرنج إلى منتصف غالـةـ وهيـ ماـ يـعـرـفـ الآـنـ بـفـرـنـسـ، وـنـصـبـواـ أـعـلـامـهـمـ عـلـىـ أـعـظـمـ مـدـائـنـ الـفـرسـ

والترك والروم والإسبان والإفرنج، وهددوا القسطنطينية، وحولوا الاحتلال المؤقت إلى السيادة الدائمة، وأقاموا دولة الإسلام في هذه الأقطار وأيدوها بنقل دواوين الحكومة في الشام ومصر وال العراق من اليونانية والفارسية إلى العربية، وبعد أن كانت تلك الدواوين يتولاها أهل البلاد غير المسلمين جعلوها في أيدي المسلمين، وضرروا النقود العربية فاستعوا بها عن نقود الروم والفرس، ونقشوا عليها الآيات القرآنية بدلاً من الصور والرموز، ونقلوا طراز الدولة من اليونانية أو الفارسية إلى العربية، فالذك كله إلى انتشار العرب في الأرض وسيادة العنصر العربي ونشر اللغة العربية.

وقد استمسك العرب بعصبيتهم خلال العصر الأول الذي تلا الفتح، وفرقوا بين أنفسهم وبين المولى تفرقة واضحة، وانقسموا هم أنفسهم إلى قحطانيين وعدنانيين، وظل العرب في أيامهم على بداوتهم بما كانوا يتوكونه من المحافظة على خشونة الجاهلية وسذاجتها وأدابها.

فطبقات الناس في العصر الأموي تقدمت خطوة عما كانت عليه في زمن الراشدين، فكان الناس طبقتين كبيرتين: المسلمين وغير المسلمين، والمسلمون طبقتان: العرب وغير العرب وهم المولى، وظل غير المسلمين، وهو أهل الذمة من القبط والأقباط والروم والفرس وغيرهم، على ما كانوا عليه قبل الإسلام، إلا من دخل منهم في خدمة المسلمين من الأطباء والكتاب والمتجمرين؛ فقد نشأت منهم طبقة جديدة من أهل الذمة لم تكن قبل الإسلام، هذا إلى ما حدث في أثناء الفتوح الأموية والحرab الأهلية من انتقال بعض الطوائف والجماعات من بلد إلى آخر، كانت انتقال السياجحة والزط إلى سواحل الشام في أيام معاوية، ونقل الحجاج لجماعة من زط السندي إلى العراق وإسكانه إياهم بأسافل كسكر، وسبى عبيد الله بن زياد خلقاً من أهل بخارا وإنزاله إياهم البصرة، ولما بني الحجاج مدينة واسط نقل كثيراً منهم إليها فأقاموا فيها وتناسلوا^١ فضلاً عن كانوا يصطحبونهم أحياناً في حملاتهم البعيدة للفتح أو الغزو، فقد يكون في الحملة جماعات من البربر والأقباط والأقباط والجرامقة والجراجمة^٢ فهوئاء إذا فتحوا بلدًا فأقاموا فيه وتناسلوا واحتلطوا بأهله.

وبالجملة فإن الهيئة الاجتماعية في أيام الأمويين كانت في بده انتقالها من حالها القديمة في عصر الروم والفرس إلى حالها الجديد الذي ستكون عليه في العصر الإسلامي، ولم يتم ذلك الانتقال وتتكيف هذه الهيئة الاجتماعية بشكلها الخاص بالإسلام والتمدن الإسلامي إلا في العصر العباسي، لترفع الأمويين عن الاختلاط بغير العرب ورغبتهم في

البقاء على البداوة، ومع إيغال جنودهم في بلاد فارس وخراسان وترکستان ومصر والمغرب والأندلس، فإنهم قلما اختلطوا بأهلها أو اقتسوا منهم أو قلدوهم في شيء من عاداتهم وأخلاقهم، إلا ما اتخذوه من الحرس والبريد والسرير على ما يأتي بيانه، أما العباسيون فنظراً لغبهم بالموالي على الأمويين فقد جعلوا مقامهم بين أشياعهم الفرس، فبنوا بغداد على الحدود بين الفرس والسريان، أو بين الآريين والساميين، أو بين المجوس والنصارى، وقربوا الفرس واتخذوا منهم الوزراء والعمال ورجال الدولة، فنظموا لهم الدوواين على نحو ما كانت عليه في الدولة الساسانية.

هوما مش

- (١) البلاذري: فتوح البلدان، القاهرة ١٩٣٢، ص ١٦٣ وما بعدها.
- (٢) مختصر تاريخ الدول لابن العربي، ص ١٣١ .
- (٣) راجع تفصيل ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب.
- (٤) الهلال، ص ٩٩ سنة ١٣ .
- (٥) المسعودي ١٢٣ ج ١.
- (٦) Le Christianisme dans l'Empire Perse, 6
- (٧) البلاذري ٣٨١ .
- (٨) الجزء الأول من هذا الكتاب.
- (٩) البلاذري ٣٨٤ .
- (١٠) البيان والتبيين ١١٤ ج ١ وابن الأثير ٣٥ ج ٥.

نظام الاجتماع في العصر العباسي

كل ما قدمناه من الكلام على طبقات الناس في العصور السالفة إنما هو تمهيد للكلام عن العصر العباسي، عندما نضج التمدن الإسلامي وتكيفت طبقاته على شكل خاص بهذا التمدن، وكان على أتم أشكاله في مدينة بغداد قصبة العالم الإسلامي، فهي أوضح أنموذج يمثل به نظام الاجتماع في ذلك العصر.

كان الناس في العصر العباسي طبقتين: الخاصة وال العامة، تحت كل منها طبقات وأتباع وفروع سيأتي تفصيلها:

(١) طبقات الخاصة

كان الخاصة خمس طبقات:

- (١) الخليفة.
- (٢) أهله.
- (٣) رجال دولته.
- (٤) أرباب البيوتات.
- (٥) توابع الخاصة.

فالخليفة صاحب السلطتين الدينية والسياسية^١ فأحرى من كان هذا منصبه أن يعظ الناس شأنه، ويقتربوا إليه بالطاعة وبذل الخدمة والتزلف بالمدح والإطراء، وسيأتي الكلام على الخلفاء ومجالسهم ومواكبهم والأداب المتبعة في مخاطبتهم وغير ذلك في باب أبهة الدولة من هذا الجزء.

وأهل الخليفة هم بنو هاشم، وكانوا أرفع الناس قدرًا بعده ويسمونهم الأشراف وأبناء الملوك،^٢ فإذا دخلوا على الخليفة جلسوا على الكرسي، وسائر الناس دونهم على الوسائل أو البسط، إلا هو فإنه يجلس على السرير، وكانوا يرتزقون على الغالب برواتب يقتضونها من بيت المال، فضلًا عما ينالونه من النعم والهدايا بحسب ما يتراهى للخليفة في أمرهم، فإذا خاف تطاول أحدهم للملك أثقل يديه بالهدايا وقطع لسانه باللعنة؛ تلك كانت سياسة العباسين منذ تأسيس دولتهم، وكان الهاشميون في أولئك عنوانًا كبيرًا في تأييدهما، يتولون الأعمال ويقودون الجنادل ويعينون الخليفة بالرأي والسياسة، فلما ثأرت أصبع الخلفاء يخافون مطامع أهلهم، فأخذوا يبنلون لهم الأموال، فمن أعجزهم كف أذاه بالمال عمدوا إلى الفتک به، باشر ذلك أبو جعفر المنصور وسار الخلفاء على خطته، فكانوا يعطون أهلهم الرواتب الباهظة والهدايا الفاخرة ويسهلون عليهم أسباب القصف واللهو ليشتغلوا بذلك عن طلب الملك وتعجز هممهم عن النهوض.

فكان الهاشميون في الغالب من أهل السعة والرخاء، يتمتعون بشرف الملك ولا يحملون أوزاره وأعباء تبنته، فانغمس أكثرهم في الترف وانهمكوا في الشراب والغناء وابتغوا القصور الشماء والحدائق الغناء، واستكثروا من الجواري وجمعوا إليهم المغنيين والقيان وقربوا الشعراء والأدباء، وأكثر مقامهم في البصرة، بعيدين عن دور الخلفاء ودسائسها إلا من ولاد الخليفة عملاً أو جندًا، واشتهر بعضهم بالثروة الطائلة كمحمد بن سليمان، فقد بلغت أمواله نيفاً وخمسين مليون درهم غير الضياع والدور، وكانت غلته ١٠٠٠٠ درهم في اليوم،^٣ وبلغت ثروة خمنة بنت عبد الرحمن الهاشمي ما لا يسعه الديوان،^٤ ومع ذلك فقد كانوا يؤخذون بغير ذنبهم ويخافون الدسائس على حياتهم.

وأما رجال الدولة فنريد بهم الوزراء والكتاب والقواد ومن جرى مجراهم من أرباب المناصب العالية، وكان أكثرهم في إبان الدولة العباسية من الموالي وخصوصاً الفرس، كالبرامكة وأل سهل وأل وهب وأل الفرات وأل الخصيب وأل طاهر وغيرهم، وكانوا يختلفون نفوذاً وسطوة باختلاف الخلفاء وتفاوت أدوار التمدن، ولكن الوزارة كانت على الإجمال من أوسع أبواب الكسب على ما بيناه في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

أما أهل البيوتات فهم الأشراف من غير الهاشميين، ومرجع شرفهم إلى اتصال حبل قرباهم بالنسبة النبوى أو بقريش، وكان الخلفاء يراعون جانبهم ويفرضون لهم الأعطيـة

والرواتب ويقدمونهم في مجالسهم، على أن هذه الأنساب كانت أكثر نفعاً لأصحابها في عهد بنى أمية منها في أيامبني العباس، ولا سيما بعد ضعف العنصر العربي بقتل الأمين، فلما أفضى الأمر إلى المعتصم قطع رواتب الأشراف في جملة ما قطعه من أعطيات سائر العرب، وربما أعيد بعضها بعد ذلك على غير قياس.

(٢) أتباع الخاصة

لل وخاصة أتباع أخرجوهم من طبقات العامة بما خصوهم به من أسباب القربى والخدمة
وهم أربع طبقات:

- (١) الجنـد
- (٢) الأعوان
- (٣) المـوالـي
- (٤) الخـدمـ

(١-٢) الجنـد

فالجند فرق كثيرة تختلف أصلًا ونظاماً على ما فصلناه في الجزء الأول من هذا الكتاب، وقد يتبدـر إلى الذهـن قيـاسـاً عـلـى المـأـلـوفـ عـنـدـنـاـ أنـ الجـنـدـ رـجـالـ الـخـلـيفـةـ يـأـتـمـرـونـ بـأـمـرـهـ،ـ وـقـدـ يـكـوـنـ بـعـضـهـمـ كـذـلـكـ،ـ لـكـنـهـمـ كـانـواـ يـخـتـلـفـونـ فـيـ ذـلـكـ الـعـصـرـ عـمـاـ هـمـ عـلـيـهـ الـآنـ؛ـ لـأـنـ بـعـضـ الـخـاصـةـ مـنـ الـوـزـرـاءـ وـالـعـمـالـ كـانـواـ يـجـنـدـونـ رـجـالـاـ يـنـفـقـونـ عـلـيـهـمـ مـنـ أـمـوـالـهـمـ،ـ وـقـدـ بـيـتـاعـونـ غـلـمـانـاـ وـيـرـبـونـهـمـ لـلـاستـعـانـةـ بـهـمـ عـلـىـ أـعـادـئـهـمـ وـقـتـ الـحـاجـةـ وـيـسـمـونـهـمـ بـأـسـمـائـهـمـ،ـ وـقـدـ يـذـهـبـ الـوـزـيرـ أـوـ الـعـاـمـلـ وـيـنـتـقـلـ جـنـدـهـ إـلـىـ غـيرـهـ وـيـبـقـىـ مـعـرـوـفـاـ بـاسـمـهـ،ـ فـاجـتـمـعـ فـيـ بـغـدـادـ مـنـ الـأـجـنـادـ طـوـائـفـ كـثـيـرـةـ تـنـتـسـبـ إـلـىـ أـصـحـابـهـ،ـ كـالـسـاجـيـةـ وـالـنـازـوـرـكـيـةـ وـالـبـيـلـغـيـةـ وـالـهـارـونـيـةـ،ـ وـفـيـهـمـ الـأـتـرـاكـ وـالـفـرـسـ وـالـبـراـبـرـةـ وـالـأـحـبـاشـ وـالـأـكـرـادـ.ـ وـمـنـ هـذـاـ القـبـيلـ الـفـرـقـ الـعـزـيزـيـةـ وـالـأـخـشـيـدـيـةـ وـالـكـافـورـيـةـ فـيـ مـصـرـ مـاـ لـيـحـصـىـ،ـ وـمـنـ تـلـكـ الـفـرـقـ مـاـ هـوـ مـنـ قـبـيلـ الـضـابـطـةـ أـوـ نـوـهـاـ كـالـشـاكـرـيـةـ،ـ أـوـ لـمـجـرـدـ حـمـاـيـةـ الـقـصـورـ أـوـ غـيرـ ذـلـكـ.

(٢-٢) الأعوان

أما الأعوان فهم خاصة الرجل ورفاقه، ولا يراد بهم ما يراد بالرفاق أو الأصدقاء اليوم، فقد كان للخلفاء وسائر الخاصة من رجال الدولة والأسراف رفاق يصطحبونهم ويجالسونهم ويعيشون في منازلهم ويكون لهم رواتب يقتضونها، ومنهم طائفة الجلساء الذين يجالسون الخليفة أو الأمير، وهم غير الندماء أو الشعراة، وإنما هم رجال من أهل التعقل والثقة يختصهم الخليفة أو الأمير أو الشريف بمحالسته، فيفاوضهم في شئونه ويركز إليهم في مهامه وتكون لهم الدالة عليه، وربما كان بعضهم من مشايخ أهله أو بعض ذوي قرابته.

(٣-٢) المواي

وأما المواي فقد فصلنا الكلام عنهم في الجزء الرابع من هذا الكتاب، وبيننا أحوالهم وشروطهم وتاريخهم ولا حاجة إلى المزيد.

(٤-٢) الخدم

أما الخدم فأكثرهم في ذلك العهد الأرقاء السود والبيض من الذكور والإإناث، وقد اصطلحوا أن يسموا الأرقاء البيض مماليك والسود عبيداً، ويقسم الكلام في الخدم إلى ثلاثة أقسام: الأرقاء والخصيان والجواري.

الأرقاء:

في الجزء الرابع من هذا الكتاب فصل عن الرق في الإسلام ومصادره وأحكامه، وفصل آخر عن الخدم وطبقاتهم ونفوذهم في الدولة حتى نبغ منهم القواد والوزراء، فنأتي في هذا المقام بما يختص من هذا الموضوع بنظام الاجتماع.

قلنا فيما تقدم عن طبقات الناس قبل الإسلام: إن العامة من أهل البلاد الأصليين بالشام والعراق ومصر وفارس كانوا يئتون تحت نير الاستعباد، وبعضهم أرقاء فعلأ ولا سيما الأفنان خدمة المزارع الذين كانوا ينتقلون مع العقار من مالك إلى مالك، فهو لاء العامة جاءهم الإسلام رحمة؛ لأنهم تحولوا من الرق إلى الحرية أو إلى العهد، فمن أسلم

صار حرّاً له ما لل المسلمين وعليه ما عليهم، ومن ظل على دينه دخل في ذمة المسلمين يدافعون عنه ما أدى الجزية، إلا من حاربهم وأسروه فهو ملك لهم يتصرفون به كيف شاءوا، ولكن أكثر الذين حاربوا المسلمين في صدر الإسلام من حامية البلاد وهم الجنود من الروم أو الفرس لم يكونوا من عامة أهل البلاد المظلومين، فمن دخل من الحامية في أسر المسلمين صار ملّاكاً لهم، وكان للMuslimين بعد ذلك أن يطلقوا سراحهم أو يعتقونهم، ولكن الغالب أنهم كانوا يدخلون الإسلام ويصبحون في جملة المولى، وقد زعم بعض أمراء بني أمية استبعاد أهل البلاد المفتوحة عنوة أو اعتبار المسلمين غير العرب من المولى، ولكن الشريعة الإسلامية لم تجز لهم ذلك، فأنكره العلماء وذوو الرأي فلم يثبت أن رجع عنه من أراده من القواد ورجال الدولة، وقد كانت تصرفات أولئك القواد والأمراء من بين الأسباب التي دفعت إلى الثورة على بني أمية، فلما قامت الدولة العباسية تلاشت هذه التزعّمات نهائياً.

كثرة الأسرى والأرقاء

وتکاثر الأسرى في أثناء الفتوح حتى كانوا يعودون بالألاف ويباعون بالعشرات، اعتبر ما كان من ذلك في الصدر الأول وما تبعه من الفتوح البعيدة في أيام بني أمية، فقد بلغت غنائم موسى بن نصیر سنة ٩١ هـ في إفريقية ٣٠٠٠٠ رأس من السبي، فبعث خمسها إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ٦٠٠٠ رأس، ولم يُسمع بسبى أعظم من هذا،^٥ وذكروا أن موسى هذا لما عاد من الأندلس كان معه ٣٠٠٠ بكر من بنات شرفاء القوط وأعيانهم،^٦ وقس على ذلك غنائم قتيبة في بلاد الترك وغيرها.

وبلغت غنائم إبراهيم صاحب غزنة سنة ٤٧٢ هـ من قلعة في الهند ١٠٠٠٠ نفس،^٧ وفي وقعة ببلاد الروم سنة ٤٤ هـ بقيادة إبراهيم بن أينال سبي المسلمين ١٠٠٠٠ رأس غير الدواب،^٨ وفي جملة غنائم الحرب، فضلاً عن الأسرى من الرجال، جماعات من النساء والغلمان مما يثقل نقله، فكتّيرًا ما كانوا يبيعونهم بالعشرات رغبة في السرعة، كما فعلوا في واقعة عمورية سنة ٢٢٣ هـ؛ إذ نادوا على الرقيق خمسة خمسة أو عشرة عشرة، وربما بلغ ثمن الإنسان بضعة دراهم، ذكروا أنه بلغ من كثرة غنائم المسلمين في واقعة الأرك بالأندلس أن بيع الأسير فيها بدرهم والسيف بنصف درهم،^٩ وبالغير بخمسة دراهم، وقد يقضون عدة أشهر وهم يبيعون الأسرى والغنائم.

تلك أمثلة من أسباب تكاثر الرقيق عند المسلمين، غير ما كان يرسله بعض العمال إلى بлат الخلفاء من الرقيق وظيفة كل سنة من تركستان^١ وببلاد البربر وغيرهما.

معاملة الأسرى

كانوا في صدر الإسلام إذا ظفروا بغنيمة تولى الأمير قسمتها على القواد، بعد إرسال الخمس إلى بيت المال، ثم اختلف ذلك مع الزمان باختلاف الدول، ففي الدولة الفاطمية بمصر كانوا إذا عاد الجندي من حرب ومعهم الأسرى يصل الأسطول بالنيل إلى شاطئ القاهرة فينزلون الأسرى ويطوفون بهم القاهرة، ثم ينزلونهم في مكان كانوا يسمونه المناخ (في جهة الإسماعيلية اليوم) كان مستودعاً للأسرى الذكور، فينظرون فيهم فإذا استрабوا في أحد قتلوا، ومن كان شيئاً لا ينفع ضربوا عنقه وألقوا جثته في بئر كانت في خرائب مصر تعرف ببئر المنامة، ومن بقي يضاف الرجال منهم إلى من في المناخ، ويمضي النساء والأطفال إلى قصر الخليفة، بعد ما يعطي الوزير منهم طائفة ويفرق الباقي لخدمة المنازل، ويدفع الصغار من الأسرى إلى الأستاذين فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرمادية ويسمونهم إذ ذاك «الترابي»، وقد يرتقى أولئك الصبيان إلى رتب الأمراء.^{١١}

ولم يكن استخدام الأسرى على هذه الصورة خاصاً بال المسلمين، بل هي عادة كانت مرعية في تلك الأعصار، فمن يقع من المسلمين في أيدي أعدائهم كان حظهم الاسترقاق حتى يفتديهم المسلمون، وكان للخلفاء عناية في فكاك الأسرى يبذلون في سبيله المال أو يعطون أسرى عندهم على سبيل المقابلة، ومن هنا نشأ ما يُعرف «بالفاء» في تاريخ العلاقات بين المسلمين والروم؛ لأن الحرب كانت سجالاً بينهما في البر والبحر يأسرون بعضهم بعضاً، فاحتاج الجانبان إلى تنظيم عملية فداء الأسرى، فكانوا يتلقون على اللقاء في موضع معين لتبادل الأسرى، فيتبادلونهم واحداً بواحد، حتى إذا زاد عدد أحدهم عدد من الأسرى افتداه الجانب الآخر بالمال، وكان الأمويون يقتدون أسراهما أحياناً وعلى قلة، التفر بعد النفر، في سواحل الشام والإسكندرية وملطية وسائر الشعور على الحدود، وأول فداء منظم وقع في أيامبني العباس على يد الرشيد كان سنة ١٨٩هـ، وتواتي الفداء بعده بضع عشرة مرة في أثناء ١٥٠ سنة، وتزايدت عناية المسلمين في فكاك أسراهما حتى أصبح أهل الورع من الأغنياء يقفون المال على فكاكهم.^{١٢}

أما الروم فقلما كانوا يقتدون أسراهما بالمال، ولعل السبب في ذلك أن أولئك الأسرى يكونون في الغالب لفيغاً من رعاياهم أو أجناداً من الغرباء المأجورين وليس من الروم

أنفسهم، أما المسلمين فهم غالباً المهاجمون، فإذا ظفروا كانت غنائمهم من ذلك اللفيق، وإذا غلبوا فمن وقع في الأسر منهم كان من المحاربين الذين يستحقون الفداء، والرابطة القومية بين المسلمين يومئذ أشد وثوقاً منها بين الروم ورعاياهم وأجنادهم، على أن المسلمين كثيراً ما كانوا يأبون المال بدل الأسرى ولا سيما في الدولة الفاطمية، ولا يعرف عن هذه الدولة أنها فادت أسيراً من الإفرنج بمال ولا بأسير مثله، فكان ذلك من جملة البواعث على زيادة الأرقاء عند المسلمين.

فهل يستغرب بعد ذلك إذا استكثر المسلمون من العبيد والماليك فيبلغ عددهم عند بعضهم عشرة أو مائة أو ألفاً؟ حتى الفقراء من عامة الجندي كان أحدهم لا يخلو من عبد أو بضعة عبيد يخدمونه،^{١٣} وكان للفارس في عصر الأيوبيين عشرة أتباع يخدمونه أو بضع عشرات إلى مائة،^{١٤} فكيف بالأمراء والقواد؟ حتى في صدر الإسلام، فإن الخليفة عثمان كان له ألف مملوك مع علمك بزهد الراشدين قبله،^{١٥} فاعتبر كم يكون عددهم في أيام الثروة والترف، فقد كان الأمير في الدولة الأموية إذا سار مشياً في ركبته مائة عبد أو بضع مئات أو ألف عبد،^{١٦} وبلغ عدد غلمان رافع بن هرثمة والي خراسان سنة ٢٨٩ هـ ٤ عبد ولم يملك أحد من ولادة خراسان قبله مثله.

أصناف الأرقاء

وكانوا إذا تكاثر الأرقاء عند أحدهم وأراد استخدامهم في منزله جعل عليهم نقيباً يتولى النظر في شئونهم يسمونه الأستاذ، على أن الغالب في الغلمان إذا كثروا عند أمير أن يتخذهم جنداً يحرسونه فيعلمهم الحرب والقتال، فقد كان عند الأخشيد صاحب مصر ٨٠٠ مملوك يحرسه في كل ليلة ألفان، وأكثر فرق الجندي عند الأمراء من غلمانهم، وأصلهم من السبي والأسرى أو يتعاونونهم بمال لهذه الغاية كما تقدم في كلامنا عن فرق الجندي، وربما بلغ ثمن المملوك ألف دينار.

أما الباقون من الأرقاء للخدمة في البيوت فيعلمونهم الصنائع الازمة لتدبير المنزل، فمنهم الفراش والطباخ والخازن والوكليل أو النقيب والبواب والملح والركابي وغيرهم،^{١٧} ومنهم الوصيف والمملوك، وفيهم التركي والفارسي والبربري والزنجي والصقلبي بين مجلوب ومولد من الذكور والإإناث مما لا يُحصى.

إذا زادوا عما يحتاجون إليه في الخدمة أو الحراسة أو الحماية اتخذوا الغلمان منهم زينة لجالسهم، وكان يفعل ذلك أهل السعة واليسار ولا سيما الخلفاء، فإنهم تأنقوا في

تزينهم بأنواع اللباس المزخرفة مما لم يُسبق له مثيل، وأول من أقدم على ذلك الأمين بن الرشيد فإنه بالغ في طلب الغلمان ولا سيما الخصيان، وابناعهم وغالٍ فيهم وصيرون لخلوته وزينهم زينة الجواري، ثم صار الاستكثار من الغلمان سنة عند الخلفاء فكان عند المقىدر بالله ١١٠٠ غلام أو مملوك، وفيهم البيض والسود، فالبيض من الفرس والدليم والترك والطبرية وغيرهم، والسود من النوبة والزغاوة يجلبونهم من مصر ومكة وإفريقيا، والزنج أصلهم من رجال صاحب الزنج الذي ثار بالبصرة، وهم غتم قح يأكلون لحوم الناس والبهائم الميتة، وقد عوقبوا على ذلك فلم يرجعوا وكانوا منفردين لا يختلطون بالبيض، ولكل طائفة نوبة في خدمة الخليفة بين حراسة وغيرها.^{١٨}

الخصيان:

الخصوص عادة شرقية كانت شائعة قديماً بين الآشوريين والبابليين والمصريين القدماء، وأخذها عنهم اليونانيون ثم انتقلت إلى الرومان فالإفرنج، ويقال: إن أول من استنبطها سميراميس ملكة آشور نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد، وكان المظنون أن الخصاء يذهب بقوة الرجولية، وفي التاريخ جماعة من الخصيان اشتهروا بالشجاعة والسياسة، وتولوا مناصب مهمة في أزمنة مختلفة، منهم نارسوس القائد الروماني الشهير في عهد جوستينيان في القرن السادس للميلاد، وهرمياس حاكم أثارنية في ميسيا الشهير الذي قدم الفيلسوف أرسطو ذبيحة عن روحه غير ما ذكره فيه من القصائد، ومن اشتهر من الخصيان في الإسلام كافور الإخشidi صاحب مصر، واشتهر منهم في الهند وفارس والصين جماعات كبيرة، واستبد الخصيان في أواخر الدولة الرومانية استبداًًا كبيراً.

والخصوص أغراض أشهرها استخدام الخصيان في دور النساء غيره عليهن، فلما ظهر الإسلام وغلب الحجاب على أهله استخدموه الخصيان في دورهم، وأول من فعل ذلك يزيد بن معاوية، فاتخذ منهم حاجباً لديوانه اسمه فتح، واقتدى به غيره فشاع استخدامهم عند المسلمين، مع أن الشريعة الإسلامية أميل إلى تحريمها، على ما يؤخذ من حديث رواه ابن مظعون.

وكانت تجارة الرقيق شائعة في أوروبا قبل الإسلام، ومن أسباب رواجها أن قبائل الصقالة (الروسية) نزلوا في أوائل أدوارهم شمالي البحر الأسود ونهر الطونة، ثم أخذوا ينزعون غرباً جنوبياً نحو أواسط أوروبا وهم قبائل عديدة عُرفت بعدئذ بقبائل السلاف (الصقالية أو السلاف) والصربي والبوهيم والدلماشيين وغيرهم، فاضطروا وهم نازحون

أن يحاربوا الشعوب الذين في طريقهم كالسكسون والهون وغيرهم، وكان من عادات أهل تلك العصور أن يبيعوا أسراه بيع الرقيق كما تقدم، فتألف لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الأسرى عن طريق فرنسا وإسبانيا، وقد يحملونهم إلى إفريقيا والشام ومصر، فلما وقعت هذه البلاد في أيدي المسلمين راجت تلك التجارة.

فكان التجار من الإفرنج وغيرهم يبتاعون الأسرى من الصقالبة والجرمان من جهات ألمانيا عند ضفاف الرين والألب وغيرهما إلى ضفاف الدانوب وشواطئ البحر الأسود – ولا يزال أهل جورجيا والجركس إلى اليوم (حوالى ١٩١٠) يبيعون أولادهم بيع السلع – فإذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الأرقاء أمامهم سوق الأغنام، وكلهم يبض البشرة على جانب عظيم من الجمال، وفيهم الذكور والإثاث حتى يحطوا رحالهم في فرنسا ومنها ينقلونهم إلى إسبانيا (الأندلس) فكان المسلمون يبتاعون الذكور للخدمة أو الحرب والإثاث للتسرى، وغلب على أولئك الأرقاء انتسابهم إلى قبيلة السلاف، وكانت تلفظ عندهم « Skylaf » فعربها العرب « صقلبي »، وأصبح هذا اللفظ عندهم يدل على الرقيق الأبيض بالإجمال، وكثيراً ما يرد لفظ الصقالبة في تاريخ الإسلام ويراد به الأرقاء من قبائل السلاف والجرمان، وفعل الإفرنج نحو ذلك أيضاً فاستخدموها هذا اللفظة لنفس هذا المعنى ومنها esclave في الفرنسية و slave في الجermanية و sklave في الإنجليزية.

ولما شاع الحجاب بين المسلمين إبان سلطانهم واستخدموه الخصيان في دورهم، عمد تجار الرقيق – وأكثرهم من اليهود – إلى خصاء بعض الأرقاء وبيعهم بأثمان غالمة، فراجت تلك البضااعة وكثير المستغلون بها وأنشأوا « لاصطناع » الخصيان معامل عديدة أشهرها « معمل » الخصيان في فردان بمقاطعة اللورين في فرنسا، وكان اليهود يخصون أولئك المساكين وهم أطفال فيمود كثيرون منهم على أثر العملية، فمن بقي حياً أرسلوه إلى إسبانيا فيشتريه الكبار بثمن كبير، وأصبحوا بتواتي الأرمان يتهدلون الخصيان كما يتهدلون الخيل أو الإناث أو الآنية، فكان ملوك الإفرنج إذا أرادوا التقرب من خليفة المسلمين في الأندلس أو غيرها أهدوه التحف ومن جملتها الخصيان، كما فعل أمير برشلونة وطركونة لما طلبا تجديد الصلح من المستنصر خليفة الأندلس فإنهما أهدياه ٢٠ خصيًّا من الصبيان الصقالبة و ٢٠ قنطاراً من صوف السمور ... إلخ، فتكاثر الخصيان في بلاط الخلفاء حتى تألفت منهم فرق الحراسة الخاصة، كما تألفت الفرق من سائر المالك والعبيد، فإذا احتفل الخليفة ببيعة أو نحوها كان المالك والخصيان زينة ذلك الاحتفال.

وراجت تجارة الصقالبة في إبان التمدن الإسلامي، وكل ما كان يفد على المملكة الإسلامية منهم يستجلب من الأندلس؛ لأنهم كانوا يخسرون بالقرب منها، غير ما يحملونه من الصقالبة من جهات حراسان مما يسببه الحراسانيون ويحملونه للبيع؛ لأن بلد الصقالبة طويل يسبّبه الإفرنج من الغرب والحراسانيون من الشرق.^{١٩}

الجواري: تكاثرهن

للجواري شأن كبير في تاريخ التمدن الإسلامي لا يقل عن شأن العبيد والموالي، وأصل الجواري ما يسبّبه الفاتحون في الحرب من النساء والبنات، فهن ملك الفاتحين ولو كن من بنات الملوك أو الدهاقين، يستخدمونهن أو يستولدونهن أو يتصرفون في بيعهن تصرف المالك بملكه،^{٢٠} ولما أفضلت أحوال المسلمين إلى الترف والقصف وتدفقت الأموال من خزائن الخلفاء والأمراء جعلوا يتهادون الحلي والجواهر، فمن أحب التقرب من كبير أهدي إليه جارية أتقنت صناعة يعلم أنه راغب فيها؛ فإذا علم مثلاً أنه يحب الجمال أهدى إليه صيحة جميلة، أو علم منه ميلاً إلى الغناء أهدي إليه قينة رخيصة الصوت، وقد يهديه عدة جوار أتقن عدة صناعات، وربما صارت إداهن بعد حين أم ذلك المنزل وصاحبة الأمر فيه إذا استولدها سيدها، وإذا كانت في دار خليفة لا يبعد أن تصير من أمهات الخلفاء، كما اتفق لأكثر خلفاء بنى العباس، ذكروا أن جارية اسمها دنانير صفراء صادقة الملاحة كانت أروى الناس للغناء القديم، وقد خرجها رجل من أهل المدينة فاشتراها جعفر البرمكي، وسمع الرشيد صوتها فألفها وصار يسير إلى جعفر لسماع غنائها ووهب لها هبات سنية، وعلمت أمرأته زبيدة بخبرها فشكّته إلى عمومته فلم ينجحوا في إرجاعه، فرأت أن تشغله عنها بالجواري، فأهدت إليه عشر جوار منهن مارية أم المعتصم ومراجل أم المؤمن وفاردة أم صالح.^{٢١}

وكثيراً ما كان العمال والأمراء يتقرّبون إلى الخلفاء بأمثال هذه الهدايا، فأهدي ابن طاهر إلى الخليفة المتوكّل هدية فيها ٢٠٠ وصيحة ووصيف،^{٢٢} فلا غرو إذا تكاثرن في قصور الخلفاء والأمراء وأهل الوجاهة، وليس الاستثناء منهن حارثاً في الإسلام، وإنما هو من بقايا التمدن القديم، فقد كان ملوك الفرس والروم يتهادون وبلغت عدتهن عند بعض

الأكاسرة ٦٠٠٠ جارية،^{٢٣} وكان لجماعة من بنى العباس ألف جارية، وسيأتي بسط ذلك في مكان آخر.

أصناف الجواري

فلما تعود الناس اقتناء الجواري اشتغل النخاسون في استجلابهن من أقصى بلاد الترك والهند والكرج والخطا وأرمينيا والروم والبربر والنوبة والزنج والحبشة صغاراً وكباراً، يربونهن على ما تقتضيه موهابهن أو جمالهن، فينبغ منهان الخدم والحواضن والمواشط والولائد والغنييات والعوادات والعلامات وأمهات الدهاء والسياسة وغير ذلك، وفيهن البيضاء والسمراء والحرماء والبربرية والزنجرية، بين مولدة في البصرة أو الكوفة أو بغداد من ي Finchن العربية، ومجلوبة من أرضها أو سبية أخيذة على حالها تتلكل التركية أو الفارسية أو الرومية أو الهندية أو البربرية، ولا تزال، ولو تعررت، أجمجمية اللسان، والمولدة أثمن من الجلبية، وتختلف أثمانهن باختلاف الصناعة أو الجمال وباختلاف الغرض من ابتياعهن للتوليد أو الغناء أو الخدمة، وفي الجلبيات النصرانية واليهودية والمجوسية، لكل منهان شأنها في دينها حتى يعيدين أعيادهن بما يستلزمهم العيد من الزينة الدينية كالصلبان والأحجبة ونحوها؛ ذكر أحمد بن صدقة أنه دخل على المأمون في يوم الشعانين وبين يديه عشرون وصيفة جلباً روميات مزخرفات قد تزين بالديباج الرومي وعلق في أعناقهن صلبان الذهب وفي أيديهن الخوص والزيتون.^{٢٤}

على أنهم كانوا يختصون كل صنف من الجواري بصفات خاصة، وقد صنفو كتبًا في هذا الموضوع بينوا فيها الصفات المستحسنة في كل صنف منهان، وخلاصة ذلك قولهم: من أراد النجابة فبنات فارس، ومن أراد الخدمة فبنات قيسير، ومن أراد غير ذلك فبنات ببر، والمولادات والزنجريات للزمر، والحبشيات للحفظ وخزن المال، والنوبة للطبخ، والأرمي للتربيبة والرضاع، ومن أقوالهم: الوجوه في الترك، والأجسام في الروم، والشعور في الخطاف وفارس، والعيون في الحجاز، والخصوص في اليمين،^{٢٥} وقالوا في وصف المولادات بالبصرة والكوفة: إنهن ذوات الألسن العذبة، والقدود المھفة، والأوساط المخصرة، والأصداغ المزرفنة، والعيون المكحلة^{٢٦} مما يطول شرحه، وكانت تجارة الجواري على أروجها في بغداد، فكانوا يحملون إليها أجملهن خلقاً وأذكاهن عقلأً، لما يتوقعونه من بيعهن بالأثمان الباهظة.

تعليم الجواري

وكان تعليم الجواري وترببيتهن من أبواب الكسب الواسعة في ذلك العصر، فيذهب أحدهم إلى دار الرقيق يبتاع جارية يتوصم فيها الذكاء، فيثقفها ويرويها الأشعار أو يلقنها الغناء أو يحفظها القرآن أو يعلمها الأدب أو النحو أو العروض أو فناً من فنون المنازل ثم بيعها، وكان يفعل ذلك على الخصوص المغنون المشهورون بدقة الصناعة كإبراهيم الموصلي وابنه إسحاق، فربما ابتاع أحدهم الجارية بمائة دينار فإذا علمها وثقفها باعها بخمسمائة أو ألف دينار^{٢٧}، وأشهر المغنيات في المدينة والبصرة وبغداد تعلمن على هذه الصورة، وقد يربى بعضهم الجارية ويهديها إلى الخليفة أو الوزير لتكون وسيلة له في نفوذ الكلمة عنده، وقد تتبع إحداهن في فن من الفنون الجميلة كالغناء أو الشعر أو الأدب فتبتاع بألف الدينار^{٢٨}، فكيف إذا أتقنت غير فن منها؟ وربما نبغت منهن من تجيد الشعر والغناء أو فنون الأدب والأخبار، فيقصدها أهل الأدب وذوو المروة للمذاكرة والمساجلة في الشعر وغيره، وقد ينبغن في حفظ القرآن حتى كان منهن عند أم جعفر مائة جارية لكل واحدة ورد عشر القرآن، وكان يسمع في قصرها كدوى النحل من القراءة.^{٢٩}

فتعدد الجواري في دور الكبار وتسابق أهل الترف إلى التفنن في تزيينهن، وأشهر من فعل ذلك أم جعفر المذكورة، فإنها لما رأت ابنها يغالي في تخنيث الغلمان وإلباسهم ملابس النساء اتخذت طائفة من الجواري سمتهن المقدودات، عممت رءوسهن وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق كأنهن من الغلمان، واقتدى بها وجهيات قومها فاتخذن الجواري الغلاميات أو المطمومات وألبسنهن الأقبية والمناطق الذهب.^{٣٠}

نفوذ الجواري

وطبيعي في ربات الحسن أن يكن نافذات الكلمة؛ لأن الجمال قوة والحب سلاح، ولذلك كان أرباب الدهاء من الخلفاء والأمراء يتبعادون عن الجواري، إذا أهدى إلى أحدهم جارية لم يلتفت إليها، ولا سيما مؤسسي الدول كمعاوية والمنصور وعبد الرحمن الداخل، فاشتهر المنصور بكرهه للهو، وكان عبد الرحمن إذا أهداه أحد جارياته ردها،^{٣١} وعكس ذلك خلفاء أواسط الدولة إبان الترف والقصف والرخاء، فإنهم كانوا يتمادون في حب الجواري حتى يتسلطن على عقولهم، كما فعلت حباة بيزيyd بن عبد الملك الأموي حتى كانت تذهب

بعقله وشغلته عن مهام الخلافة، وكما فعلت ذات الحال بالرشيد، فإنها ملكت قياده حتى حلف يوماً أنها لا تسأل شيئاً في ذلك اليوم إلا قضاه لها، فسألته أن يولي حمويه الحرب والخارج بفارس سبع سنين، ففعل وكتب له عهده به وشرط على ولی عهده بعده أن يتمها له إن لم تتم في حياته،^{٢٢} وكثيراً ما كان الخلفاء والأمراء يشتغلون بالجواري عن رعاية الملك ولا سيما المغنيات، ولذلك كان رجال الحيلة يستخدمونهن للجاسوسية أو نيل رتبة أو منصب، وكان المأمون يدس الوصائف هدية ليطلعنه على أخبار من شاء.^{٢٣} ويزداد الجواري نفوذاً وسطوة إذا صرن أمهات كما صارت الخيزران وغيرها من أمهات الخلفاء، راجع الجزء الثاني والرابع من هذا الكتاب، وسيأتي الكلام على المغنيات في باب المغنيين.

(٣) طبقات العامة

فرغنا من طبقات الخاصة وأتباعهم، ونحن متكلمون عن العامة وهم أكثر عدداً وأبعد عن الحصر؛ لأنهم لفيف من أمم شتى ولا سيما في بغداد في إبان عمارتها، وقد تقاطر إليها المرتلقون والمحترفون والمستجدون من أطراف المملكة الإسلامية، بين صانع وبائع وفيهم العربي والنبطي والفارسي والخراساني والتركي والسندي والروماني والكرجي والأرمني والكردي والقبطي والبربري والتوبسي والزنجي والأندلسي وغيرهم، وفيهم أهل الحرف الراقية، وتجار السلع والأقمشة والجواهر والرقيق وباعة الطعام والشراب، فضلاً عن الأدباء والشعراء والحكماء والمغنيين والنديمة مما يطول شرحه ويعسر حصره، على أننا تسهيلاً للبحث نقسم العامة على الإجمال إلى طبقتين كبيرتين: الأولى طبقة المقربين من الخاصة، والثانية طبقة الباعة وأهل الحرف والرعيان وغيرهم.

(١-٣) الطبقة الأولى: المقربون من الخاصة

نريد بهذه الطبقة نخبة العامة الذين تسمو بهم نفوسهم أو عقولهم إلى التقرب من الخاصة بما يعجبهم أو يطربهم، فيستظلون بهم ويعيشون من عطاياهم أو رواتبهم أو يرتزقون من بيع سلعهم لهم، وهم أربع فئات: أهل الفنون الجميلة والأدباء والتجار والصناع.

أهل الفنون الجميلة:

المصوروون

الفنون الجميلة — ويسماها العرب «الأداب الرفيعة» — ثلاثة: التصوير، والشعر، والموسيقى، فالتصوير لم يكن له شأن كبير في التمدن الإسلامي لورود القول بتحريمه، وإنما كانوا يصورون ما يصورونه في الدولة الأموية والعباسية يقلدون به ما بين أيديهم من تصوير الروم والفرس، أو ما جاء به السلاجقة من صناعة المغول من أواسط تركستان، على أن التصوير أزهراً، وارتقا في بلاد فارس بعد اجتماع كلمة الفرس تحت سيطرة المغول على أثر فتح هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ هـ فإن تلك الصناعة أخذت في الارتفاع من ذلك الحين؛ لأن المغول المشار إليهم أتوا معهم بمهندسين من أهل الصين تولوا هندسة حصار بغداد، ومعهم جماعة من أرباب الفنون الجميلة والرياضيات والصناعات الدقيقة، فاستفاد الفرس منهم وأتقنوا هذه الفنون وفي جملتها التصوير ونشروه فيسائر ممالك المسلمين، وزينوا به كتبهم وجدران قصورهم ومنسوجاتهم في بلاد فارس ومصر وتركستان وغيرها^{٣٤}، وفي دور الكتب الكبرى في مداين العالم التمدن اليوم أمثلة من هذه الصور، ملونة تلويناً بديعاً أكثرها تمثل حوادث بعض كتب التاريخ أو الأدب أو العلم، وبعضها تمثل رسوماً خيالية كصورة المراجع ونحوها، وفي دار الكتب بالقاهرة صور ملونة هي عبارة عن أشكال زينوا بها كتابي الشاهنامة للفردوسي وعجائب الخلقات للقرزيوني وغيرهما، أما في إبان التمدن الإسلامي فلم يكن لأهل هذه الصناعة سوق عند الخاصة، إلا من اشتغل منهم ب الهندسة الأبنية ولا سيما في الأندلس.

الشعر والموسيقى

أما الشعر والموسيقى فقد راجا وتقرب أصحابهما من الخلفاء وسائل طبقات الخاصة واكتسبوا بهما الأموال الطائلة، وقد بینا في الجزء الثالث من هذا الكتاب ما هو الشعر العربي وما أصله، وما كان شأنه في الجاهلية وما آل إليه بعد الإسلام، من عصر الراشدين فالأمويين فالعباسيين وسائل دول الإسلام، وتحديثنا عن جمع الشعر ورواته وطبقات الشعراء في الإسلام وأشعارهم، والشعر وتأثيره في الدولة والشعر والخلفاء والأمراء وغير ذلك — وسيأتي الكلام عما كان الشعراء يصيّبونه من الأموال — بقي علينا النظر في الموسيقى وأهلها وهم المغنون.

المغنو:

الغناء قبل الإسلام

الغناء طبيعي في الأمم؛ لأنّه لغة النّفوس وترجمان العواطف، وكلّ أمة غناها يناسب طبائعها وعاداتها، فالعرب في الجاهلية كانوا أهل ماشية وأنعام وخيام، فلم ينتبهوا إلى شيء من الفنون الجميلة غير الشعر، وكانوا يلهجون به ويطربون بتلواته بلا ترنيم ولا غناء، وتلك أول خطوة نحو الموسيقى؛ لأنّها بنت الشعر أو أخته.

ثم ظهر فيهم «الحداء» وهو غناء يتغناه الحداة في سوق إبلهم والفتيا في قضاء خلواتهم، ثم عمدوا إلى «الترنيم»، وكان ترنيهم على نوعين: «الغناء» وهو ترنيم الشعر، و«التغيير» (بالغين والباء) وهو ترنيم القراءة لغير الشعر.

ثم تنوّع الغناء عندهم حتّى صار على ثلاثة أوجه، أو ثلاثة ألحان أو أصوات وهي: النصب والسناد والهزج، «فالنصب» يرددون به غناء الركبان وغناء الفتيا، وهو الذي يقال في المراطي، ويسمى «الغناء الجنابي» نسبة إلى رجل من قبيلة كلب اسمه جناب بن عبد الله يزعمون أنّ أصل الحداء منه، وهو يخرج من الطويل في العروض، و«السناد» اللحن الثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات، وهو على ستة طرق، منها الثقيل الأول وخفيفه والثقيل الثاني وخفيفه، وأما «الهزج» فهو الخفيف الذي يرقص عليه ويمشي بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحطوم، وشاع الغناء قبل الإسلام في أمميات المدن من بلاد العرب وهي المدينة والطائف وخبير.^{٣٥}

أما آلات الموسيقى عندهم فأشهرها الدف، وهو أشكال منها المستدير والمربع والكبير والصغير، والمزمار على أبسط أنواعه، ولا يظهر أنّهم كانوا يعرفون غير الدف والمزمار وما يتفرّع عنّهما من آلات النفح والقرع، وأما آلات الأوتار كالعودان والطنابير والمعاذف ونحوها فهي من صناعة الفرس والروم، لم يعرّفها العرب إلا بعد الإسلام.

الغناء في الإسلام

فلما جاء الإسلام واستولى العرب على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم والروم، كانوا في عصر الراشدين لا يزالون على بذواتهم مع غضارة الدين وشدته، مما يدعو إلى ترك أحوال الفراغ وما ليس نافعاً في دين ولا معاش، حتى تركوا ما كان عندهم من أنغام الجاهلية، ولم يكن الملاوذ عندهم إلا ترجيع القراءة والترنم بالشعر، فلما جاءهم الترف

في أيام بني أمية ومن بعدهم وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الأمم صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ، وكان المغنون من الروم والفرس قد دخلوا في سلطان العرب، وحمل بعضهم إلى الحجاز في جملة الأسرى أو السبيايا فأصبحوا من موالى العرب، وقد حملوا معهم العيدان والطناير والمعازف والمزامير، فغنوا بها فأعجبوا بـألحانهم فاشتغل المغنون وأكثراهم من الموالى في تلحين أشعار العرب على الألحان الفارسية أو الرومية، فنبغ في المدينة في أيام بني أمية طائفة من المغنين، والمشهور أن أول من أدخل غناء الفرس إلى العربية سعيد بن مسحٍج، وهو مكي أسود كان في مكة لما حاصرها الأمويون، وفيها ابن الزبير في أواخر القرن الأول للهجرة، فاستقدم ابن الزبير بعض البنائين من الفرس لترميم الكعبة، فسمعهم سعيد بن مسحٍج يغنو بالفارسية فالتنقّط النغم وغناه بالعربىة، فأعجب الناس كثيراً فسافر إلى الشام وفارس فاتقن فن الغناء، وعنه أخذ من جاء بعده من مغني المدينة وغيرها، وشاع الغناء في المملكة الإسلامية وراجت بضاعته باتساع أسباب الحضارة والرخاء، وتكثر المغنون لما شاهدوه من رغبة الخاصة في الغناء، فنبغ جماعة من مهرة الموسيقيين أتقنوا هذه الصناعة وآلاتها إتقاناً حسناً، على ما يبينه في الجزء الثالث من هذا الكتاب، وإنما يهمنا الآن النظر في تاريخ انتشار المغنين في الإسلام وما كان من منزلته ومنزلتهم.

الغناء والدين

كان الغناء في صدر الإسلام مكروهاً إن لم نقل محرماً، واختلف الأئمة في تحريميه وتحليله كله أو بعضه، ويقال بالإجمال إن أهل الحجاز أحياوه وأهل العراق كرهوه، وحجة من أهله أن أصله الشعر الذي استحسنَه النبي ﷺ وحضر عليه ودب أصحابه إليه، واستنصر به على المشركين، فقال لحسان شاعره: «شن الغارة على بني عبد مناف، فوالله لأشعرك أشد عليهم من وقع السهام في غلس الظلام». وأكثر شعر حسان يُغنى به، وحجة من حرمه أنه يسعن القلوب ويستفز العقول ويستخف الحليم ويبعث على اللهو ويحض على الطرب، وهو باطل من أصله،^{٣٦} وحل آخرون بعض الغناء وحرموا بعضاً، ولكن أهل التعقل والتقوى كانوا يكرهونه في كل حال، ولذلك لم يظهر إلا بعد عصر الراشدین، وكان معاوية بن أبي سفيان يعيّب على الراغبين في الغناء، ولا سيما أهل الوجاهة والشرف، قوله مع عبد الله بن جعفر حكاية تدل على أنه كان يعيّب عليه استماع الغناء،^{٣٧} وإن سره

اشتغال هذا وسواه من أهل النبي باللهو والطرب عن مقاومته في طلب الخلافة، بل هو كان يبذل لهم الأموال في هذا السبيل.

ولما تولى الخلافة أصحاب اللهو والقصص أخذ الغناء في الانتشار، وأول من أباحه ونشط أهله يزيد بن معاوية، ففي أيام هذا (سنة ٦٤-٦٥ هـ) ظهر الغناء في مكة واستعملت الملالي؛ لأنَّه كان صاحب لهو وطرب^{٢٨}، وتفشى الغناء الجديد في الحجاز ولا سيما المدينة، وما زال محصوراً فيها تقريباً حتى أفضت الخلافة إلى وليد بن يزيد بن عبد الملك (سنة ١٢٥-١٢٦ هـ) وكان صاحب شراب ولهو مع تهتك وخلاعة، فبعث إلى المدينة في استقدام المغنين إليه في دمشق^{٢٩} فأخذ الغناء في الانتشار في بلاد الإسلام من ذلك الحين.

مقاومة الخلفاء للغناء

على أنَّ أهل التعقل من الخلفاء والأمراء كانوا لا ينكرون عن منعه جهد طاقتهم، وكان العلاء من غير الحكام يحرضون الولاة على منعه حتى في المدينة معدن الغناء في ذلك العصر^{٤٠}، وكثيراً ما كان أمير مكة يخرج المغنين من الحرم خوفاً من افتتان الناس بغنائهم^{٤١} وصرفهم عن أمور دينهم، ولم يكن أهل الغيرة على العرض يصبرون على سماعه، ومن أقوالهم: «المغنون رسول الغرام».

ذكروا أنَّ سليمان بن عبد الملك كان يكره الغناء، فسمع مغنياً في عسكره فطلبه فجاءوه به فقال: «أعد ما غنيت». فتغنى واحتفل فقال سليمان: «والله لكانها جرجة الفحل في الشول، وما أحسب أنتي تسمع هذا إلا صبت إليه». ثم أمر به فخصي!^{٤٢}

وسليمان هو الذي أمر بخصي المختندين في المدينة لمثل هذا السبب، قيل: إنه كان في بادية له يسمُّر ليلة على ظهر سطح وقد تفرق عنه جلساً، فدعا بوضوء فجاءت به جارية فبينما هي تصب عليه لحظة ذهنها مشتعلة عنه بغناء تسمعه فتجاهل، وفي الصباح ذكر الغناء ولين فيه حتى ظن القوم أنه يشتهيه، فأفاضوا فيه وذكروا من كان يسمعه ومن يغنيه حتى توصل إلى الرجل الذي شغلت الجارية بغنائه في الأمس، فلما تحقق ذلك أقبل على القوم وقال: «هدر الجمل فضاعت الناقة، ونب التيس فشكرت الشاة، وهدل الحمام فرازفت الحمامات، وغنى الرجل فطربت المرأة!» ثم أمر به فخصي. وسأل عن الغناء أين أصله فقيل: «في المدينة بجماعة المختندين وهو أئمته والحادق فيه». فكتب إلى عامله هناك: «أخص من قبلك من المختندين المغنين». فخصاهم.^{٤٣}

على أن المتهكين من الخلفاء والأمراء لم ينكروا ما يجر إلىه الغناء من أسباب اللهو، قال الوليد بن يزيد الذي ذكرنا أنه أول من استقدم المغنيين إليه: «إياكم والغناء، فإنه ينقص الحياة ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة ويثير على الخمر ويفعل ما يفعل المسكر، فإن كنتم فاعلين فجنبوه النساء فإن الغناء رقية الزنا، وإنني لأقول ذلك فيه على أنه أحب إلى من كل لذة وأشهى إلى من الماء البارد إلى ذي الغلة، ولكن الحق أحق أن يقال!»^{٤٤}
 فكيف بالعقلاء وأهل الحزم ومؤسسى الدول أو معديها مثل معاوية وهشام والمنصور وأبي مسلم، أو أهل التقوى مثل عمر بن عبد العزيز الأموي والمهتدي العباسى؟ فقد تقدم ما عابه معاوية على عبد الله بن جعفر، أما هشام فسمع عن أشعب المضحك في المدينة فأمر كاتبه أن يكتب باستقدامه، فلما ختم الكتاب أطرق هشام طويلاً ثم قال: «هشام يكتب إلى بلد رسول الله ليحمل إليه مضحك؟!» وتمثل:

إذا أنت طاوعت الهوى قادك الهوى إلى بعض ما فيه عليك مقال

أوقف الكتاب،^{٤٥} وأما المنصور فقد كان يعيير آل الزبير بحبهم الغناء.^{٤٦} وسمع ذات يوم ضرب طنبور في داره فكسره على صاحبه، أما عمر بن عبد العزيز فبلغه أن قاضياً من قضاته استخفه الطرب من الغناء فأمر بعزله.^{٤٧} والمهتدي العباسى كان يتشبه بعمر المذكور، فلما تولى الخلافة سنة ٢٥٥هـ كانت الملاهي قد انتشرت في الدولة العباسية فأمر بمنع الغناء^{٤٨} وربما امتنعوا عنه إلى أجل ريثما يصفو لهم الزمان، كما فعل المؤمنون لما عاد من خراسان وقد أهمه تأييد خلافته، فبقي عشرين شهراً لا يسمع غناء،^{٤٩} وكذلك الأمراء العقلاء مثل خالد القسري، فإنه أمر صاحب شرطته بمنع الغناء من العراق.^{٥٠}

اشتغال الخلفاء بالغناء

ولكن ذلك لم يكن ليمنع تيار الترف من مجراه الطبيعي، على ما اقتضته الحضارة في ذلك العهد، فالمسلمون لما تحضروا وأخلدوا إلى السكينة والراحة عمدوا إلى أسباب الرخاء وفي جملتها الغناء، والرجوع في ذلك إلى الخلفاء والأمراء؛ لأن الناس على دين ملوكهم ولا سيما في الحكم المطلق، فإذا أحب الخليفة الغناء أحبه رجال دولته، فراجت بضاعته وكثير المغنون والغنيات حتى اشتغل الخلفاء وأهلهم به وتعلموا الضرب على آلاته، وأول

من دونت صنعته به عمر بن عبد العزيز في أيام إمارته على الحجاز، ثم الوليد بن يزيد وله أصوات اشتهرت عندهم، واشتغل جماعة من خلفاء بنى العباس بصناعة الألحان والتلحين، أشهرهم الواشق والمتنصر والمعتزم والمعتمد والمعتضد، أما أبناء الخلفاء فأول من دونت صنعته فيه إبراهيم بن المهدى وأبو عيسى بن الرشيد وعبد الله بن موسى الهادى وعبد الله بن محمد الأمين وأبو عيسى بن المتوكل وعبد الله بن المعتر وغیرهم، فقس على ذلك ما كان في زمن بنى أمية، ولا سيما في عصر الأضاحل، حتى كانوا يحملون المغنين والآلات فيASFارهم ولو إلى القتال، فقد وجدوا في معسکرهم لما ظفر به العباسيون بنواحي أصبهان سنة ١٣١ هـ ما لا يُحصى من البرابط والطناشير والمزامير.^١

فالغناء المطرب من جملة ما اقتبسه المسلمين من البلاد التي فتحوها، فاشتغلوا بنقل كتب الموسيقى من الفارسية والهندية،^٢ وحملهم الترف على سماعه والولوع به، فتقرب به إليهم جماعة من العامة صار لهم مقام رفيع بين الجلساء، وسنعود إلى ذكرهم.

العلماء والفقهاء والأدباء:

هم طائفة من العامة تقربوا إلى الخلفاء بما يلذ لهم من سماع الأخبار والنواذر، أو النظر في علوم تلك الأيام الدينية أو اللسانية أو الأدبية أو التاريخية، ويدخل في ذلك الفقهاء والمحثثون والنحاة والأدباء من أصحاب الأخبار، كالأسمعي وأبي عبيدة والكسائي والفراء وغيرهم، وكان للخلفاء رغبة في مجالستهم وسماع أبحاثهم، فكانوا يقربونهم ويعظمون شأنهم ويجزيونهم ويفرضون لهم الأعطية والرواتب، على ما سنبينه في باب أبهة الدولة، وقد تكلمنا عن الفقهاء ومنزلتهم في أماكن كثيرة من هذا الكتاب.

واقتدى بالخلفاء وزراؤهم وأمراؤهم، كالبرامكة والفرات فإنهم أغدقوا الأموال على هؤلاء فنشطوا العلم وأهلة حتى صار العلم صناعة يرتزق بها أصحابها من الناس، ويدخل فيما تقدم المترجمون من غير المسلمين، وفيهم السريان والروم والفرس وغيرهم من نقل العلوم القديمة إلى اللغة العربية في العصر العباسى، فإنهم فئة من أهل الذمة قربهم الخلفاء وأكرمواهم من أجل علمهم على ما فصلناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

التجار:

نريد بالتجار باعة السلع الثمينة التي تقتضيها الحضارة، كالمجوهرات والمصوغات والرياش الثمين والثياب الفاخرة والأنية والرقيق، وأكثر ارتزاقهم من الخليفة وأهله وأهل دولته وسائر الخاصة من جلساًه وأعوانه، وكانوا يقيمون في بغداد والبصرة وغيرهما من المدن الإسلامية، وأكثراً من جالية الفرس والروم وغيرهم من الأمم التي اشتهر أهلها بالعناء بهذه الطرف، كانوا يحملون إلى دار السلام أصناف التجارة للارتزاق مما يتدفق من خزائن الدولة في عصر الثروة.

فكانوا يحملون الياقوت والماس من بلاد الهند، واللؤلؤ من البحرين، والعقيق والجاج من الحبيبة، والأدهان والزيوت العطرية من نيسابور، ونسيج الكتان من شيراز، وطراز الوشي والأقمشة المنسوجة من الشعر التي تصنع منها ثياب متقالية يلبسها الخليفة ورجال الدولة، والكلل المرتفعة والستور المعلمة من القز، هذه كلها من فسا، والبسط والنخاخ والمصليات والزلالي من جهرم، والستور والمقاعد من دشت، وأحسن أصناف البسط والتک الرفيعة والوسائل والأتماط والمقاعد من أرمينية، وكان لهم صبغ من القرمز يصبغون به الصوف لا مثيل له، والعتابي وال Yoshi وسائر ثياب الحرير من أصفهان، والثياب المنيرة من الري، والأبريسم ومطارف القز، وطبقات الخشب من طبرستان ونيسابور، والسمور الأسود وجلود الخز وجلود الثعالب السود من بلاد الروس، والبز من بلخ، والكافع والنوشادر والأبار والسمور والسنجاب والثعالب من وراء النهر وكذلك المسك، ولكن أصله من بلاد التبت، والبسط والمصليات وثياب الصوف من بخارا، والديبقي من تنليس ودمياط، والستور والبسط المصرية من البهنسا، والطيانسة المقورة الرفيعة من كرمان، والحصر والقباطي والقراطيس من مصر، والمناديل الديلمية البيضاء المعلمة من قومس؛ ربما بلغ ثمن المنديل منها ٢٠٠٠ درهم، والمقانع القزيات من جرجان والسوس، والبرود المنيرة والصاع والأمساط من الري، والأكسية والجوارب من قزوين، والخفاف والسمور من همدان، والزجاج والخزف من البصرة، والحصر من عبادان، والديباج والأتماط من تستر، والجلود المدبعة من الحبشة بطريق اليمن، والمسك والكافور والعود من الصين.

أما الرقيق فأبيضه كان يحمل مما وراء النهر، وأصله من الصقالبة أو من الخزر الآتراء من بادية تركستان، وأحسنهم يربى في سمرقند وخوارزم ثم يُحمل إلى بلاد الإسلام، ويحمل الرقيق الأبيض أيضاً من الأندلس وفيه الجواري والغلمان، وأصلهم من

سي الإفرنج وجليقية أو من الصقالبة كما تقدم، ومن الرقيق الأبيض صنف كان يرد من خراسان غالٍ جدًا، ربما بيع الغلام منه بخمسة آلاف دينار، أما الرقيق الأسود فكل ما يحمل منه إلى بلاد الإسلام من السودان بطريق مصر أو بلاد المغرب.

وكان لهذه التجارات قواقل أو سفن تنقلها من الشرق والغرب والشمال والجنوب، وتبعها في أسواق بغداد وغيرها من المدن الإسلامية، وأكثر الناس اشتغالاً بنقلها في البر طائفة من التجار اليهود الراذانية كانوا يتقنون اللغات الرائجة في ذلك العصر، وهي العربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلية، ويسافرون بين الأقاليم العامرة يحملون التجارات من إقليم إلى آخر^٣ كما كان الفينيقيون في إبان دولتهم.

أما التجارة البحرية فأشهر أصحابها السيرافيون، فقد كانوا يحملون الجوادر والعاج والأبنوس واللفل والصنيل والعود والعنبر والكافور وسائر الأطعاب والعاقاقير والتوابل من الهند والصين وشواطئ إفريقيا وجزائر الهند واليمن وغيرها إلى البصرة وبغداد.^٤

فكان التجار يفدون على دار السلام بهذه التجارات فيبيعونها بالأثمان الفاحشة، ويدخل في هذه الطبقة من الناس الصيارة وأكثراهم من اليهود، وكانوا يقرضون رجال الدولة المال بالربا الفاحش، اشتهر منهم في بغداد صيارات كانت مكاسبهم موقوفة على الدولة ورجالها كآل فنخاس وآل عمران وغيرهم.

تجار المسلمين

فلما نضج التمدن الإسلامي واشتغل المسلمون أنفسهم بالتجارة لم يقتصروا في شيء من شروطها، وأتقنوها علمًا وعملًا حتى ألفوا الكتب فيها وفي الاقتصاد السياسي، وبين يدينا نسخة من كتاب «الإشارة إلى محسن التجارة» للشيخ أبي الفضل جعفر بن علي الدمشقي من أهل القرن الخامس للهجرة، فيه فوائد اقتصادية لم يسبقها أحد إليها وأبحاث في معنى النقود والسلع والمالي الصامت والأعراض وتحقيق أثمان الأشياء، ما لا تقل قيمته عما بلغ إليه علماء الاقتصاد في هذا العصر؛ يدل ذلك على ما بلغ إليه المسلمون من الرقي في علم التجارة، ناهيك بأهل الرحلة منهم إلى أطراف المعمورة في ذلك العصر، فقد طافوا العالم بـراً وبحراً من القرن الرابع للهجرة، ودونوا رحلاتهم تسهيلاً لأسباب التجارة، واكتشفوا طرقاً تجارية في البحر المتوسط والبحر الهندي والأحمر، وفي أواسط إفريقيا وأسيا لم يسبقهم إليها أحد.

أما الأسفار التجارية فقد كانوا فيها سلاطين البحار، فمخرت سفنهم البحر الأبيض على كل شواطئه، والبحر الأحمر إلى آخره، والبحر المحيط إلى سومطرة فزنجبار إلى بلاد الكفرة، وشرقاً إلى كلكتة وجزائر الهند والصين، وجنوباً إلى مدغشقر وسائر شواطئ إفريقيا الشرقية، واجتازوا بحر قزوين إلى بلاد الخزر والروس، أما برياً فاخترقو بلاد الهند وتركستان والتبت حتى نزلوا بلاد الصين، وأوغلوا في إفريقيا إلى خط الاستواء، فقربوا الأبعاد بين تلك الأقصاء المتباينة.

فكان التجار المسلمين حوالي القرن الرابع للهجرة يجوبون الأقطار برياً وبحراً، ينقلون التجارة من بلد إلى بلد، بين شواطئ فارس وسواحل إفريقيا والحبشة واليمين وسواحل الهند والصين وسائر المشرق، ويقطعون صهارى خراسان وتركستان وأرمينية وأفغانستان والهند والشام ومصر والسودان وإفريقيا والأندلس في نقل أصناف التجارة، كأنهم هم وحدهم تجار الأرض، ومركز تجارة الشرق البصرة بحراً وبغداد برياً، واشتهر من تجار المسلمين ومن كانوا يختارون البحار في القرن الرابع للهجرة السيرافيون الذين تقدم ذكرهم، والعmanyيون وكانت سفنهم التجارية تجوب بحار الصين والهند والزنج واليمين والقلزم، وقد عرفتهم المسعودي وذكرهم في تاريخه.^{٥٥}

ثروة التجار

وقد استغرقنا في الكلام على التجارة، وجملة القول أن التجارة العليا كانت من أبواب الرزق الواسعة في ذلك العصر لأصحاب المواهب التجارية ولمن يخدمهم التوفيق ويقتربون من البلاط أو بعض أهله، ظهر في عهد ذلك التمدن بيوتات تجارية جمعت الأموال حتى تجازت ثروتها الملايين من الدنانير، وفيهم جماعة من عامة الناس يوصفون بالغفلة، فخدمتهم حظهم حتى ارتقوا إلى طبقة الخاصة وجمعوا الأموال الطائلة، كآل الجصاص تجار الجوادر وقد اشتهروا في العصر العباسي مثل شهرة آل روتاشيلد في القرن الماضي وروكفلر الأميركي في هذا القرن، وأول من أثرى منهم الحسن بن عبد الله، وقد قص هو نفسه توصله إلى الثروة فقال: «كان بده يساري أني كنت في دهليز أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون بمصر، وكنت وكيله في ابتياع الجوهر وغيره مما يحتاجون إليه، وما كنت أفارق الدهليز لاحتضاني به، فخرجت إلى قهرمانة لهم في بعض الأيام ومعها عقد جوهر فيه مائة حبة، لم أر قبله ولا بعده أفسر ولا أحسن منه، كل حبة منه تساوي مائة ألف دينار، وقالت: يحتاج أن تخرط هذا حتى تصغر فتجعل في آذان اللعب

وفي قلائدها، فككت أطير وأخذتها وقلت: السمع والطاعة، وخرجت في الحال مسروّرًا وجمعت التجار، ولم أزل أشتري كل ما قدرت عليه إلى أن جمعت مائة حبة أشكالًا من النوع الذي طلبته وأرادته، وجئت عشياً وقلت: إن خرط هذا يحتاج إلى انتظار وزمان، وقد خرطت اليوم ما قدرنا عليه وهو هذا، ودفعت إليها المجتمع وقلت: الباقي يخرط في أيام، فقنعت بذلك وأعجبها الحب، فخرجت وما زلت أيامًا في طلب الباقي حتى اجتمع، فحملته إليها، وقامت على المائة حبة بدون المائة ألف درهم، وأخذت منهم جوهراً بمائتي ألف دينار، ثم لزمت دهليزهم وأخذت لي غرفة كانت فيه فجعلتها مسكنى، وكان يلحظني من هذا أكثر مما يُحصى، حتى كثرت النعمة وانتهيت إلى ما استفاض خبره.^٦

وكان ابن الجصاص بيت كبير في بغداد لبيع المجوهرات، فلما كانت النكبات والمصادرات على عهد المقىدر بالله العباسي في أوائل القرن الرابع للهجرة، كان ابن الجصاص في جملة الذين صودروا، وسبب ذلك أن عبد الله بن المعتز لما بويع بالخلافة ثم انحل أمره وتفرق رجاله وطلبه المقىدر اختفى عند ابن الجصاص المذكور، فوشى به خادم فصادره المقىدر بالله على ١٦٠٠٠٠٠ دينار، وبقي له بعد مصادره شيء كثير من الدور والقمash والأموال والضياع وغيرها، ويقال مع ذلك إنه كان أحمق أبله، فاعتبر مقدار ما كان يصل إليه التجار أهل النباهة والدهاء.

وقس على ذلك ثروة تجار الفرش والأثاث، ولا سيما في البصرة، فقد اشتهر فيها جماعة من أهل اليسار وأكثر غناهم من تجارة البحر، فقد كانت سفن بعضهم تعد بالمئات وتحمل بها التجارة إلى أنحاء العالم؛ ذكروا واحدًا منهم اسمه الشريف عمر كان دخله ٢٥٠٠٠٠٠ درهم في السنة،^٧ وبلغت ثروة صاحب مراكب في البصرة ٢٠٠٠٠٠٠ دينار.^٨ ومنهم رجل اسمه أحمد بن عمار كان طحانًا بالبصرة، فأصعد إلى بغداد في أيام المعتصم فاتسعت حاليه حتى صار يخرج من الصدقة كل يوم مائة دينار، فإذا اعتبرتها عشر ماله كان دخله ألف دينار في اليوم، واستوزره المعتصم لأمانته ولكنه كان جاهلاً.^٩

الصناع:

أما الصناعة فقد أخذوا منها بنصيب كبير؛ لأنهم كما برعوا بالتجار في السلع برعوا أيضًا في صناعتها، وارتقت الصناعة عندهم بتواتي الأجيال، حتى فاقوا في بعضها البلاد الأخرى وامتازوا بصناعات خاصة بهم، فهم الذين نشروا السكر في العالم، نقلوه من

مواطنه في الهند إلى بلاد فارس وأنشأوا له المعامل واستخرجوا منه أصنافاً لم يكن لها مثيل،^{٦٠} وهم أتقنوا صناعة الورق ونشروها في العالم، وعنهم أخذها أهل أوروبا بطريق الأندلس،^{٦١} وقد امتازت بعض مدن الأندلس بصناعات كانت تفخر بها صناعات المشرق، فكانوا يصنعون في مرسيّة وشيّاً مذهبًا في غاية الإتقان، وفيها أيضًا معمل للبسط لم يكن له نظير وأآخر للأسرة المرصعة، وكان في مالقة معامل للزجاج الغريب وفارس مزيج مذهب ونوع من الفسيفساء المفضضة على شكل خاص، ولهم اختراع في صناعة الزجاج يؤثرون لهما، فذكروا أن أول من استبطن صناعة الزجاج من الحجارة عباس بن فرناس حكيم الأندلس،^{٦٢} واخترعوا البارود للبنادق على ما بيناه في الجزء الأول من هذا الكتاب. ولهم في الميكانيكيات صناعات حسنة كالساعة التي اشتهرت في جامع دمشق وذكرها ابن جبير في رحلته في القرن السادس للهجرة، وهما ما قاله في وصفها على ما شاهده بعينه:

وعن يمين الخارج من باب جيرون جدار البلاط الذي أمامه غرفة لها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر (أي: نحاس) وقد فتحت أبواباً صغراً على عدد ساعات النهار ودبّرت تدبّراً هندسياً، فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجلتان من صفر من فمي بازدين مصورين من صفر قائمتين على طاستين من صفر تحت كل واحد منها، أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب والثاني تحت آخرها، والطاستان مثقوبتان، فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار إلى الغرفة، وتبصر البازدين يمدان أعناقهما بالبندقتين إلى الطاستين ويقذفانهما بسرعة بتدبّر عجيب تتخيله الأوهام سحراً، وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوي، وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر، لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار، حتى تنغلق الأبواب كلها وتنقضي الساعات ثم تعود إلى حالها الأولى، ولها بالليل تدبّر آخر، وذلك أن في القوس المنعطفة على الطيقان المذكورة اثننتي عشرة دائرة من النحاس مخرمة تعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة، يدير ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة، وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة، فإذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاع فلاحت للأبصار دائرة محمرة، ثم انتقل ذلك إلى الأخرى حتى ينقضى الليل وتحمر الدوائر كلها، وقد وكل بها في الغرفة

متفقد لحالها درب ب شأنها يعيد فتح الأبواب وصرف الصنج إلى مواضعها.

٦٣.١

وقد على ذلك كثيراً من الآلات المائية وغير المائية المركبة من البكر والأكر والأنابيب والأممال وغيرها للرفع والجر والنقل، ولهم فيها مؤلفات طوى الزمان بعضها وأكثراها مأخوذ في أصله عن اليونانية، ككتاب «الحيل الروحانية ومخانيقا الماء» لفيلون البيزنطي، وكتاب «رفع الأشياء الثقيلة» لهيرون الإسكندرى نقله إلى العربية قسطا بن لوقا البعلبكي، وغيرها مما نقله الإفرنج إلى اللاتينية في نهضتهم الأخيرة، وقد ترجمته العربية كما فقد أصله اليوناني قبله، وفي هذه الكتب كثير من الرسوم الموضحة لحركة تلك الآلات.^{٦٤} واشتغل المسلمون في هذه الفنون وألقوها فيها الكتب من عند أنفسهم، وقد وقفنا على مؤلف خطى في الآلات الروحانية أطلعنا عليه صديقنا الشيخ شibli النعmani العالم الهندي الشهير، وهو تأليف «رئيس الأعمال بديع الزمان أبو العز بن إسماعيل بن الرزاز الجزري» في أسباب الحيل والحركات الروحانية والآلات المتخصصة للساعات المستوية والزمانية ونقل الأجسام بالأجسام من المقدمات الطبيعية — ألهه لأبي الفتح محمود بن محمد بن قزل أرسلان من آل ارتق في أواخر القرن السادس للهجرة، فيه رسوم ملونة تمثل الآلات الضاغطة والرافعة والناقلة والمحركة حركات خفية، وبينها رسم يشبه ما وصفه ابن جبير عن ساعة دمشق — فيدل هذا وغيره على ما بلغ إليه المسلمون من إتقان فن الميكانيكيات مما يحتاج في وصفه إلى كتاب بأسره.

(٢-٣) الطبقة الثانية من العامة

نريد بهذه الطبقة سائر من بقي من الأمة وهم السواد الأعظم، وفيهم الزارع والصانع والعيار والشاطر واللص والمختن والصلعوك وغيرهم مما لا يُحصى، ولسهولة الإحاطة بهم نقسمهم إلى قسمين: أهل القرى وهم المزارعون، وأهل المدن وهم الصناع والباعة والرعاع.

المزارعون أهل القرى:

فالمزارعون أو الأكرة يتتألف منهم معظم سكان المملكة وهم أصل ثروتها، وأكثراهم من أهل الذمة يقيمون في القرى، إلا من أسلم منهم فينزل في المدن، وكانوا يتكلمون

لغات البلاد الأصلية: السريانية والآرامية واليونانية في العراق والشام، والقبطية بمصر، والفارسية في بلاد فارس، والتركية في تركستان بما وراء النهر، وأخذ العنصر العربي يتغلب على عناصرهم، واللغة العربية تتغلب على ألسنتهم، والإسلام يتغلب على أديانهم، حتى ساد الإسلام عليهم جميعاً، وعمت العربية البلاد الواقعة غربي دجلة وهي العراق والشام ومصر وإفريقياً والسودان، وصارت تعد بلاداً عربية وأكثر أهلها مسلمون، وانقرضت اللغات التي كانت منتشرة فيها إلا بقايا قليلة من السريانية في بعض القرى المتباude من الشام والعراق، أما شرقي دجلة بفارس وتركستان والهند فقد ساد الإسلام أيضاً، وانتشرت اللغة العربية بين أهل العلم، ولكن ألسنة أهل البلاد ظلت حية يتقاهمون بها إلى الآن.

العامة سكان المدن:

هم نفر من يؤمنون بالمدن من أهل المطاعم وطلاب المكاسب، بالتجارة أو الجندي أو الأدب أو الشعر، وتقدّم بهم نفوسيهم عن اللحاق بأهل الهمم وأصحاب القراءات فيضطرون إلى احتراف ما يعيشون به مما لا يحتاج لهم أو رأي، ولو أردنا الرجوع إلى أصول عامة بغداد مثلاً لرأيناهم أخلاطاً من مولدي العرب والفرس والترك والديلم والروم والنبط والأرمي والجركس والأكراد والكرج والبربر وغيرهم، ولكنهم يعودون عربياً لتغلب اللغة العربية على ألسنتهم.

وعامة المدن طبقتان: الطبقة الأولى المرتزقون بالصناعة والتجارة، وهم طائفة:

- (١) الصناع أصحاب الصناعات اليدوية كالحدادين والخيازين والخياطين والحرفيين والنجارين والصياديـن والخبازـين والطحانـين ومن جرى مجرـاهـم.
- (٢) البـاعة الذين يـبيعون البـقل والـلـحـم وغـيرـهـما من أـصـنـافـ المـأـكـولاتـ على أنـوـاعـهـا وـبعـضـ المـنسـوجـاتـ وـالـسـلـعـ الصـغـيرـةـ، وـهمـ طـوـافـ كـثـيرـ كالـزيـاتـينـ وـالـبـقـالـينـ وـالـجـازـارـينـ وـبـاعـةـ الأـقـمـشـةـ وـالـطـحـينـ وـالـخـضـرـ وـنـحـوـهـاـ.

والطبقة الثانية رعايا يرثـقـونـ منـ النـهـبـ وـالـلـصـوصـيـةـ، وـهمـ أـصـنـافـ كـثـيرـ نـشـأتـ فيـ بلـادـ إـسـلامـ عـلـىـ أـثـرـ الفـتـنـ وـالـانـشـقـاقـ بـيـنـ أـهـلـ الدـوـلـةـ لـاـ يـسـتـطـعـ أـهـلـ هـذـاـ الجـيلـ تـصـورـ أمـثالـهـ لـبـعـدـ ذـلـكـ عـنـ مـأـلـوفـهـمـ، إـلـاـ ذـيـنـ أـدـرـكـواـ مـتـشـرـدـيـ بـيـرـوتـ الـعـرـوـفـينـ بـالـزـعـرـانـ، وـهمـ طـائـفـةـ مـنـ أـهـلـ الـبـطـالـةـ كـانـواـ يـحـتـرـفـونـ السـرـقةـ وـالـتـحـرـشـ بـأـبـنـاءـ السـبـيلـ، وـالـزـعـرـانـ

مثال صغير لريع ذلك العصر، فقد كان في بغداد وغيرها من مدن الإسلام طوائف كثيرة تُعرف بالعيارين والشطار والصعاليك والزواقيل ونحوهم، كثيراً ما استغل أمر بعضهم حتى تعجز الحكومة عنهم وقد تستنجدهم في بعض حروبها.

والسبب في ظهورهم اضطراب الدولة العباسية بعد عصرها الأول، بمن دخل فيها من المفسدين منذ حجر على الخلفاء واستولى الأجناد على مصالح الدولة وجعلوا همهم جمع المال لأنفسهم والتنازع على السلطة كما بيناه في الأجزاء الماضية، ولا سيما الجزء الرابع، ولا يخفى ما تجر إليه الفتنة من وقوف الأعمال وغلاء الأسعار، غير ما كان يرتكبه الحكام أنفسهم من خزن الأقوات، فتقل أرزاق العامة فيعمدون إلى التعدي ويؤلفون عصابات لمناولة أصحاب الأموال من التجار وغيرهم في المدن، ولا سيما بغداد أم المدائن الإسلامية في ذلك العهد، فكان الرعاع يتکاثرون ويزدادون تعدياً، والحكام في شغل عنهم والخسارة معظمها على الأهالي، وتواли ذلك أعواماً حتى خربت مدينة السلام وأم حضارة الإسلام، ولا يمكن الإمام بكل طوائف الرعاع فنذكر أشهرها:

العيارون

ظهور العيارين ببغداد في أواخر القرن الثاني للهجرة، وكان لهم في الفتنة بين الأمين والمأمون شأن كبير؛ لأن الأمين لما حاصر في تلك المدينة وعجز جنده عن الدفاع استنجده العيارين، وكانوا يقاتلون عراة في أوساطهم المآلز وقد اتخذوا لرؤوسهم دواخل من الخوص سموها الخود ودرقا من الخوص والبواري قد قرنت وحشيت بالحصى والرمل، ونظموه نظام الجندي على كل عشرة عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقباء قائداً، وعلى كل عشرة قواد أميراً، ولكل ذي مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده، ومعهم أناس عراة قد جعل في أنعناقهم الجلاجل والصدف والأحمر والأصفر ومقاؤد ولجما من مكانس ومذاب، وببلغ عددهم يومئذ خمسين ألف عيار^{٦٥} وساروا للحرب يضربون الأعداء بالملقاع والحصى، وكانوا أهل مهارة في ذلك فأبلوا بلاء حسناً، لكنهم لم يثبتوا أمام المجانيق والجند المنظمة، فعادت العائدة عليهم وقتل منهم خلق كثير، وفيهم يقول الشاعر:

خرجت هذه الحروب رجالاً لا لقططان ولا لنزار

ن إلى الحرب كالليوث الضواري سطال عاروا في القنا للفرار من عريان ما له من إزار نة خذها من الفتى العيار	معشر في جواشن الحصر يعدو ليس يدرؤن ما الفرار إذا الأب واحد منهم يشد على الفيء ويقول الفتى إذا طعن الطعنة
--	---

وحدث نحو ذلك من العيارين في حرب المستعين والمعتز سنة ٢٥١ هـ إذ حصر المستعين بالله ببغداد نحو حصار الأمين فيها، فاستعان بالعيارين وفرض لهم الأموال وجعل عليهم عريفاً اسمه يبنونه وعمل لهم تراساً من البواري المقيرة وأعطائهم المخالي ليجعلوا فيها الأحجار، على أنهم كانوا كلما حدثت فتنة أهلية اغتنموا اشتغال الدولة بها وهموا بالمنازل والحوانيت وأخذوا الأموال، وكثيراً ما كانت تحدث أمثل هذه الفتنة في بغداد من القرن الثالث للهجرة وما بعده.^{٦٦}

وكأنوا يزدادون قوة كلما ازدادت الدولة ضعفاً، وتکاثرت تعدياتهم على بغداد كلما تکاثرت الفتن فيها، إما بين الحكام في التنازع على السلطة أو الأموال، وإما بين العامة تعصباً لبعض المذاهب ولا سيما بين السنة والشيعة أو الحنفية، فلم ينقض النصف الأول من القرن الخامس للهجرة حتى تسلط العيارون على بغداد، وجروا الأسواق وأخذوا ما كان يأخذه رجال الدولة وانتظموا انتظام الشرطة أو الجند، واشتهر من رؤسائهم في ذلك العصر رجل اسمه الطقطقي وأخر اسمه الرزيق^{٦٧} بطل القصة المشهورة. وظهر العيارون فيسائر المدن الإسلامية وعظم شأنهم وكثيراً ما كان الوزراء وغيرهم من أرباب الحل والعقد يقاسمونهم ويسكنون عنهم.^{٦٨}

الشطار

هم طائفة أخرى من الرعاع كانوا يمتازون بملابس خاصة بهم ولهم مئزر يأتزرون به على صدورهم يعرف بأذرة الشطار^{٦٩} وكانوا أكثر انتشاراً في المملكة الإسلامية من العيارين وأطول بقاء منهم، وظهروا في الأندلس ولهم فيها نوادر وتنكبات وتركيزات وأخبار مضحكة تملأ الصحف لكثرتها وتضحك الثكلى^{٧٠} على أن اسمهم كان يختلف باختلاف البلاد، فهم يعرفون في العراق بالشطار، وفي خراسان يسمونهم سرا بداران، وفي المغرب الصقرة، وسماهم ابن بطوطة «الفتاك»، وذكر تفسيهم في أيامه (القرن الثامن للهجرة) وأشار إلى اجتماعهم على الفساد وقطع الطرق وتكاثرهم في نواحي

سبزوار، حتى هجموا على مدينة بيهق وملكوها وملكوا غيرها وجندوا الجنود وركبوا الخيل وولوا أحدهم سلطاناً عليهم، وانحاز إليه العبيد يفرون من موالיהם فكل من جاء من هؤلاء أعطاه ذلك السلطان مالاً وفرساً، وإذا ظهرت منه شجاعة أمره، إلى آخر ما ذكره.^{٧١}

ولم يكن الشطار وغيرهم من أهل الشرور يعدون اللصوصية جريمة، وإنما كانوا يعدونها صناعة ويحللونها باعتبار أن ما يستولون عليه من أموال التجار الأغنياء زكاة تلك الأموال التي أوصي بإعطائهما للفقراء،^{٧٢} وكان أولئك اللصوص إذا شاخ أحدهم ربما تاب فتستخدمه الحكومة في مساعدتها على كشف السرقات، وكان في خدمة الدولة العباسية جماعة من هؤلاء الشيخوخ يقال لهم: «التابون»، على أنهم كثيراً ما كانوا يقاسمون اللصوص ما يسرقوه ويكتمون أمرهم.^{٧٣}

طوائف أخرى من الرعاع

وهناك طوائف أخرى من رعاع العامة أو من في معناهم، تکاثروا في عصر الاضمحلال بالملكة العباسية، كالصعاليك والزواقيل والحرافيش وغيرهم، كان طلب السلطة يستعينون بهم في حروبهم بعضهم على بعض ويدعون بالألاف، فقد كان مع أبي دلف عشرون ألفاً من الصعاليك.^{٧٤}

ويدخل في معنى هذه الطوائف من تجمهروا للارتزاق بالتعدي على أصحاب الأموال العبيد، وكانوا كثيرين لا يخلو منهم منزل كما رأيت، فلما اختلت الأحوال وضعف أسيادهم ذهبت الهيبة من قلوبهم حتى إذا سنت لهم فرصة نهضوا مع الناهضين، وربما انتلوا لنهوضهم دعوة دينية يقومون بها، كما فعل صاحب الزنج في أواسط القرن الثالث للهجرة، فإنه قام قرب البصرة باسم الشيعة العلوية، وكان في ضواحيها جماعة من العبيد يكسحون السباح، فدعاهم إلى النهوض معه على أن يحررهم من الرق ويريحهم من التعب، وكانوا قد شاهدوا رفاقهم الأرقاء البيض (المماليك الأتراك) يتمردون على الخلفاء فاقتدوا بهم، فكل عبد سمع بهذه الدعوة تبعها، حتى استفحلا أمرهم وضرموا أسيادهم بالسياط،^{٧٥} واجتمع منهم مئات الآلاف، وحاربوا الدولة العباسية بضع عشرة سنة قتلوا في أثنائها ٢٥٠٠٠٠ نفس من الرجال والنساء والأطفال مما تقشعر له الأبدان، وانتهت تلك الدعوة بقتل زعيمها وتفرق أصحابه، وأراد الجهة بمصر أن يفعلوا مثل الزنج بالعراق فلم يفلحوا، وقد يعد من هذا القبيل أيضاً الحشاشون، وهم طائفة

من الفوضويين ظهروا في القرن الخامس للهجرة، وجعلوا أذهبم الفتاك بأهل السلطة غدرًا، وكان لهم شأن كبير في تاريخ الإسلام.^{٧٦}

ومن طبقات العامة «المختنون»، وكانوا في الحجاز قبل الإسلام، وهم جماعة من أهل الخلاعة انتشروا بالمدينة بعد الإسلام على إثر ظهور اللهو والقصف وكثرة الأموال، وكثيراً ما كانوا يفسدون النساء يت�سطون بينهن وبين الرجال، وكان أحسن المغنين منهم، وقد تقدم خبر سليمان بن عبد الملك وما فعله بهم، وربما أشبها ما كان في القاهرة من «الخلول» من عهد غير بعيد، ولما انتشر الغناء في المملكة الإسلامية انتشر المختنون معه، وتکاثروا في بغداد والشام ومصر والأندلس وسائر المغرب، والأندلسيون إذا قالوا المخانيث قد يریدون المالك الصقالبة.

وفيما خلا ذلك فقد كان في المدن من طبقات العامة ما لا يحصيه عد، من أهل الاحتيال للمعايش بأساليب الخداع والشعوبنة أو نحوهما، ولكل صنف من هذه الأصناف اسم خاص، وربما زاد عددها جميعاً على عشرين نوعاً، كقولهم المطراني والكاغاني والبانوان والقرسي والعواء والمشعبد والفلور والأسطيل والمزيدي^{٧٧} وغيرهم.

أخلاقيات العامة:

فالعامة في المدن أخلاط من غوغاء ولغيف من أمم شتى وصناعات شتى، وهم جهال أتباع من سبق إليهم من غير تمييز بين الفاضل والمفضول، وسئل الإمام علي عن العامة فقال: «همج رعاع أتباع كل ناعق». وقال الفضل بن يحيى: «الناس أربع طبقات: ملوك قدمهم الاستحقاق، ووزراء فضلتهم الفطنة والرأي، وعليه أنهضهم اليسار، وأواساط الحقهم بهم التأدب، والناس بعدهم زيد جفاء وسيل غثاء، لکع لکاع ورببيطة اتضاع، هم أحدهم طعامه ونومه». وقال معاوية للأحنف: صفت لي الناس، فقال: «روعوس رفعهم الحظ، وأكتاف عظمهم التدبير، وأعجاز أشهرهم المال، وأدباء الحقهم بهم التأدب، والناس بعدهم أشباه البهائم؛ إن جاعوا ساموا وإن شبعوا ناموا». هذه هي آراء خاصة تلك الأيام في عامتهم.

ومع ذلك فطلاب السلطة كانوا يراعون جانبهم ويقربونهم بما يرضيهم ولا سيما الدين وهو جامعتهم الكبرى، ولا غرو فإنه أكبر أسباب سعادتهم، ولهذا السبب رأيتهم شديدي التعلق بال الخليفة إذا أظهر التقوى، لما في منصبه من الصبغة الدينية، وهو رئيسهم وإمامهم، فكانوا له عضداً قوياً، ولو لواهم لذهبت الخلافة العباسية من بغداد

قبل الزمن الذي ذهبت فيه؛ لأنهم كانوا كثيراً ما ينهضون لنصرته على القواد والوزراء إذا أرادوا خلعه، وأكثراهم مع ذلك لا يعرفون من الدين غير اسمه، ولو سئل أحدهم عن اعتقاده لما أحسن الجواب، فضلاً عن بساطتهم وسذاجة أفكارهم وجهلهم سائر الأمور. ذكروا من دهاء معاوية في مداراة الناس واجتذاب قلوب العامة أن رجلاً من أهل الكوفة دخل على بعير له إلى دمشق في حال من صرفهم عن واقعة صفين، فتعلق به رجل من أهل دمشق فقال: هذه ناقتي أخذت مني في صفين! فارتفع أمرهم إلى معاوية، وأقام الدمشقي خمسين رجلاً بينة يشهدون أنها ناقته فقضى معاوية على الكوفي وأمره بتسليم البعير إليه، فقال الكوفي: «أصلحك الله، إنه جمل وليس بناقة». فقال معاوية: «هذا حكم قد مضى». ودس إلى الكوفي بعد تفرقهم فأحضره وسألته عن ثمن بعيره ودفع إليه ضعفيه وبره وأحسن إليه وقال له: «أبلغ علياً أنني أقابلة بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل».

وبلغ من أمرهم في طاعته أنه صلّى بهم عند مسيتهم إلى صفين الجمعة في يوم الأربعاء، وأغاروه رءوسهم عند القتال وحملوه بها، ورکنوا إلى قول عمرو بن العاص أن علياً هو الذي قتل عمار بن ياسر حين أخرجه لنصرته، ثم ارتقى بهم الأمر في طاعته إلى أن جعلوا لعن علي سنة ينشأ عليها الصغير ويهدك عليها الكبير.

وذكروا عن عامة بغداد في إبان التمدن الإسلامي أن رجلاً منهم رفع إلى بعض الولاة وشایة برجل من علماء الكلام زعم أنه يتزندق، فسألته الوالي عن مذهب الرجل فقال: «إنه مرجئ قدرى إباضي راضي، يبغض معاوية بن الخطاب الذي قاتل علي بن العاص!» فقال له الوالي: «ما أدرى علي أي شيء أحسدك، على علمك بالمقالات أو على بصرك بالأنساب...»

وكان جماعة من علماء ذلك العصر يجتمعون في بغداد للمناظرة في أبي بكر وعمر وعلي ومعاوية، وكان بعض العامة يأتون فيستمعون، فتصدى أكبرهم لحية ذات يوم لبعض الباحثين وقال له: «كم تطنبون في علي ومعاوية وفلان وفلان!»

قال له الرجل: «فما تقول أنت في علي؟»

قال: «أليس هو أبو فاطمة؟»

قال: «ومن هي فاطمة؟»

قال: «امرأة النبي عليه السلام ... بنت عائشة أخت معاوية!»

قال: «فما كانت قصة علي؟»

قال: «قتل في غزوة حنين مع النبي، وقد كان عبد الله بن علي حين خرج في طلب مروان إلى الشام، وكان من قصه مروان ومقته ما قد ذكر، ونزل عبد الله بن علي الشام، ووجه إلى أبي العباس السفاح أشياخاً من أهل الشام من أرباب النعم والرياسة، فحلفوأبي العباس السفاح أنهم ما علموا لرسول الله قرابة ولا أهل بيته يرثونه غيربني أمية حتى وليتم الخلافة».»^{٧٨}

أولئك هم العامة في كل زمان ومكان، وطلب السلطة المطلقة لا يستغفون عنهم؛ لأنهم معظم الرعية وبهم تُجبي الأموال ومنهم تتألف الجنود، فمن استطاع كسب ثقتهم واجتذاب قلوبهم ملكوه، ولا يجذب قلوب العامة مثل الدين، فإذا اجتمعت السياسة والدين تمت وسائل السلطة المطلقة وتولى أمور الناس أكثرهم دهاء وأقدرهم على استرضاء العامة بالتقوى.

هوا مش

- (١) راجع الجزء الرابع.
- (٢) المسعودي ١٧٧ ج ٢ وغيره.
- (٣) المسعودي ١٨٨ ج ٢.
- (٤) الأثليدي ١٥١.
- (٥) نفح الطيب ١١٣ ج ١ وابن الأثير ٢٥٩ ج ٤.
- (٦) ابن الأثير ٢٧٢ ج ٤.
- (٧) ابن الأثير ٤٦ ج ١٠.
- (٨) ابن الأثير ٢٢٧ ج ٩.
- (٩) نفح الطيب ٢٠٩ ج ١.
- (١٠) المقرizi ٣١٣ ج ١.
- (١١) المقرizi ١٩٣ ج ٢ و ٤٨٩ ج ١.
- (١٢) المقرizi ٧٩ و ١٩١ ج ٢.
- (١٣) المسعودي ٢٢ ج ٢.
- (١٤) المقرizi ٩٥ ج ١.
- (١٥) الدميري ٤٩ ج ١.
- (١٦) ابن الأثير ١٤٧ ج ٤ والأغاني ٣٧ ج ١.

- (١٧) طبقات الأطباء ١٤١ و ١٤٥ ج. ١.
- (١٨) تاريخ الوزراء ١٢.
- (١٩) ابن حوقل ٧٥.
- (٢٠) ابن خلكان ٣٢٠ ج. ١.
- (٢١) الأغاني ١٣٧ ج ١٦.
- (٢٢) المسعودي ٢٨٠ ج ٢.
- (٢٣) المسعودي ١١٥ ج ١ وترتيب الدول ١١١.
- (٢٤) الأغاني ١٣٨ ج ١٩.
- (٢٥) ترتيب الدول ١١٢.
- (٢٦) المسعودي ١٥٤ ج ٢.
- (٢٧) الأغاني ١٥٤ ج ٨.
- (٢٨) الجزء الثاني من هذا الكتاب.
- (٢٩) ابن خلكان ١٩٠ ج ١.
- (٣٠) المسعودي ٣٦٦ ج ٢.
- (٣١) نفح الطيب ٧٠٩ ج ٢.
- (٣٢) الأغاني ٨٠ ج ١٥.
- (٣٣) العقد الفريد ١٤٨ ج ١.
- (٣٤) Revue Arch, Les Ecoles des Peintures en Perse, 1905, 11
- (٣٥) العقد الفريد ١٨٦ ج ٣.
- (٣٦) العقد الفريد ١٧٨ ج ٢.
- (٣٧) العقد الفريد ١٨٢ ج ٣.
- (٣٨) المسعودي ٦٨ ج ٢.
- (٣٩) العقد الفريد ٢٦٩ ج ٢، والمسعودي ١٣٣ ج ٢.
- (٤٠) العقد الفريد ١٩٦ ج ٢.
- (٤١) الأغاني ١٣٠ ج ٢.
- (٤٢) الكامل للمبرد ٣٧٧.
- (٤٣) الأغاني ٦١ ج ٤.
- (٤٤) الأغاني ١٣٤ ج ٦.

- (٤٥) المسعودي ١٣١ ج .٢.
- (٤٦) الأغاني ١١٥ ج .٢.
- (٤٧) المسعودي ١٢٢ ج .٢.
- (٤٨) قوات الوفيات ٣٧١ ج .٢.
- (٤٩) الأغاني ١٠٦ ج .٥.
- (٥٠) الأغاني ١٢٣ ج ٢ و ٦٣ ج .١٩.
- (٥١) ابن الأثير ١٩٠ ج .٥.
- (٥٢) الجزء الثالث.
- (٥٣) ابن خرداذبة ١٥٣.
- (٥٤) الإصطخري والمسعودي.
- (٥٥) المسعودي: مروج الذهب، ص ٥٤ ج ١.
- (٥٦) قوات الوفيات ١٣٨ ج .١.
- (٥٧) ابن الأثير ٢٠ ج .٩.
- (٥٨) ابن حوقل ١٩٨.
- (٥٩) الفخرى ٢١٣.
- .Encycl, Brit, Article Sugar (٦٠)
- (٦١) الجزء الأول.
- (٦٢) نفح الطيب ٨٧٣ ج .٢.
- (٦٣) رحلة ابن جبير ٢٧١.
- (٦٤) المشرق عدد ٦ سنة ٧.
- (٦٥) المسعودي ٢١٨ ج .٢.
- (٦٦) ابن الأثير ٢٤٤ ج ٨ و ١٤٥-١٥٠ ج .٩.
- (٦٧) ابن الأثير ٢٤٦ ج .٩.
- (٦٨) ابن الأثير ٤١ ج .١١.
- (٦٩) الأغاني ٩١ ج .٦.
- (٧٠) نفح الطيب ٧٦٦ ج .٢.
- (٧١) رحلة ابن بطوطة ٢٣٥ ج .١.
- (٧٢) الجزء الرابع.

نظام الاجتماع في العصر العباسي

- (٧٣) المسعودي ج ٣٣٥ ج ٢.
- (٧٤) ابن الأثير ج ٦٩ ج ٧.
- (٧٥) ابن الأثير ج ٨٢ ج ٧ والطبرى.
- (٧٦) الهلال ص ٨٣ سنة ١٠.
- (٧٧) كتاب البخلاء ص ٣٧، وقد فسر الجاحظ في ذلك الموضع معانى هذه الألفاظ.
- (٧٨) المسعودي ج ٥٢ ج ٢.

الآداب الاجتماعية

آداب العرب في الجاهلية

نريد بالآداب الاجتماعية ما يدور بين الناس من المعاملات الأدبية والأمور الاعتبارية في هيئتهم الاجتماعية، وما يتداولونه من العلاقة العائلية على ما تقتضيه عاداتهم وأخلاقهم وطبائع إقليمهم، وأساس تلك الآداب في التمدن الإسلامي ما كان عند العرب قبل الإسلام من المناقب والعادات وحال المرأة عندهم، فنقدم الكلام بتمهيد في هذا الشأن.

(١) مناقب العرب الجاهلية

تختلف مناقب الناس وأدابهم باختلاف ضروب معايشهم وأطوار تمدنهم وطبائع إقليمهم، فللبدو مناقب غير مناقب الحضر، ولأهل القرى آداب تختلف عمًا لأهل المدن، وأهل الأقاليم الحارة آدابهم تختلف آداب أهل الأقاليم الباردة، جريأًا على ما يقتضيه ناموس الارتفاع من التناسب بين طبائع القوم وطبائع إقليمهم، لئلا يتولاهم الضعف ويدركهم الفناء.

فأهل البدارية يحتاجون إلى الشجاعة مثلًا أكثر مما يحتاج إليها المتمدنون، لفترد البدوي عن المجتمع وتواحشه في الخلاء وبعدة عن الحامية وانتباذه عن الأسوار، ويقوم بالدفاع عن نفسه بيده فهو دائمًا يحمل السلام وينفرد في القفر واثقًا بنفسه، فصارت الشجاعة سجية له، بخلاف أهل المدن الذين ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة وانغمسو في الترف، ووكلوا أمرهم في الدافعة عن أعراضهم وأموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحمية التي تولت حراستهم، واستناموا إلى الأسوار التي تحوطهم فهم آمنون قد ألقوا السلاح، وتولت على ذلك منهم الأجيال وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على سواهم، فأصبح الجن طبيعة فيهم، اعتبر ذلك بسائر ما يغلب في طباع أهل البدو كالعصبية

والكرم والوفاء والأنفة والنجدة وغيرها مما تستلزمها البدوة ولا تستقيم إلا به على ما سنبينه:

(١) **العصبية**: هي أظهر طبائع البدو وأعمها، وقد فصلنا أسبابها وشروطها وسائل أطوارها في الجزء الرابع.

(٢) **الشجاعة**: البدو يعيشون غالباً بالغزو، وهم دائمًا في قتال أو يتأهبون لقتال، فالشجاعة شرط من شروط بقائهم، وقد كانت غالبة فيهم، يكرمون الشجاع ويتفاخرون بالشجعان، و Ashtoner فيهم جماعة كبيرة من أهل البسالة في الجاهلية والإسلام، كعمرو بن معد يكرب، وربيعة بن المقدم، ودرید بن الصمة، وعروة بن الورد، وعنترة العبسي، ولملعب الأسنة، وعامر بن الطفيلي، وعلي بن أبي طالب، وخالد بن الوليد، والمقداد بن الأسود، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن الزبير وأخيه مصعب وغيرهم، و Ashtoner نسائهم بالشجاعة أيضاً، كما سيجيء في كلمنا عن المرأة.

(٣) **الكرم**: وهو من مناقب أهل البدوية، اقتضته طبيعة إقليمهم لما قدمناه من مسيرة البدوي في أسفاره منفردًا، وقد يتبعده عن مضربه أيامًا في بادية لا طعام فيها ولا ماء، فإذا لم يجد من يقرره ويستقيه ماء، فنشأ عن ذلك الضيافة وقرى الضيافان، وأصبح الكرم من أفضل المناقب عندهم، شأن سائر أجيال البدو غير العرب كالجرمان قبل تمدنهم، فكان البدو يتفاخرون بالضيافة ويتسابقون إلى المغالاة فيها، حتى أودعوا ناراً بجانب مضاربهم يهتدى بها المارة ليلاً يسمونها نار القرى، وبالغوا في احترام الكرماء ترغيباً للناس في هذه الفضيلة لافتقارهم إليها، فأصبح الأسفار يبالغون في ذلك ويكتثرون من النيران، فإذا اشتد البرد أو هبت الرياح فعجزوا عن إيقادها، فرقوا الكلاب حوالي الحي وربطوها إلى العمود ل تستوحش فتنبج، فيهتدى الأضيف على نباحها، ولذلك كان من أسماء الكلاب عندهم «داعي الضمير، وتمتم النعم، ومشيد الذكر»، وكانوا يتفاخرون بعظم جفانهم وارتفاعها، ومن أكبر تلك الجفان جفنة عبد الله بن جدعان، كان الرجل يستظل في ظلها.^١

وأشهر الكرماء في الجاهلية حاتم الطائي ويضرب المثل بكرمه، فيقال للمبالغة في مدح كريم: «إنه أكرم من حاتم طي»، ومنهم كعب بن ماما الإيادي، وهرم بن سنان، وخالد بن عبد الله وغيرهم، وكان جودهم قاصرًا على الضروري من حاجات الإنسان، كالطعام والشراب واللباس لبساطة أحوالهم، وربما جادوا بالإبل أو الماشية، فلما ظهر الإسلام وكثرت أموالهم من الغنائم والعطايا صاروا يجودون بالنقود والجواهر والضياع والرقيق وغيرها كما سنرى.

(٤) الوفاء: لما كان الغدر سهلاً على البدوي، لإمكانه الفرار من القصاص والإيغال في الbadia، حيث لا يستطيع خصمه الوصول إليه وليس ثمة وازع يخيفه أو جند يقبحون عليه، ولا هناك دين يزجره مما يفضي إلى ضياع الحقوق وفساد الأحوال، جعلوا يرثبون الناس في الوفاء ويعظمون أمره ويمتدحون أهله، فرغب الناس فيه وأصبح بتوالي الأجيال خلقاً لهم، وصاروا يأنفون من إخلال الوعود ويشهرون بمرتكبه ويبالغون في الثناء على أهل الوفاء.

(٥) الاستقلال: لا شيء أحب إلى أهل الbadia من الاستقلال، ولا سيما الرحل فإنهم طبعوا على الحرية وكرهوا التقيد بشيء، حتى المكان فهم لا يتوطنون صقعاً، بل يجعلون منازلهم على ظهورهم ينتقلون بها إلى حيث يطيب لهم المقام، وهم لا يحملون ضيماً ولا يصبرون على ظلم، وتمكنت الحرية من طباعهم حتى ظهرت في أقوالهم وأفكارهم، ونشتوا على الأنفة وعززة النفس وإباء الضيم، ألا ترى كيف ظهر ذلك منهم في صدر الإسلام، إذ كانوا يخاطبون الخلفاء كما يخاطبون عامة الناس، والخلفاء لا يرون بأساساً بذلك؛ لأنّه كان طبعاً مألوفاً فيهم؟

(٦) النجدة: هي من طبائع البدو ولازمة لزوم الضيافة، وبينهما تناسب من حيث إغاثة الصعييف، فإذا استنجدت البدوي على أمر أنجده ولو بذل نفسه في هذا السبيل، وتظهر نجدهم على الخصوص في الجوار وحمى الذمار، وقد فصلنا ذلك في الجزء الرابع.

(٧) الأريحية: وقد وصفنا هذه المنقبة وصفاً مختصراً في الجزء المذكور، وهي من مناقب أهل النجدة والفروسية التي يعبر عنها الإفرنج بقولهم Chevalerie ومرجعها إلى الافتخار بحسن الأحداثة، ولما كان العرب أهل خيال وذوي نفوس حساسة كان للأريحية شأن كبير، فالرجل منهم تقيمه كلمة وتقعده، وربما تجردوا للحرب نسمة على عباره تعطن في شجاعتهم أو كرمهم أو وفائهم، وكانوا يتأثرون على الخصوص من أقوال النساء مدحاً أو طعناً فيبذلون ما في وسعهم التماساً لثنائهن، وكثيراً ما كان ذلك سبباً في ابتعادهم عن الرذائل، وربما تعرض بعضهم للقتل خوفاً من استخفافهن، وفي أخبار الجاهلية شواهد كثيرة على ذلك.

(٨) الثأر: وكما ينجدك البدوي إذا استنجدته فهو لا يصبر عن الأخذ بثاره إذا أساء إليه، وإذا قتل رجل من قبيلة رجلاً من قبيلة أخرى نشأت العداوة بين القبيلتين، فتقوم المواترة منها للأخذ بثارها ولا تنفك حتى تقتل من الأخرى من هو كفاء لقتيلها أو يتصالحوا على الديمة، ومن أشهر حوادث الثأر في الجاهلية الحرب التي أثارها المهلل بن

ربيعة للأخذ بثأر أخيه كليب، فأصبح المهلل مثلاً في ذلك فيقولون: «فلان آخذ للثار من المهلل» لأنه حلف منذ طلب الثأر أنه لا ينزع درعه ولا يشرب الخمر ولا يدهن رأسه بالطيب ولا يقرب النساء إلا بعد نيل مرامه.

(٩) **الشيخوخة:** كان للشيخوخة عند العرب مقام رفيع، ولفظ الشيخ يدل عندهم على الشيخوخة والرئاسة معاً، وكانوا إذا تساوت المناقب فيمن يرشحونه للإمارة فضلوا أكبرهم سنّاً، كما فعلت قريش في حرب الفجار الثانية.^٢ ولما جاء الإسلام وأحدث ما أحدثه من المناقب الدينية، كانت هذه المناقب في جملة ما فضلوه على السن، فإذا تساوت كلها في المرشح للإمارة فضلوا أكبرهم سنّاً، عملاً بالحديث النبوي بشأن الإمامة: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله تعالى، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سنّاً».^٣

(٢) المرأة في الجاهلية

اختلت الآراء في حال المرأة العربية في العصر الجاهلي، ولا مشاحة أنها كانت على الإجمال عظيمة الشأن عفيفة النفس، وعفتها من ثمار حب الاستقلال والأنفة؛ لأن المرأة التي تشب على استقلال الفكر وإباء الضيم تترفع عن ارتكاب ما يهون على المرأة الناشئة في مهاد الذل المغلولة بأغلال الحجاب، ويقال نحو ذلك في غيرة رجالهم على العرض، فإنه من مستلزمات العفة والأنفة والاستقلال؛ لأن الرجل الأنوف إذا تعود العفة من امرأته يعظم على طباعه احتمال ما يمس عرضها من قول أو فعل، وتزداد غيرته عليها إذا كانت وحيدة لم يحب سواها، كما كان حال العرب في الجاهلية لقلة الجواري يومئذ ومشقة الحصول على النساء، مع حاجة البدوي إلى امرأته في تدبير شئونه وإنانته في أسفاره وأعماله.

(١-٢) الوأد

وبلغ من غيرة بعضهم في الجahلية أن يقتلوا بناتهم أو يئدوهن، لئلا يرتكبن ما يجر عليهم العار، ولم يكن الوأد عاماً في قبائل العرب، ولا كان قد يمّاً عندهم، وإنما حدث قبيل الإسلام، وكان منحصراً في بعض بنى تميم بن مر، ظهر فيهم لسبب طرأ عليهم؛ ذكروا أنهم كانوا يؤدون الإتاوة (الجزية) إلى النعمان ملك الحيرة، فمنعوها سنة من

السنين فجرد عليهم النعمان كتائبه وساق أنعامهم وسبى ذراريهم، فعظم ذلك على التميميين فوفدوا عليه يطلبون أهلهم وأموالهم فأبى، فقالوا: «أعطنا النساء». فقال: «إننا نخربهن في الذهاب أو البقاء». وأعلن «أن كل امرأة اختارت أبيها ردت إليه، وإن اختارت صاحبها تركت عليه» فكلهن اختارت أبيها إلا ابنة قيس بن عاصم كانت قد أحبت عمرو بن المشمرج فاختارت البقاء عنده، فغضب قيس ونذر لا تولد له ابنة إلا قتلها، وربما اقتدى به بعض أهله أو أهل قبيلته، وكان بعض الغيورين من العرب لا يزوج بناته غيرة عليهن، وأشهرهم ذو الإصبع العدواني فكانت له أربع بنات منعهن الزواج وهن يردنه في حديث طويل ذكره المبرد،^٦ ولم يطل زمن الوأد عند العرب؛ لأنه مخالف لأحكام العقل ومبادر لعواطف الوالدين، مما لبث أن ظهر صعصعة بن ناجية وأخذ على نفسه فداء البنات الموعودات^٧ حتى بطل الوأد.

(٤-٢) شهرات الجاهلية

وكان للمرأة في الجاهلية شأن وإرادة، وكانت صاحبة أنفة ورأي وحزم، فنبغ غير واحدة منهن في السياسة وال الحرب والأدب والشعر والتجارة والصناعة ولا سيما في أوائل الإسلام على أثر ما حصل من النهضة في النفوس والعقول، فاشتهرت جماعة منهن بمناقب رفيعة تضرب بها الأمثال، وأكثرهن في المدينة مقر الخلافة الإسلامية في ذلك العهد.

فاللواتي اشتهرن في الجاهلية بالشجاعة وشدة البطش أو كبر النفس، منهن سلمى بنت عمر إحدى نساءبني عدي بن النجار، فإنها كانت امرأة شريفة لا تتزوج الرجال إلا وأمرها بيدها، إذا رأت من الرجل شيئاً تركته، على أن الغالب في نساء الجاهلية أن يُخرين قبيل الزواج، فلا يزوج الرجل ابنته إلا بعد أن يشاورها،^٨ واشتهرت التميميات من نساء قريش بحظوظهن عند رجالهن وكباريائهن وقوتها عليهم،^٩ ناهيك بمن اشتهرت منهن بالبسالة في أثناء الغزوات، ففي معركة أحد وقع لواء قريش في ساحة القتال، فلم يزل صريعاً حتى أخذته امرأة منهم اسمها عمرة بنت علقة الحارثية فرفعته لهم فلاذوا بها.^{١٠} وفعلت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان في تلك المعركة ما لم تفعله الرجال، فجمعت إليها نسوة أخذن في أيديهن الدفوف يضربن خلف الرجال وهي تتشدد في تحريضهم على الثبات، ولما انتهت الواقعة خرجت مع النسوة تنظر جثث القتلى حتى وجدت بينها جثة حمزة عم النبي، فبقرت بطنه وأخرجت كبده فلاكتها من غيظها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها، ثم علت صخرة وأنشدت أشعاراً تفخر بالفوز على المسلمين.^{١١}

ونساء الجاهلية کن يصبن الرجال إلى ساحة القتال فيداوین الجرھی ويحملن قرب الماء، ومن اشتهرن بالشجاعة أم عمارۃ بنت کعب الانصاریة، وأم حکیم بنت الحارت، والخمساء الشاعرة أخت صخر وغيرهن.^{۱۱}

ونبغ بالرأي والحزم غير واحدة، أشهرهن أم المؤمنین خدیجة بنت خویلد، وكانت عاقلة حازمة لبیبة ذات شرف ومال، تنتقی من اشتهر من الرجال بالأمانة والحزم فتستأجرهم بمالها وتضاربهم إیاھ بشيء تجعله لهم، ولما سمعت بشهرة النبي قبل الدعوة بالأمانة وكرم الأخلاق، بعثت إليه أن يخرج في مالها تاجراً إلى الشام وتعطیه أفضل ما كانت تعطی غیره من الرجال، فلما أفلح في تجارتھ عرضت عليه أن يتزوج بها فأجابها، وهي أول من أسلم، وقد نشطته للقيام بالدعوة، فكان لا يسمع شيئاً مما يكرھه من رد عليه أو تکذیب له فيحزنه ويخبرها به إلا ثبتته وخففت عنه وھونت عليه، وما زالت على ذلك حتى ماتت.

هوامش

- (۱) ألف باء ۸۳ ج.
- (۲) الجزء الأول.
- (۳) مشکاة المصابیح ۱۰۰.
- (۴) الكامل للمبرد ۲۷۸.
- (۵) الكامل ۳۱۶.
- (۶) ألف باء ۲۰ ج.
- (۷) الأغانی ۱۴۹ ج ۹ و ۲۰۸ ج ۱۸.
- (۸) الأغانی ۲۰۳ ج ۱۸.
- (۹) الأغانی ۱۷ ج ۱۴.
- (۱۰) الأغانی ۲۰ ج ۱۴.
- (۱۱) ألف باء ۲۱۰ ج ۲.

آداب العرب في صدر الإسلام

الآداب الاجتماعية في العصر الإسلامي العربي

ينقضي هذا العصر بانقضائه دولة الأمويين في الشام سنة ١٣٢ هـ، وقد علمت مما ذكرناه عن سياسة هذا العصر في الجزء الرابع أنها كانت عربية النزعة وقوادها عرب وعمالها عرب والسيادة فيها للعنصر العربي، وكذلك الآداب الاجتماعية، فقد كانت لا تزال عربية بدوية، أو هو دور الانتقال من البداوة إلى الحضارة، حاول العرب فيه البقاء على ما أفلوه في جاهليتهم من المناقب التي تقدم ذكرها، كاللوفاء والجوار والكرم والنجد والشجاعة والعفة، وكانت الحضارة وما تقتضيه من الترف والرخاء تغالب تلك المناقب، حتى غلت على معظمها في أواسط العصر العباسي.

ويقسم العصر الإسلامي العربي إلى: أيام الراشدين، وأيام الأمويين، فنذكر الآداب الاجتماعية في كل منها على حدة.

(١) الآداب الاجتماعية في عصر الراشدين

قلما أصاب المناقب البدوية تغيير في عصر الراشدين، إلا ما اقتضاه الدين من جمع كلمة العرب تحت لوائه، فضعفـت بذلك العصبية بين القبائل والبطون، واجتمع العرب من قحطان وعدنان في ظل الإسلام، وأصاب الكرم في ذلك العصر تغيير اقتضاه عدل الراشدين ولا سيما عمر بن الخطاب، فإنه كان من الصرامة وحب العدل حتى يطالب العامل بالدرهم والدانق، وإذا علم أنه كسب مالاً من غير راتبه شاطره إياه، وكذلك كان

علي بتدقيقه في محاسبة عماله وسائل رجاله، فكانوا لا يبذلون المال إلا من استحقه من أهل العطاء، فلم يكن لأصحاب الاستجداء عيش في أيامهم، وكان الصحابة يومئذ يقلدون الخلفاء في هذا التدقيق، وهو مخالف للسخاء والبذل، حتى اتهموهم بالبخل وما هو بخل، ولكنهم كانوا يرون إعطاء كل ذي حق حق.

أما ما بقي من مناقب العرب فظللت على نحو ما كانت عليه، وبعضها زاد تمكناً في نفوسيهم، كالوفاء والنجدة والعفة والألفة؛ لأن الإسلام زادها رونقاً وقوة بالعدل والتقوى، فكان الخليفة أو أميره إذا وعد وفي، وإذا عاهد أنجز، لا يثنى عن ذلك طمع أو خوف؛ اعتبر ما كان من وفائهم لأهل الذمة، إذ عاهدوهم على أن يحموهم ما أدوا الجزية، فكانوا إذا شغلاهم عن حمايتهم شاغل ردوا الجزية إلى أصحابها واعتذرلوا^١ ولو لم يردوها ما طالبهم بها أحد، وإنما كانوا يفعلون ذلك من عند أنفسهم، والشجاعة كانت سائدة في ذلك العصر، لما كانوا فيه من الحاجة إليها في الفتح والجهاد، وقس على ذلك سائر المناقب، ولا سيما الاستقلال والحرية فإنهم زادا قوة في صدر الإسلام، لما توخاه الراشدون من التسوية بين المسلمين على اختلاف طبقاتهم، حتى أصبحوا يخاطبون الخليفة أو الأمير بجسارة وأنفة كما يخاطبون بعض أقرانهم، وإذا رأوا فيه اعوجاجاً هددوه أو عنفوه وأصلحوه، فإذا لم يطعهم قتلوه كما فعلوا بال الخليفة عثمان، وكثيراً ما كان المسلمون يحصبون أميرهم وهو يخطب فيهم، إذا أنكروا شيئاً من أقواله أو أعماله.

(١-١) المرأة في عصر الراشدين

أما المرأة فاتجهت قواها في صدر الإسلام إلى سداد الرأي ومزاولة الأدب والشعر مع بقاء العفة والألفة، فاشتهر منها غير واحدة جرت بذكرهن الأمثال منها عائشة أم المؤمنين، فقد كان لها عقل راجح وفيها دهاء وقوة، حتى رأست حزباً كبيراً من الصحابة وروت أحاديث كثيرة هامة.

وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله الصحابي الشهير، كانت مفرطة الجمال تقيم في المدينة ولها عقل ورأي وعلم واسع بأخبار العرب وأيامها وفي مطالع الكواكب وأحوالها، وكانت مع جمالها لا تستر وجهها عن الرجال لعظم قدرها وكبر نفسها، وكثيراً ما كانت تجلس في قصرها فيتناضل بين يديها الرماة ويتقاضرون بما ينالون من إعجابها، وكانت إذا حجت يجيئها النساء الشواعر وغيرهن ويدخل الشعراء فتجيزهم الجوائز الكبيرة، وكان لها موكب لم يسمع بمثله في عصرها مؤلف من عدة مواكب، واحد لماشتها وأخر

لخازنتها وأخر لكل من كبار أتباعها، أما موكبها الخاص فهو كوكبة فيها ٣٠٠ راحلة عليها القباب والهواج.^٢

وسكينة بنت الحسين بن علي، وكانت معاصرة لعائشة بنت طلحة في المدينة وتسمى عقيلتي قريش،^٣ وكانت عفيفة بربة تجالس الأجلة من قريش ويجتمع إليها الشعراء، وتأذن للناس إذنًا عامًّا حتى تغض الدار بهم فتأمر لهم بالأطعمة، ثم تطرح على الشعراء الأسئلة في الشعر والأدب وتنتقد أقوالهم وتجيئهم، وخبرها في ذلك مشهور.^٤ وأسماء بنت أبي بكر، المعروفة بذات النطاقين وهي أم عبد الله بن الزبير، وفي مراجعة قولها لابنها هذا لما يئس من الفوز وهو محصور بمكة وجاء يستفتياها وتحريضها إياه على استقبال الموت بشرف دليل كاف على كبر نفسها وحزمها.^٥

ونبغ بالشعر في ذلك العصر عدة نساء، كليلي الأخيلية والخنساء المتقدم ذكرها والفارعة المرية، واشتهر في البايدية غير واحدة منهن كان يجتمع الرجال عندها للمناشدة أو المذاكرة على غير ريبة، فإذا توسمت في أحدهم انحرافًا منعه واحتجبت عنه، كما اتفق لأبي دهبل الجمحي مع عمرة الجمية، وكانت امرأة جذلة يجتمع إليها الرجال لإنشاد الشعر، وكان أبو دهبل من أشرافبني جمح وكان لا يفارق مجلسها، وكانت تحبه وتنقدم إليه في كتمان حبها، فجاء نسوة كن يتحدثن إليها فذكرن لها شيئاً عن أبي دهبل وأنه يقول: إنها عاشقة له، فرفعت مجلسها وتركت مجالسة الرجال ظاهرة وضررت حجاباً بينها وبينهم.^٦

ولما نضج التمدن الإسلامي اشتهر عدة نساء بالسياسة والصلاح والدهاء وغير ذلك مما ذكرناه في الأجزاء الماضية.

(٢) الآداب الاجتماعية في عصر الأمويين

أصاب المناقب العربية في الدولة الأموية تغيير يختلف عما أصابها في عصر الراشدين باختلاف أحوال الدولتين، فالأمويون لما جعلوا همهم الرجوع إلى ما كان لهم من السيادة في الجاهلية أغفلوا كل ما يخافون حيلولته بينهم وبين ذلك المرمى، واستبقوا ما يتوصمون منه نفعاً لغرضهم؛ فالكرم رأوا فيه وسيلة لجمع الأحزاب فنشطوه وتسابقوا إليه، فزادوا الأعطية وفرضوا الجوائز وأقاموا بيوت الضيافة، وأكثروا من السخاء على رؤساء الأحزاب والشعراء ومن يخافون سطوتهم ولا يقوون على قتلهم على ما بيناه في باب السخاء.

والشجاعة لم يكن لهم بد منها فقربوا أصحابها، والعصبية كانت ملजأهم الأكبر في مناولة أعدائهم من شيعة علي وغيرهم، وبعد أن ضفت في عصر الراشدين وقامت جامعه الدين مكانها أعادها الأمويون إلى نحو ما كانت عليه قبل الإسلام.

أما الوفاء فكان عثرة في طريق أغراضهم، لما كانوا يعلمونه من حق مناظريهم في الخلافة وقوتهم فلجأوا إلى الغدر والفتک، وكان معاوية زعيمهم ومؤسس دولتهم يفعل ذلك سرّاً ويوجه غدره بالحلم والكرم والدهاء وحسن الأسلوب، فتدرج الخلفاء بعده منبني مروان إلى الغدر جهاراً، وأول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان،⁷ وجرى عمالهم على هذه الخطة وأفطروا فيها، فاشتهر بها منهم زياد بن أبيه وابنه عبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف وغيره.

(١-٢) تقييد الأفكار في أيام بنى أمية

أما الاستقلال وحرية القول فجاهد الأمويون في مقاومتها وقيدوا الألسنة بإرادتهم تقييداً شديداً، فكان ذلك عظيماً على الذين عاصروا الراشدين وتعودوا الحق والحرية، فعقابهم الأمويون جزاء حريتهم واستقلال أفكارهم بالعذاب الشديد، ومن لم يستطعوا مقاومته جهاراً قتلوه سرّاً؛ بدأوا بذلك من أيام عثمان قبل قبضهم على مقاليد الدولة في الشام، وقد جرأهم عليه ضعف هذا الخليفة ورغبتة في إرضاء أهله ونصرتهم، ولو لا ذلك ما استطاع معاوية اضطهاد أبي ذر الغفارى ونفيه؛ لأنه جاهر باستبداد أهل الدولة بأموال المسلمين.⁸

فلما أفضت الخلافة إلى معاوية لم ير بدّاً من الضغط على أفكار أهل الاستقلال والحرية، واستعمل الشدة في ذلك فقتل حجر بن عدي وعمرو بن الحمق وأصحابهما؛ لأنهم قالوا بحرية ضمير أن علياً لا يجوز لعنه على المنابر، فأصبح الناس يخافون على أرواحهم وأخذوا يتعودون السكوت عن الحق، ثم لجأوا إلى التمويه والرياء حتى في المشهور الثابت، كما فعل ذلك الرجل لما نصب معاوية ابنه يزيد لولاه العهد فأطوى عمل معاوية حتى قال: «إنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعفتها». ولكن الحرية كانت لا تزال حية في نفوس أهل الرئاسة من لم يكن يفهم التزلف إلى أهل الدولة، وربما كانت الدولة أحوج إلى نصرتهم، كالأحنف بن قيس التميمي فإنه كان يقول الحق ولا يبالي، وكان من شهد الاحتفال بتولية يزيد وسمع ما قاله ذلك المنافق فاكتفى بالسكتوت

عن المدح، وأدرك معاوية فكره فاستفهمه عن سبب سكوته فلم يبال أن قال: «أخاف الله إذا كذبت وأخافكم إذا صدقت ...»^{١٠}

واقتدى بمعاوية من عاصره من الأمراء أو جاء بعده من الخلفاء، فنشأ جيل من العرب يهون عليهم السكوت عن الحق، وكثير أهل الزلفي والرياء وذهب حرية القول بتوالي الأعوام.

(٢-٢) النجدة والأريحية في أيام بني أمية

أما النجدة والأريحية فظلتا في العصر الإسلامي العربي متواصلتين في العرب، وإن اضطر الأميون إلى الإغضاء عنهما في بعض الأحيان، أما على العموم فقد كانتا مرعيتين حتى عند أشد بني أمية استبداداً وظلماً، وفي أخبارهم كثير من أمثلة ذلك، منها أنه جيء إلى معاوية في يوم صفين بأسير من أهل العراق فقال معاوية: «الحمد لله الذي أمكنني منك».

قال الرجل: «لا تقل ذلك يا معاوية».

قال: «وأي نعمة أعظم من أن يمكنني الله من رجل قتل جماعة من أصحابي في ساعة واحدة؟ اضرب عنقه يا غلام».

قال الأسير: «اللهم اشهد أن معاوية لم يقتلني فيك وأنك لا ترضى بقتلي، وإنما يقتلني في الغلبة على حطام الدنيا، فإن فعل فافعل به ما هو أهله وإن لم يفعل فافعل به ما أنت أهله».

قال له: «ويحك! لقد سببتك فأبلغت ودعوت فأحسنت ... خليا عنه».

وكان معن بن زائدة قد أمر بقتل جماعة من الأسرى، فقام أصغر القوم فقال له: «يا معن، أتقتل الأسرى عطاشًا؟» فأمر لهم بالماء، فلما سقوا قال: «يا معن، أنت ضيفانك؟» فأمر معن بإطلاقهم.

وأتى الحجاج بأسرى من الخارج فأمر بضرب عنقهم، فقام فيهم شاب فقال: «والله يا حجاج لئن كنا أنساناً في الذنب مما أحسنت بالعفو». فقال الحجاج: «أف لهذه الجيف! أما كان فيهم من يقول مثل هذا؟ وأمسك عن القتل، وقس على ذلك».^{١١}

وكثيراً ما كانوا يعرضون أنفسهم للقتل رغبة في حسن الأحداث، ولا سيما عند النساء كما فعل عيسى بن مصعب بن الزبير وهو مع أبيه في مقاتلة محمد بن مروان بالعراق سنة ٧٦ هـ، إذ تحقق مصعب أنه مقتول فأوعز إلى ابنه عيسى أن يطلب النجاة

فقال: «والله لا تتحدث نساء قريش أني خذلتكم ورغبت في نفسي عنك». فقال: «فاذهب أنت ومن معك إلى عموك في مكة فأخبره بما صنع أهل العراق ودعني فإني مقتول». قال: «لا أخبر عنك قريشاً أبداً، ولكن يا أبي، الحق بالبصرة فإنهم على الطاعة أو الحق بأمير المؤمنين». فقال مصعب: «لا تتحدث قريش أني فررت». وحاربوا حتى قتلوا.^{١٢}

وظلت الأريحية مرعية في أوائل الدولة العباسية، فإن الرشيد رفع القتل عن ربعة بقصيدة رفعها إليه أحدهم استنهض بها أريحيته في العفو عنهم.^{١٣} ولما عزم المأمون على قتل إبراهيم بن المهدى - وكان مصمماً على قتله - شاور فيه أحمد بن أبي خالد الوزير فقال: «يا أمير المؤمنين، إن قتالته فلك نظرة وإن عفوت عنه فما لك نظير». ^{١٤} فغدا عنه.

فلما ضعف العنصر العربي في الدولة العباسية بعد تسلط الأجناد الأتراك، وتحولت الأغراض في أهل الدولة إلى كسب الأموال بأية وسيلة كانت، ذهبت الأريحية والنجدة، على أن ذهابهما بدأ من أيام أبي مسلم الخراساني ... فكم استجدوه واستحوثوه ولم يفعل إلا ما يوصله إلى غرضه.

والشيخوخة ظلت مرعية ومحترمة إلى عصر العباسيين وما بعده، ولا تزال حتى الآن.

(٣-٢) المرأة في عصر الأمويين

بدأت المرأة بتبدل طباعها من أيام الأمويين؛ لأن العفة والغيرة أصحابها في ذلك العصر صدمة قوية بتکاثر الجنواري والغلمان، وانغماس بعض الخلفاء في الترف والقصف وانتشار الغناء والمسكر، فتجرأ الشعرا على التشبيب والتغزل وتکاثر المختنون في المدن، وتوسطوا بين الرجال والنساء بالباطل، فأخذ الفساد يفسو بين الناس وضعفت غيرة الرجال وقلت عفة النساء.

فقد رأيت أن المرأة كانت في الجاهلية وأوائل الإسلام تجالس الرجال وتحاطبهم وتذاكرهم والعرب لا يرون ذلك منكراً،^{١٥} ولا تخامرهم فيه ريبة، وإذا توسم رجل من رجل نظرة إلى امرأته أو أخته بربوة طلبه للمبارزة أو المحالدة أو المصارعة^{١٦} (الدويلو) فيتصارعان حتى يصرع أحدهما صاحبه وربما انتصب القتال بين القبائل غيره على نظرة كما حدث يوم الفجار الثاني،^{١٧} حتى الشعرا، فقد كانوا لا ينظمون النسيب أو الغزل إلا قليلاً، ويقال: إن امراً القيس أول من شب بالنساء^{١٨} ومهما يكن

من ضعف هذا القول فهو يدل على بعد العرب الجاهلية عن الغزل لفطرتهم، على أنهم قلماً شبيوا بعد ذلك إلا بحبب أو خطيبة، وكانت مغاذلة النساء نادرة فيهم، فإذا اتفق لأحدهم شيء من ذلك اشتهر أمره وذاع خبره، كما اشتهر العشاق والمجانين في صدر الإسلام، وربما تعشق بعضهم رغبة في شحذ قرائتهم الشعرية، على أن تشبيبهم في كل حال لم يكن عن ريبة أو فاحشة.^{١٩}

وكانوا يتفاخرون بالعفة وإمساك هوى النفس، وقد يجتمع الحببيان بعد طول البعد واحتدام الشوق فيجلسان ويتغاتبان ويتحادثان ثم ينصرفان، وأشهر الناس في ذلك بنو عذرة، وأكثر عشاق العرب منهم.

(٤-٢) التشبيب

فكان العرب الجاهلية قلماً يش比بون بغير خطيباتهم، فإذا شبب أحدهم بفتاة قبل أن يخطبها منعوه منها،^{٢٠} وكان الخلفاء الراشدون حريصين على آداب القوم، فجعلوا التشبيب ذنباً يستوجب القصاص، وكان عمر بن الخطاب لا يسمع بشاعر شب بأمرأة إلا جلد،^{٢١} ونظرًا لقلة من يجر على وصف النساء في شعره كان الشاعر إذا شب بأمرأة اشتهرت فتنزوج، ولذلك كان بعض الآباء يطلب من الشاعر أن يشبب ببناته ليتزوجن.

فالعرب على فطرتهم وطبيعة إقليمهم وطرق معايشهم أهل عفة، والنساء يجتمعن بالرجال في المجالس والأندية على غير ريبة، حتى في الكعبة، فكانوا يطوفون معًا لا يرون بذلك بأساً؛ لأن العفة كانت غالبة على طباعهم، فلما جاءهم الترف وأخذوا بأطراف الحضارة وعمدوا إلى التسري والاستكثار من الجواري تغيرت تلك الطباع، فلما كانت إمارة خالد القسري على مكة في خلافة سليمان بن عبد الملك الأموي بلغه قول بعض الشعرا:

يا حبذا الموسم من موقف وحبذا الكعبة من مسجد	وحبذا اللاتي يزاحمننا عند استلام الحجر الأسود
--	--

فأمر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف.^{٢٢}

وفي أيامبني أمية تجراً الشعرا على التشبيب بالنساء، لا سيما في المدينة بعد انتشار الغناء فيها وإقبال أهلها على القصف واللهو، ومما زاد إنكارهم للتشبيب أن الشاعر

إذا نظم أبياتاً تغنى بها المغنون في مجالس الشراب، وأول من تجرأ على التشبيب من الشعراء القرشيين، وأسبيقهم إلى ذلك ابن أبي عتيق حميد أبي بكر الصديق، وكان من أهل الطهارة والعرفان وإنما كان يتسبّب عن غير ريبة، واقتدى به عمر بن أبي ربيعة وهو قرشي أيضاً، وكان كثير النسيب والغزل ومن سمع كلامه ظنه من أجرأ الناس على فاحشة، وهو لم يحل إزاره على حرام،^{٢٣} واقتدى به العرجي وهو من قريش أيضاً،^{٢٤} ونبغ شعراء آخرون من غير قريش وأخذوا يشبّبون بالنساء رويداً رويداً.

ولم يكن الخلفاء في أول الأمر راضين عن ذلك لتغلب البداءة على أخلاقهم، فأخذوا يقاومون تيار الترف بكل قواهم، ولكنهم كانوا يدارون الشعراء رغبة في اكتساب الأحزاب على أيديهم، فلا يمنعونهم من التشبيب إلا إذا مس عرضهم، ومع ذلك فالدهاء منهم كانوا يتاطفون في دفعهم، ومن لطيف ما يُحكى من هذا القبيل أن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت شبّ بابنة معاوية وهو خليفة في إبان مجده، وبلغ ذلك ابنه يزيد فغضب ودخل على أبيه وقال: «يا أمير المؤمنين اقتل عبد الرحمن بن حسان».

قال: «ولم؟

قال: «شبّ بأختي..»

قال: «وما قال؟

قال: «قال:

طال ليلى وبت كالمحزون
ومللت الثواء في جiron»^{٢٥}

قال معاوية: «يابني، وما علينا من طول ليله وحزنه؟ أبعده الله!»

قال: «صدق يا أبي..»

فلذلك اغتربت بالشام حتى
ظن أهلي مرجمات الظنو

قال: «يابني، وما علينا من أهله؟»

قال: «إنه يقول:

هي زهراء مثل لؤلؤة الغوا
ص ميزت من جوهر مكنون»

قال: «صدق يابني..»

قال: «إنه يقول:

وإذا ما نسبتها لم تجدها في سناء من المكارم دون»

قال: «صدق يابني، هي هكذا!»

قال: «إنه يقول:

ثُمَّ خَاصِرَتْهَا إِلَى الْقَبْةِ الْخَضْرَاءِ رَأَيْتَهَا فِي مَرْمَرٍ مَسْنُونٍ»

قال: «ولَا كُلُّ هَذَا يَا بْنِي!»

وما زال يزيد يذكر له ما قاله فيها من التشبيب وهو يدافعه ويظهر أنه لا يرى فيه ما يستحق العقاب عليه، ثم كلمه بعض خاصته بشأنه وأكبروا جسارتة وقالوا: «لو جعلته نكالاً» فقال: «لا، ولكن أداويه بغير ذلك». واتفق أن عبد الرحمن المذكور وفد على معاوية، وكان يدخل في آخريات الناس، فاستقبله أحسن استقبال وأجلسه على سريره معه وأقبل عليه بوجهه وحديثه ثم قال: «إن ابنتي الأخرى عاتبة عليك». قال: «في أي شيء؟» قال: «في مدحك أختها وتركك إياها». قال: «فلها العتبى وكرامة، أنا ذاكرها وممدتها». فلما فعل وببلغ ذلك الناس قالوا: «قد كنا نرى أن تشبيب ابن حسان بابنة معاوية لشيء، فإذا هو على رأي معاوية وأمره». وعلم من كان يعرف أنه ليس له بنت أخرى، وأنه إنما خدعاه ليشتبه بها ولا أصل لها، فعلم الناس أنه كذب على الأولى لما ذكر الثانية. وشتب أبو دهبل الجمحي أيضاً بابنة معاوية فعامله باللين وقطع لسانه بالعطااء.^{٢٦}

فقص على ذلك سائر خلفاء بنى أمية وأمرائهم، مما يدل على غلبة طبائع البدو في الأمويين، مع أخذهم بأطراف المدينة واحتلاطهم بالأمم الأخرى وقربهم من أسباب القصف، وكأن تلك الأسباب أخذت بعقول الشعراة فلم يكونوا يقدعون عن التشبيب مع تعرضهم للخطر، وقلما كان يجسر على ذلك غير القرشيين، وأكثرهم جسارة عمر بن أبي ربيعة المقدم ذكره، فإنه كان يصطحب ابن سريح المغني فيركبان على نجيبين ويلقيان الحاج فيعرضان للنساء وينشدان الأشعار لا يبالون أن تكون فيهن بنت الخليفة أو امرأته.

والظاهر أنهم لم يكونوا يفعلون ذلك إلا لما يرون من ارتياح النساء إليه؛ لأن المرأة تفتخر بأن يثنى الشعراء على جمالها وإن لم يرض أهلها، فقد كان لعبد الملك بن مروان

بنت أرادت الحج فخاف أن يشتب بها ابن أبي ربيعة، فاستكتب الحاجإليه إن هو فعل ذلك أصحابه بكل مكروه، فلما قضت حجها خرجت فمر بها رجل فقالت له: «من أنت؟» فقال: «من أهل مكة». قالت: «عليك وعلى أهل بلدك لعنة الله!» قال: «ولم ذاك؟» قالت: «حججت فدخلت مكة ومعي من الجواري ما لم تر الأعين مثنهن فلم يستطع الفاسق ابن أبي ربيعة أن يزودنا من شعره أبيبأً نلهو بها في الطريق من سفرنا». قال: «إنني لا أراه إلا قد فعل». قالت: «فأنتا بشيء إن كان قاله، ولك بكل بيت عشرة دنانير». فمضى إليه فأخبره فقال: «لقد فعلت ولكن أحب أن تكتم على». وأنشدت قصيدة قالها فيها.^{٢٧}

وممن اشتهر بتعرضه للنساء والتشبيب بهن في ذلك العصر الأحوص، كان يشتب بنساء ذات أخطار من أهل المدينة فشكوه إلى سليمان بن عبد الملك فأمر بالقبض عليه وجلده ثم نفاه.^{٢٨} ووضاح اليمن، كان يشتب بأم البنين امرأة الوليد بن عبد الملك، وهم الوليد بقتله فمنعه ابنه عبد العزيز وقال: «إن قتلتة فضحتني وحققت قوله وتوهم الناس أن بيته وبين أمي ريبة». فأمسك عنه على غيظ وحنق، حتى بلغه أنه تعدى أم البنين إلى أخته فاطمة بنت عبد الملك، وكانت زوجة عمر بن عبد العزيز وقال فيها:

بنت الخليفة وال الخليفة جدها	أخت الخليفة وال الخليفة بعلها
فرحت قوابلها بها وتبشرت	وكذاك كانوا في المسرة أهلها

فاحتنق واشتد غيظه وقال: «أما لهذا الكلب مزدجر عن ذكر نسائنا وأخواتنا ولا له عنا مذهب؟» ثم دعا به فأحضر وأمر ببئر فحفرت ودفنه فيها حيّا.^{٢٩} فكانت أيامبني أمية من حيث العفة والغيرة عصر انتقال من البداوة إلى الحضارة، فلما انقضى عصرالأمويين ذهب ما بقي من سذاجة البداوة في طبائع العرب، واستسلام الناس للترف والرخاء وضفت الغيرة وأبيح التشبيب وشاع على ألسنة الشعراء، حتى صاروا يصدرون به قصائد المدح والفاخر، وكان الخلفاء الأولون منبني العباس لا يزالون على مقربة من البداوة فأنكروا ذلك ونحوها عنه، ومنأشدتهم غيرة المهدى بن المنصور فإن بشاراً أنسد مدحًا فيه تشبيب فنهاه عن التشبيب البتة،^{٣٠} فظل التشبيب مستقبلاً حتى أباحه الرشيد وألح في نظمه،^{٣١} فآل ذلك طبعاً إلى ضعف الغيرة.

(٣) الآداب الاجتماعية في العصر العباسي

قد رأيت ما أصاب المناقب العربية الفطرية من التغير بعد الإسلام، بما طرأ عليها من عوامل الحضارة والانغماط في الرخاء والقصف والاختلاط بأهل المدن، فغلبت عليهم الضعف ورکنوا إلى بسطة العيش والتنعم بمطالب الحياة المادية، وزادهم العلم والفلسفة والطب تباعداً عن البداوحة وخشونتها وسذاجتها، وقضت سياسة العباسيين بمراعاة الفرس وغيرهم من نصروهم في قيام دولتهم وتشتيت شمل العرب، فذهبت العصبية العربية، واستلزمت رغبتهم فيبقاء دولتهم العدول إلى الفتوك والغدر على ما فصلناه في الجزء الرابع، فذهبت مناقب العرب ولم يبق من الوفاء والشجاعة والاستقلال والأنفة والعصبية والنجدة إلا آثار ضعيفة.

(٤-٣) المرأة في العصر العباسي

وآل تكاثر الجواري وشيوخ التسرى إلى ذهاب الغيرة من قلوب الرجال، حتى صاروا يتهادون الجواري الروميات والتركيات والفارسيات وهن أحمل صورة وأشرف وجهاً من نساء العرب، وبعد أن كان الرجل لا يعرف غير امرأته والمرأة لا تفك في غير زوجها وهي واثقة بأمانته، إذا هو قد تشتبث عواطفه بين عدة نساء فقلت غيرته عليها، ولما رأته مشغولاً عنها قلت ثقتها به إلا من عصمها عقلها وشرفها، فلم ينضج التمدن في العصر العباسي حتى تنوسيت المرأة العربية في المدن، وذهبت حريتها وغيرتها وصارت هي نفسها تهدي زوجها الجارية وتحبب إليه القرب منها، لا يهمها ذلك ولا تغار منه، وبعد أن كان العرب في الجاهلية وصدر الإسلام إذا علموا بحب رجل فتاة منعوه من زواجها صاروا يساعدونه في الحصول عليها.^{٢٣}

فأفضى ذلك إلى انحطاط المرأة وذهاب عزة نفسها واستقلال فكرها، فاحتقرها الرجل وأساء الظن بها وصار يعدها عدوة له، ويوصي بعدم الإرکان إليها، فيعاشرها على غل وسوء رأي، يقفل عليها الأبواب والنواخذة، ويسد في وجهها الطرق والممالك، وينعها من الخروج أو الكلام، وهو صاحب الذنب في انحطاطها، فأصبح الطعن في طباع المرأة وسوء سريتها شائعاً على ألسنة الناس، حتى ألفوا فيه الروايات والأقصاص ونظموا الشعر، وتفننوا في وضع الجمل الحكمية والعبارات البليغة في تحذير الناس من المرأة وعدم الوثوق بها، وهذه هي قصة ألف ليلة وليلة تمثل حال المرأة في الأعصر الإسلامية

الوسطى، بعد شیوع التسیری وانغماس المسلمين في الترف، وأما الأشعار فإليك ما قاله أبو العلاء المعري:

فلا يدخل على الحرم الوليد
فأنت، وإن رزقت حجي، بليد
بهن يضيع الشرف التلید^{٣٤}

إذا بلغ الوليد لديك عشراً
 وإن خالفتني وأضعت نصحي
ألا إن النساء حبال غي

وأصبح الكاتب إذا أراد تعزية صديق على فقد بنت له قال ما قاله أبو بكر الخوارزمي، إذ كتب إلى رئيس بهراء يعزيه في بنته وهو قوله:

ولولا ما ذكرته من سترها ووقفت عليه من غرائب أمرها، لكتت إلى التهنة
أقرب من التعزية، فإن ستر العورات من الحسنات، ودفن البنات من المكرمات،
ونحن في زمان إذا قدم أحدهنا فيه الحرمة فقد استكمل النعمة، وإذا زف كريمة
إلى القبر، فقد بلغ أمنيتها من الصهر، قال الشاعر:

كنعمة عورة سرت بقبر

ولم أر نعمة شملت كريماً

وقال آخر:

والموت أكرم نزال على الحرم

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً

وقال آخر:

وضعت بنيني في لحد قبر

وددت بنيني وودت أنني

وقال آخر:

بقاء البنين وموت البنات

ومن غاية المجد والمكرمات

وقال آخر:

سميتها إذ ولدت تموت والقبر صهر ضامن وبيت^{٣٥}

هذا مثال من آراء أدباء المسلمين وشعرائهم في المرأة بين القرنين الرابع والخامس للهجرة.

فلم يبق من المناقب العربية في العصر العباسي إلا السخاء؛ لأنه كان لازماً لقوام الدولة وسلامتها وتأييدها، بل هو كان من أهم قواعد الارتزاق في ذلك العصر.

(٢-٣) الارتزاق بالسخاء

إن الارتزاق في التمدن الحديث مبني على قواعد اقتصادية عمرانية تحفظ توازن القوى ونتائجها، فيتالي الإنسان من رزقه على مقدار كده وجده مع اعتبار درجة عقله وذكائه، سواء كان ذلك بالتجارة أو الزراعة أو الصناعة أو غيرها، وقد وضعوا لكل من أبواب الرزق قواعد في تقدير الأرباح لا تتعادها إلا في أحوال خاصة ترتفع فيها الأسعار فجأة كما حدث بمصر لهذا العهد (حوالي ١٩١٠)، وعلى أي حال فالصانع تقدر أجرته بمقدار عمله، والتاجر يقدر ربحه بنسبة رأس ماله.

أما في التمدن الإسلامي فقد كان الارتزاق يقرب من ذلك في طبقة العامة من المزارعين والباعة وأهل الصناعات، وأما في الخاصة وأتباعهم فكان على أسلوب آخر لا مثيل له بين المتmodernين في هذا العصر، ومداره «السخاء» المتسلسل من الخلفاء فالوزراء فمن بعدهم من يعيشون حول البلاط ويرتزقون من رجال الدولة، ومصدر هذه الأرزاق بيت المال، وهو في قبضة الخليفة أو من يقوم مقامه من الوزراء أو القواد أو الأمراء على حسب أطوار النفوذ، والأموال تأتي بيت المال من جباية الخارج والجزية، وقد رأيت في الجزء الثاني من هذا الكتاب أن متوسط جباية الدولة في العصر العباسي الأول بلغ نحو ٣٦٠ مليون درهم في العام، لا ينفق منها على مصالح الدولة أكثر من ٥٠ مليوناً، فالباقي ٣٠٠٠٠٠ درهم تبقى في بيت المال تحت تصرف الخليفة، وأكثرها من جباية الخارج، وكان الخارج في العصر المذكور ثقيلاً؛ لأنهم كانوا يقاسمون الناس غلاتهم بالنصف أو الثلث، وذلك في نظر أهل هذا الزمان ظلم، ولكن أهل ذلك العصر لم يشعروا بثقله بل كانوا يعدونه رفقاً؛ لأن العباسيين نقلوا الخارج من المساحة إلى المقاسمة، فبعد

أن كان الحكام قبلهم يقتضون خراج الأرض زرعت أم لم تزرع، حصروا الخارج في الأرض المزروعة وجعلوه شطراً من غلتها.^{٣٦}

سنة العرب في الارتزاق

والأموال التي تبقى في خزانة الدولة يُعطى بعضها رواتب لموظفيها، ويفرق سائرها فيما بين من الخاصة بين جوائز ورواتب، فتنتسع أحوالهم بالجاه أكثر منها بمال، فيضطرون إلى الإنفاق لحفظ مقامهم، فينفقون على من يتعلق بهم، فينتقل المال على هذه الصورة من الخليفة ووزرائه وعماله إلى حواشيه وأتباعهم، ومن هؤلاء إلى البايعة وأهل الأسواق فيعود إلى العامة كأنه لم يؤخذ منهم، وهي سنة في الارتزاق تظهر لأول وهلة أنها من خصائص التمدن الإسلامي، ولكنها كانت على نحو ذلك في التمدن القديم، فأهل آثينا وهم خاصة اليونانيين كانوا لا يعملون عملاً ولا يحترفون حرفة في سبيل الرزق، وإنما كانت أرزاقهم من خزانة الدولة يتناولونها رواتب في أوقات معينة، أو هبات في أوقات غير معينة، على مقتضيات الأحوال أو على ما يلتحقهم من الغنائم ونحوها، ولم يكن لهم شغل غير سماع الخطب السياسية أو العلمية والتمشي في حدائق المدينة وحضور الاحتفالات الرسمية ونحوها،^{٣٧} ولكن ذلك كان محصوراً في آثينا أو غيرها من العواصم الكبرى، أما المسلمين فتوسعوا فيه حتى شمل كل مدينة وكل طبقة، لتمكن السخاء في نفس العربي، ولأن هذه السنة كانت شائعة عند العرب من أيام الجahليّة، فأمير القبيلة كان يغزو بقبيلته، فما وقع له من مال وماشية فرقه في كبار رجاله، وهؤلاء يفرقوه في أهلهم وأتباعهم، ولذلك ذكروا من سنن العرب في الارتزاق أنهم «نهابون وهابون» وكان العرب يكرهون اختزان الأموال ويعذونه قبيحاً.^{٣٨}

والسبب في بقاء هذه السنة مع ذهاب غيرها من المناصب، أنها لازمة لبقاء الدول في تلك العصور، وخصوصاً في الإسلام منذ طمع بنو أمية في الخلافة واستخدمو الأموال في ابتياع الأحزاب واسترضاء كبار الرجال، فعودوا الناس العطاء، فلما قام العباسيون لم يستطعوا الرجوع عنه، بل تجاوزوه من بعض الوجوه، فصار السخاء ضرورياً لقيام الدولة وإلا فسد عليها حماتها وتمرد أهلها.

وكان الصحابة في عصر الراشدين لا يرون اختزان المال، جريأاً على سنة العرب أو عملاً بحديث رواه قيس بن عاصم بهذا المعنى وهو قول النبي ﷺ: «نعم المال الأربعون، والأكثر ستون، وويل لأصحاب المئين». ^{٣٩} ولذلك كان الخلفاء الراشدون لا يبقون في

بيت المال شيئاً، على أن المسلمين في أيامهم كانوا مشتغلين بما بين أيديهم من الغنائم، وكانوا لا يزالون في دهشة النبوة والإخلاص في الجهاد والخرج في أيامهم معتدل، فلم يكن يفيض منه شيء كثير، فلما طمع الأمويون في الملك اتخذوا كل وسيلة لجمع المال والاستكثار منه، وزادوا أعطيات الجنود ووهبوا وأجازوا، وضاعفوا رواتب أبناء الصحابة وغيرهم من القرشيين أصحاب النفوذ، فكان هؤلاء يتوسعون في الإنفاق ببناء القصور واقتناء الخدم والجواري، ويهبون الشعرا والندماء والحاشية والأتباع فيذهب ذلك المال كما أتى.

كذلك كان يفعل عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر وسعيد بن العاص^٤ فيجد أحدهم على معاوية أو يزيد فيؤدي له عطاهم، وربما أهداه هدية سنية، فيعود إلى بلده ويفرق المال جميعه في أهله وأعوانه^١، وكان الخلفاء يعرفون ذلك، ويعدون عطاهم لهؤلاء عطاء لأهل المدينة^٢، وليس ذلك خاصاً بفئة منهم، بل كان شاملًا للأكثرين، حتى النساء من بنات الصحابة كسكنينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وغيرهما، فكانت عائشة هذه تقد على الخليفة وربما كانت في ضيق، فتشكوا إليه فراغ يدها فيأمر لها بمائة ألف درهم مثلاً، فلما تعود إلى الحجاز يأتيها الشاعر أو الفارس فتعطيه الألف بعد الألف حتى تستنفذ ما جاءت به^٣، حتى الشعرا كانوا يبذلون بعض جوائزهم فيمن حولهم، ولذلك كانوا مع كثرة ما يصل إلى أيديهم من المال لا يزالون مدينين ويموت أكثرهم فقراء^٤.

ولما أفضى الأمر إلى العباسين ساروا على هذه السنة في الأعطيات والجوائز، وزادوا مقاديرها لتتوفر الثروة في أيامهم، وكان أصحابهم يفرقونها في الناس، فموسى الكاظم كان يقيم في المدينة ويجد على بغداد فيرده المهدى مثقلًا بالأموال، فلما يصل إلى المدينة يجعلها صرراً يفرقها في أهلهما^٥، وكانت يفعلون ذلك مع العمال والكتاب والشعراء والمغنيين، وهؤلاء ينفقون المال بالسخاء على تفاوت في درجاته وسائر أحواله، وربما أنفقوا بعضه في حاشية الخليفة أو غلمانه^٦، ليسهلوا لهم الدخول عليه.

استرضاء العامة بالطعام

كان الخلفاء أو الأمراء يدعون السخاء على العامة والخاصة فرضاً يؤيدون به سلطتهم، أما العامة فكانوا يسترضونهم بأبسط أساليب السخاء وهو الضيافة، فكانوا ينصبون لهم الموائد يدعونهم إلى الطعام، فيجتمع على مائدة الأمير ألف من العامة يأكلون معًا

صباحاً ومساء، ذلك كان دأبهم من عصر الراشدين، جروا به على سنة العرب ثم احتاجوا إليه بعد الإسلام في استرضاء القبائل المختلفة، فبالغوا فيه حتى نصبوا الموائد على الطرق، وأول من فعل ذلك عبيد الله بن عباس،^{٤٧} و Ashton في صدر الإسلام غير واحد من الأجواد، من كانوا يقبحون الأعطية الكبيرة من خلفاءبني أمية فينفقونها في البذل والسخاء، وقد تقدم ذكر بعضهم.

وجرى الدهاء من عمال الأمويين على هذه السنة، فنصبوا الموائد على الطرق، فكان الحجاج يضع في كل يوم من أيام رمضان ألف خوان، وفي سائر الأيام خمسمائة خوان، على خوان عشرة أنفس وعشرة ألوان وسمكة مشوية طرية وأرزه بسكر، وكان يدور هو بنفسه على الموائد يتقدّمها، يحملونه إليها في محفظة وينتقلون به من خوان إلى خوان، فإذا رأى أرزه ليس عليها سكر أمر الخباز أن يجيء بسكرها، فإذا أبطأ حتى أكلت الأرز بلا سكر أمر به فضرب ٢٠٠ سوط، وكذلك كان يفعل عمال الحجاج في سائر المدن، فكان بعضهم ينصب الموائد مرتين في اليوم للغداء والعشاء.^{٤٨} وكان يوسف بن عمر عامل هشام بن عبد الملك ينصب خمسمائة خوان،^{٤٩} وكان يزيد بن هبيرة يضع ألف خوان يطعم الناس.^{٥٠} وقس على ذلك سائر العمال وغيرهم، كابن طولون بمصر، فقد كانت له موائد يحضرها الخاص والعاص،^{٥١} وربما فرقوا الطعام بلا موائد كما كان يفعل لؤلؤ الحاجب في أيام الفاطميين بمصر، فإنه كان يفرق ١٢٠٠ رغيف مع قدر الطعام كل يوم، وإذا دخل رمضان أضعف ذلك ويقف هو بنفسه ليفرقه،^{٥٢} هذا غير ما كانوا يبذلونه في استرضاء العامة من الأموال على سبيل الصدقة، فكان لكل من الخلفاء والأمراء والوزراء مال ينفقه صدقة كل يوم، على ما قدمناه في الجزء الثاني من الكتاب، وربما فعل بعضهم ذلك مجرد الرغبة في الأجر أو عملاً بمقتضى الأريحية.

وإطعام العامة على هذه الصورة لم يكن خاصاً بال المسلمين، وإنما هو أيضاً من سفن الأعصر الغابرية، فقد كان العامة في رومية يعيشون من أطعمة يفرقها فيهم أهل الدولة من الدقيق واللحام، وكان بعض ملوك الفرس ينصب ٥٠٠ مائدة يجعل على كل واحدة نصف شاة ولحم، وجام حلوى أو عسل وعشرة أرغفة وآنية شراب أو لبن وسمكة مصنوعة،^{٥٣} والمسلمون جروا على هذا الترتيب اقتداء بالفرس، مثل اقتدائهم بهم في كثير من آدابهم الاجتماعية.

وأما الخاصة أو من جرى مجراهم من المقربين غير الموظفين، فكان الخلفاء يهبونهم الهبات أو يعينون لهم الرواتب لتقييد إرادتهم^٤ كما تقدم، ولذلك كان أهل الأنفة يكرهون صلات الخلفاء ويبعدون عن جوازهم رغبة في الاستقلال، وأكثر ما يقع ذلك لأهل الbadia الذين لم تدلهم الحضارة، ولا سيما بعد نكبة البرامكة، فقد طال حديث الناس يومئذ بأمرهم وغلب على اعتقادهم أن من يشري من هبات الخلفاء تكون حياته في خطر؛ ذكروا بدوياً عيرته امرأته بفقره لبعده عن جواز الخلفاء إلى أن قالت: «هذا فلان قد أخذ الأموال فحل نساهه وبني داره واشتري ضياعاً، وأنت هنا كما ترى ...» وكانت امرأته باهلية فأنسأً يقول:

ذوى الفقر عنها كل طرف وتالد
مقلدة أعناقها بالقلائد
من العيش أو ما نال يحيى بن خالد؟
بغصهما بالمشرفات النوارد؟
بمستودعات في بطون الأساؤد
ولم أتجشم هول تلك الموارد^٥

تلوم على ترك الغنى باهلية
رأت حولها النسوان يرفلن في الثرا
أسرك أني نلت ما نال جعفر
وأن أمير المؤمنين أغصني
رأيت رفيقات الأمور مشوبة
دعيني تجيء منيتي مطمئنة

الهبات والدين

على أن الفقهاء وأهل التقوى كانوا في صدر الإسلام وأوائل دولة بنى أمية يعدون صلات الخلفاء رشوة ويترددون في قبولها، فما لبثوا أن ذاقوا حلاوتها حتى صاروا يتفاخرون بنيلها، قال ذو الرمة:

ولا دية كانت ولا كسب مأتم
إلى كل محجوب السرادر خضرم^٦

وما كان مالي من تراث ورثته
ولكن عطاء الله من كل رحلة

ثم صاروا يتزلجون إلى أصحاب الأموال ويستنجدونهم رغبة في الارتزاق، فبعضهم ينال رزقه صلة أو جائزة، وأخرون يقبحونه راتباً معيناً، وهؤلاء على الغالب من أهل اليساء وأيتامهم وأراملهم^٧، أو زعماء القبائل ورؤساء الأحزاب على ما يوافق مصلحة الخليفة والأمير أو يتوصم فيه الأجر والثواب، فكان بعضهم يفرض الفروض لأولاد

الأنصار والماهجرين، وغيره يعطي العلوين أو الطالبيين، وغيره يعطي قريشاً أو اليمين، وقس عليه، فكان ابن عيسى وزير المقتدر يعطي الطالبيين والعباسيين وأبناء الأنصار،^٨ وكان ابن الفرات يعطي الفقهاء والعلماء والفقراء وأهل البيوتات، أكثرهم مائة دينار في الشهر وأقلهم خمسة دراهم وما بين ذلك،^٩ وكان لكافور الإخشیدي بمصر مال خاص يجري منه الأرزاق على من يأتيه ناقماً على الخليفة ببغداد أو غيره.^{١٠}

ولهذه الأسباب كان الخلفاء يستحلون إجازة الشعراء وغيرهم من بيت المال؛ لأنهم يعدون ذلك في سبيل مصلحة الدولة وإن لم يصرحوا به دفاعاً عن أنفسهم، بل كانوا إذا سمعوا الانتقاد عليهم من أهل النفوذ الديني سكتوا واسترضوهم ودافعوا عن أنفسهم، كما فعل الرشيد والمهدى بسفيان الثوري.^{١١}

ارتزاق الكبير من الصغير

ذلك ما يقال في ارتزاق الصغير من الكبير في التمدن الإسلامي، أما ارتزاق الكبير من الصغير فقد كان بعضه بالسخاء أيضاً، ولكن على سبيل الهدية، فيعدون عطية الأمير إلى الصغير جائزة أو صلة، ويسمونه ما يقدمه الأصغر إلى الأمير والوزير هدية، وكانت الهدايا شائعة على الخصوص في العصر العباسي، فإذا تولى الأمير على بلد فأول ما يدخلها يبعث أهلها إليه بالهدايا من الأموال والجواري والدواب والثياب،^{٦٢} وهو يبعث إلى الوزير الذي ولاه أو الخليفة بالأموال بسبيل الهدية أيضاً، وإذا طال مقامه أصبحت تلك الهدايا فرضاً واجباً يبعث بها كل سنة، فإذا أمسكها سنة عدوا إمساكه تمراً.^{٦٣}

فالسخاء كان سنة عامة في عهد ذلك التمدن، لا يستثنى عنه عصر أو طائفة، وإن تفاوتت مقداريه واختلفت صوره وأشكاله باختلاف العصور، فكانت العطايا في أول عهد الأمويين الإبل والخيل والماشية، فيأمر الخليفة أو الأمير لن يستجدية بلقة وفحلها وراعيها، أو جارية وفرس، غير ما فرضوه من الأعطيات فإنها كانت تعطى عيناً أو ورقاً، ثم صارت في أواسط الدولة تخوت الثياب من الوشي ونحوه والوصلات فضلاً عن النقود، وصارت في بني العباس البدر من الدنانير وعقود الجوهر وتخوت الديبقي والقصور والضياع وغيرها.

(٣-٣) المجاملة في المعاملة

المجاملة من الطبع الراسخة في نفوس العرب، وذهب بعض الباحثين إلى أنها فطرية في أصل أرومتهم، وما هي كذلك وإنما تولدت فيهم بتوالي الأجيال وتقلب الأحوال؛ لأن العرب كانوا مفطوريين على استقلال الفكر وحرية الرأي كما رأيت، وظلوا على ذلك إلى انقضاء عصر الراشدين، ثم أخذت أفكارهم في الانحباس وعقولهم في التقيد من عصر الأميين، لما اقتضاه طمعبني أمية في الملك من الشدة والحيلة، فاضطرب الناس للمداعجة والتمويلية، وكان الخلفاء من الجهة الأخرى يداجون الناس ويجاملونهم، رغبة في نصرتهم أو قطع ألسنتهم ويعدون ذلك «حلمًا».

وأشهر الحلماء وأقدمهم معاوية بن أبي سفيان، فقد ذكرنا في الجزء الرابع أنه كان يسمع طعن أهل البيت وغيرهم من رؤساء الأحزاب فيه وفي دولته ويغضي، وربما أحسن إلى الطاعنين أو تظاهر بالاستخفاف، كما فعل بشعبية بن غريض، وكان في الكعبة ومعاوية هناك، فبعث يدعوه فأتاه رسوله فقال: «أجب أمير المؤمنين».

قال: «أوليس قد مات أمير المؤمنين؟» (يعني علياً) فقال له: «أجب معاوية». فأتاه ولم يسلم عليه بالخلافة، فقال له معاوية: «ما فعلت أرضك التي بتيماء؟» قال: «يکسى منها العاري ويرد فضلها على الجار». قال: «أتبيعها؟» قال: «نعم». قال: «بكم؟» قال: «بستين ألف دينار، ولو لا خلة أصابت الحي لم أبعها». قال: «لقد أغليت». قال: «أما لو كانت لبعض أصحابك لأخذتها بستمائة ألف دينار ثم لم تبال». قال: «أجل وإن بخلت بأرضك فأنشدني شعر أبيك يرثي نفسه».

فأنشده تلك الأبيات فأعجب بها معاوية وقال: «أنا كنت بهذا الشعر أولى من أبيك». قال: «كذبت ولؤمت!» قال: «أما كذبت فنعم، وأما لؤمت فلم؟» قال: «لأنك كنت ميت الحق في الجاهلية وميته في الإسلام، أما في الجاهلية فقاتلت النبي ﷺ والوحى حتى جعل الله كيده المردود، وأما في الإسلام فمنعت ولد رسول الله الخلافة، وما أنت وهي أنت طليق ابن طليق؟» فقال معاوية: «قد خرف الشيخ فأقيموه». فأخذ بيده فأقيم.

وكان معاوية إذا أزعجه اصطناع الأحزاب بالعطاء أو بالحلم أو بالسيف جهاراً عمد إلى قتلهم غلية، وكان أنصاره يعرفون ذلك فيه وأنه يصانعهم ليغلب بهم، فكانوا يصانعونه طمعاً في مال أو منصب، فكانت المساندة والمداعجة أساس سياسة معاوية، وقد قواهما واستثمرهما بدھائھ وحرزمه ففار، وتحدى المسلمين بحلمه وسعة صدره

وجعلوه قدوتهم، والناس على دین ملوكهم، فكثُر الميل إلى المصانعة في ذلك العصر، وهي على الغالب بين الدولة ورجالها، على أن الأريحية كانت تحول دون تمكّنها.

فلما قام الفرس لمناهضة الأمويين ونصرة العباسين أغضى أبو مسلم عن الوفاء والأريحية وقتل على التهمة، فأصبح الناس يخافون على حياتهم وإن لم يقتروا ذنبًا، فزادت حاجتهم إلى المصانعة، ولما فاز أبو مسلم بحزبه وسلم مقاليد الدولة إلى العباسين، كانت فوضى بيّنهم وبين العلوين، فلما تقدّمها المنصور وطمع في استخلاصها للعباسيين فتك بأبي مسلم ثم قتل من قتله من العلوين، وهم لا يستغفون عن الفرس لنظام حكومتهم وحماية دولتهم، فاستخدموهم على غل ولجهؤا في الاحتراس منهم واتقاء أذاهם إلى الجاسوسية، فبئوا الأرصاد على وزرائهم وعمالهم، يستطيعون أخبارهم ويبعثون بها إليهم سرّاً، والأرصاد نوعان؛ الأول: أصحاب البريد في الأطراف والعمال يعلمون أنهم رقباء على أعمالهم، والثاني: العيون الخفية يتذدونهم من الجواري والغلمان مما يقدمه الخليفة هدية إلى وزيره أو عامله، فيوليهما الوزير بعض شؤون منزله فيدخلون في جملة الندماء أو المغنين أو القيان أو أصحاب الشراب، ويكونون رقباء عليه ينقلون أخباره سرّاً إلى الخليفة، وكان الوزراء يفعلون نحو ذلك بالخلفاء.

فسيُوِّجُ الجاسوسية على هذه الصورة مع المضايقة والتحاسد بعث على المصانعة والمجاملة، وازداد ذلك على الخصوص بعد ذهاب الأريحية وزوال الأنفة وعزّة النفس من العرب، على أثر تضعضع العنصر العربي وتغلب العناصر الأعمجية مع تنافس أصحاب المطامع من هؤلاء في أواسط الدولة العباسية بابتزاز الأموال، واعتبر ما عقب ذلك من الاستبداد والظلم بعد أن فسدت الأحكام في الدولة الإسلامية واستبد السلاطين والأمراء غير العرب بمن أقام في ممالكهم من أهل اللسان العربي، ويسمونهم عرباً وهم أخلاق من مولدي الأمم الأخرى، فلجاً هؤلاء بطبيعة العمran إلى المجاملة والمصانعة على نحو ما هو حالهم اليوم، إلا الذين أوتوا السيادة وتوفّرت لهم السطوة ونفوذ الكلمة أجيالاً متّالية.

(٤-٣) العائلة في التمدن الإسلامي

كانت العائلة في أواسط التمدن الإسلامي نحو ما هي عليه اليوم، وقوامها المرأة وقد تقدم الكلام عليها، فلا نطيل القول في ذلك الآن، وإنما نقول كلمة في بعض خصائص العائلة الإسلامية، كالحجاب وتعدد الزوجات والطلاق.

الحجاب

إذا كان المراد بالحجاب ستر العورة كالخمار ونحوه، فهو ليس من محدثات الإسلام، بل هو قديم كان شأنًا قبل النصرانية، ولم تغير النصرانية شيئاً منه، وظل معروفاً في أوروبا إلى العصور الوسطى وما بعدها، ولا تزال آثاره باقية في أوروبا إلى الآن.

وإذا أريد به حبس المرأة في بيتها ومنعها من مخالطة الناس، فهو من ثمار التمدن الإسلامي؛ لأنَّه لم يكن شأنًا قبله، على أنَّه لم يبلغ الحد الذي بلغ إليه من الشدة والدقة، إلا بعد نضج المدينة وتمكن الحضارة من نفوس المسلمين وإركانهم إلى الترف والرخاء، وقد رأيت في كلامنا عن المرأة البدوية أنها كانت مساوية للرجل حتى نبغ من مضارب البادية نساء اشتهرن بالشجاعة والإقدام والحزم والرأي والتجارة والأدب والشعر وغيرها، فلما انتشر الإسلام وكثُرت الجواري وشاع التسرِّي في المسلمين اختلفت الظنوُن بين الرجل والمرأة، فقلت غيرته عليها وأسأله كل منهماظن في صاحبه، والرجل صاحب العصمة ورب العائلة، فضيق على المرأة الدروب وأقام عليها الأرصاد والعيون من أوائل الدولة الأموية، إذ اتخذوا الخصيان من العبيد ثم استقدموا الصقالبة البيض. فالحجاب الضيق على نحو ما شاع بين العائلات الإسلامية في الشرق سببه سوء ظن

الرجل واستبداده بأهل بيته واستئثاره بالملذات لنفسه، وليس هو من مقتضيات الإسلام كما يتبادر إلى الأذهان، ولو راجعت ما جاء في القرآن الكريم من هذا القبيل لرأيت تفسيرًا أقرب إلى ما يراد من رفع الحجاب، ولكن الناس تعودوا أن يفسروا الآيات القرآنية بما يوافق عاداتهم أو أغراضهم أو أميالهم، اعتبر ذلك في كل دين تمدن أهله وعمدوا إلى تفسير كتبه، فكتب النصارى مثلاً ليس فيها نص صريح يمنع عامتهم من التزوج بامرأتين فأكثر، ولكن الكنيسة رأت أن الاقتصار على امرأة أقرب إلى سعادة العائلة ونظام الاجتماع، فاستخرج رؤساء الدين ذلك من بعض القرائن بالتفسير والتأويل، والمسلمون لما استكثروا من الجواري وساعات الظنوُن بينهم وبين نسائهم أرادوا الحجر عليهن، ولم يعدموا تفسيراً يساعدهم على ما أرادوا فحبسوهن وضيقوا عليهن، واعتتقدت المرأة بتواتي الأجيال أنه يحل للرجل ما لا يحل لها، فصبرت عليه وخافته ولكنها لم تحبه، فخافها وحبسها وجعل بينه وبينها حاجزاً، وغادرها تجالس الخدم والعبيد، وأصبح لا يؤكلها ولا يجالسها ولا يحادثها إلا نادراً، وأعلن ارتياه في أمانتها وأصبح يفتخر بأنها لا تخرج من منزلها إلا إلى القبر.

على أن ظلم المرأة على هذه الصورة واحتقارها مخالف لتعاليم القرآن؛ لأنَّه يأمر بالمرودة والرحمة بين الزوجين، وهذا نص الآية ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ

أَنفُسُكُمْ أَزْواجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَاشُرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، وَلَكُنَ الرَّجُلُ أَبِي إِلَّا الْإِسْتِبْدَادُ وَالْإِسْتِئْثَارُ وَلَا سِيمَا بَعْدَ انْقَضَاءِ عَصْرِ الْعِلْمِ، إِذْ اقْتَصَرَ الْفَقَهَاءُ عَلَى النَّظَرِ فِي الْأَبْحَاثِ الدِّينِيَّةِ الْجَدِيدَةِ، وَخَيْمَ الْجَهَلُ عَلَى الْعُقُولِ كَمَا أَصَابَ النَّصَارَى فِي الْأَجْيَالِ الْمُظْلَمَةِ، فَأَخْذُونَ يَفْسُرُونَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثَ عَلَى مَا يَوْافِقُ مَيْلَهُمْ وَأَهْوَاهُمْ، وَكَانَتِ الْأَحْكَامُ قَدْ فَسَدَتْ وَاسْتَبَدَ الْحُكْمُ فِي النَّاسِ فَعَادَتْ عَاقِبَةُ ذَلِكَ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْكِنَةِ.

لأنَّ الرَّجُلَ فِي طُورِ الظُّلْمِ يَتَحَمَّلُ بَطْشَ الْحَاكِمِ وَعَسْفَهُ وَيَكْظُمُ مَا فِي نَفْسِهِ، حَتَّى إِذَا جَاءَ مَنْزِلَهُ عَامِلٌ أَهْلَهُ مِثْلَ مُعَالَمَةِ الْحَاكِمِ لَهُ انتِقامًا لِنَفْسِهِ ... تِلْكَ سَنَةُ مِنْ سِنَنِ الْعُمَرَانِ عَلَى اخْتِلَافِ أَطْوَارِ التَّمَدُّنِ، فَالْبَلَادُ الَّتِي يَتَولَّهَا حَاكِمٌ ظَالِمٌ يَقْتَدِيُ بِهِ أَرْبَابُ الْعَائِلَاتِ بِظُلْمِ نَسَائِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، وَأَمَّا فِي الْحُكْمِ الْعَادِلِ فَالْمَرْأَةُ تَنَالُ حُقُوقَهَا وَالرَّجُلُ يَعْدُلُ فِي حُكْمِهِ، فَالْبَلِيْتُ دُولَةٌ صَغِيرَةٌ تمَثِّلُ دُولَةَ الْأَمَّةِ.

وَمَا زَالَتِ الْمَرْأَةُ الْمُسْلِمَةُ فِي نَحْوِ مَا تَقْدِمُ إِلَى أَوَّلَائِهِنَّ هَذِهِ النِّهَضَةُ وَالْمُسْلِمُونَ سَكُوتٌ، حَتَّى تَصْدِيَ بَعْضُ أَرْبَابِ الْأَقْلَامِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَوَاسِطِ الْقَرْنِ الْمَاضِي وَنَدِّدُوا بِالْحِجَابِ وَعَوَاقَبُهُ وَحَرَضُوا إِخْوَانَهُمْ عَلَى تَرْكِهِ، وَأَقْدَمُ مِنْ فَعْلِ ذَلِكَ عَلَى مَا نَعْلَمُ مِنْ الْمَرْحُومِ الشِّيخِ أَحْمَدَ فَارِسِ الشَّدِيقِ فَكَتَبَ الْفَصْوَلَ الضَّافِيَّةَ فِي «الْجَوَابِ» بِالْأَسْتَانَةِ، ثُمَّ كَتَبَ غَيْرُهُ فَصُولًا لَا تَشْفِي غَلِيلًا، حَتَّى ظَهَرَ كِتَابُ تَحْرِيرِ الْمَرْأَةِ فِي آخرِ الْقَرْنِ الْمُذَكُورِ لِصَاحِبِهِ قَاسِمِ بْكَ أَمِينِ فَوْقِ الْمَوْضُوعِ حَقَّهُ، وَلَمْ يَتَرَكْ مَحَالًا لِسَائِلِهِ.

تعدد الزوجات

وَمِنْ آفَاتِ الْعَائِلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ تَعْدُدُ الزُّوْجَاتِ، وَهِيَ أَنْ يَتَخَذُ الرَّجُلُ زَوْجَتَيْنِ إِلَى أَرْبَعِ، وَالشَّرْعُ الْإِسْلَامِيُّ يَجِيزُ لَهُ ذَلِكَ بِشَرْطِ إِذَا رَوَعِيَ حَقُّ مَرَاعَاتِهِ لَمْ يَتَخَذُ الرَّجُلُ إِلَّا زَوْجًا وَاحِدَةً؛ لِأَنَّ الْآيَةَ الَّتِي تَجِيزُ تَعْدُدَ الزُّوْجَاتِ تَشَرِّطُ أَنْ يَعْدُلُ الرَّجُلُ بَيْنَهُنَّ، فَإِذَا خَافَ أَلَا يَعْدُلُ فَيَقْتَصِرُ عَلَى وَاحِدَةٍ، وَهَذَا نَصُّ الْآيَةِ: ﴿فَإِنْ كَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتَّنِي وَتُلْكَثَرَ وَرُبِّيَّعَ فَإِنْ خِفْتُمُ أَلَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾، وَفِي مَحْلِ آخَرَ: ﴿وَلَئِنْ شَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَضْتُمُ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيَلِ فَتَنَرُّوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾، فَإِذَا جَمِعْتُمْ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ رَأَيْتُ فَحْواهُمَا أَقْرَبَ إِلَى النَّهَيِّ عَنْ تَعْدُدِ الزُّوْجَاتِ مِنْهُ إِلَى الْأَمْرِ بِهِ، وَلَذِكَ رَأَيْتَ الْغَالِبَ فِي الْعُقَلَاءِ وَأَهْلِ الْمَرْوِعَةِ أَنْ يَكْتَفُوا بِزَوْجَةٍ وَاحِدَةٍ، وَكَانَ ذَلِكَ سَهْلًا فِي عَصْرِ التَّسْرِيِّ، إِذْ قَدْ يَأْتِي النَّسْلُ مِنْ بَعْضِ الْجَوَارِيِّ فَلَا يَجِدُ الرَّجُلُ ضَرُورَةً إِلَى الزَّوْجِ ثَانِيَةً أَوْ ثَالِثَةً

اكتفاء بجواريه، ومن يأتيه بما يشتهيه من النسل، على أن تعدد الزوجات ظل متبعاً حتى في أهل الفضيلة والعقل إلى اليوم، ولكن على قلة، وإذا أحصي المتزوجون بأكثر من امرأة لا نظنهم يزيدون على خمسة في المائة أو عشرة من مجموع المتزوجين، وهم في الغالب من العامة، وإذا كانوا من الخاصة فإنما فعلوا ذلك لأسباب قهرية.

ومن أجاز تعدد الزوجات ذهب إلى تفسير «العدل» بالعدل في النفقة لا في المحبة، على أن كثريين من أهل الوجاهة والشرف في العصور الإسلامية الوسطى كانوا يجمعون بين التسري وتعدد الأزواج، والغالب أن تكون السيادة للمرأة الأولى وإن اختلف ذلك باختلاف الأحوال، ولكن المرأة العاقلة التقية كانت تعد إهداء زوجها ما يرضاه من الجواري الحسان فضيلة، كما فعلت أم جعفر بالرشيد لتشغله عن الجارية دنانير.

وقد تساعد المرأة التقية زوجها على الزواج بأمرأة أخرى تتوقع من مساعها في ذلك ثواباً؛ روى الشيخ الجبرتي المؤرخ المصري عن إحدى أزواج أبيه قال: إنها كانت من الصالحات المصنونات وكانت بارة بزوجها ومطيبة له، ومن جملة براها له أنها كانت تشتري له من السرارى الحسان من مالها وتتنظمهن بالحلي والملابس وتقدمهن إليه، وتعتقد حصول الأجر والثواب لها بذلك، وكان يتزوج عليها كثيراً من الحرائر فلا يسعها فعله، ولا يحصل عندها ما يحصل عند النساء من الغيرة.^{٦٤}

الطلاق

ويقال عن الطلاق ما يقال عن تعدد الزوجات، فالعقلاء يذهبون إلى كره الطلاق بناء على بعض الآيات الواردة في هذا الشأن كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنَهُمَا فَابْعَثُوهَا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾، وقوله: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرُهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ حَيْرَا كَثِيرًا﴾، وفي الحديث «بغض الحال عند الله الطلاق»، ومع ذلك كان بعض كبار الصحابة يكترون منه إكثاراً مدهشاً، كما فعل الحسن بن علي بن أبي طالب فإنه تزوج ٢٥٠ امرأة وقيل: «إن حسناً مطلق فلا تزوجوه». ويليه المغيرة بن شعبة فقد تزوج نحو هذا العدد.^{٦٥} على أن الطلاق ما زال مكرهواً كمارأيت من كلام الإمام علي، وأهل الأنفة والفضل لا يطلقون إلا لعلة كبيرة أو عذر شرعى، ولو أحصيت حوادث الطلاق لرأيت أكثرها في طبقات العامة.

ومما ساعد على تكاثر حوادث الطلاق المبالغة في الحجاب، فيتزوج الشاب الفتاة وهو لم ير وجهها، فإذا لم تتوافقه هان عليه طلاقها؛ لأنه لم يرض الزواج على هذا الشرط إلا لعلمه بسهولة التخلص من زوجته إذا لم تعجبه، وهذا التضييق ليس من الدين في شيء، لورود عدة أحاديث تجيز للرجل أن يرى خطيبته قبل الزواج، وأحاديث تأمر برؤيتها صريحاً،^{٦٦} فلو عملوا بذلك لقلت البواعث على الطلاق، على أن للطلاق في بعض الأحوال فوائد اجتماعية حرمت منها الطوائف التي لا طلاق عندها.

(٥-٣) المعيشة العائلية

الطعام:

كان طعام العرب قبل الإسلام قاصراً على الألبان، وما يستخرج منها كالسمن والزبد والجبن، ومن التمر والحبوب واللحوم يأكلونها على أبسط ما يكون من أحوالها، كما يفعل أهل البادية اليوم، وأكثر ألبانهم ولحومهم من الإبل، وقد يصنعون منها أطعمة تتربك على نسب معينة، كالثرید فإنه يصنع من اللحم واللبن والخبز، ومنها ما يصنع من اللبن والدقيق فقط، كالرغيدة والرهيدة والعصيدة، أو يصنع من السمن والدقيق كالبكالة أو من الدقيق والعسل والسمن كالوضيعة، ولهم من أمثال هذه الأطعمة نحو أربعين لوناً.

ذلك هو طعام أهل اليسار منهم وأصحاب الضيافة، وأما الفقراء فقلما يأكلون لحم الإبل أو الضأن، وإنما كانوا يقتاتون بلحם الضب أو بالجراد، وإذا جاءوا أكلوا العلهز وهو وبر الإبل يمهوه بالحجارة في الدم فيطحونه، وكان حال القرشيين قريباً من ذلك،^{٦٧} وربما أكلوا القرامة ونحوها من القرون والأظلاف والمناسب من برادتها، أو القرفة وهي الدقيق المختلط بالشعر، وكانوا إذا عطشوا ولم يجدوا ماء، شربوا الفظ وهو عصارة الفرت أو المجدوح وهو مصل دم الإبل.^{٦٨}

فلما جاء الإسلام وافتتحوا العراق وفارس ومصر دهشوا لما شاهدو من حضارة الروم والفرس، ووقعوا على ألوان من الأطعمة لم يعرفوها، فأشكل عليهم أمرها وظفر بعضهم بجراب فيه كافور فأحضره إلى أصحابه فظنوه ملحًا، فطبخوا طعاماً ووضعوه فيه فلم يجدوا له طعمًا ولم يعلموا ما هو، فرأه رجل عرف ما فيه فاشترىه منهم بقemicus

خلق يساوي درهمين،^{٦٩} ورأى بعضهم الخبز الرقاق فظنوه رقاعاً يكتب عليها،^{٧٠} وشاهدوا الأرز فظنوه طعاماً مسموماً،^{٧١} ثم ما لبثوا أن أقاموا بين أولئك الأقوام حتى عرفوا ما كلهم ولا سيما الفرس، فأخذوها عنهم كما أخذوا أكثر مبادئ الحضارة وكثيراً من العادات والأداب، وليس في الشرع الإسلامي ما يمنع تعميم بالطبيات من الأطعمة إلا ما جاء النص بتحريمه.

فأخذوا بأطراف الحضارة من أيامبني أمية، وأول من قلد الأعاجم بأسباب الترف معاوية، فتنعم بماكله ومشربه،^{٧٢} واقتني به خلفاؤه وسائر الناس، ولا سيما بعد أن كثرت الأموال بين أيديهم فأكلوا السكباح، وهو نوع من المرق كانوا يصنعونه من مرق اللحم والخل، ويضعون فيه اللحوم المطبوخة كالدراج ونحوه، وكانوا يسمونه سيد المرق، والفالوذج وهو نوع من الحلوي، وكذلك اللوزينج يحشى باللوز والسكر، والجوزاب والخشاف والجلاب وغيرها، وتقننوا في معالجة اللحوم بالألبان والخضار والتوابل على أساليب شتى.

اللباس:

لباس العرب الجاهلية

ولباس العرب كان بسيطاً مثل طعامهم وسائل طرق معيشتهم، ولا يزال حتى الآن في عرب الbadia نحو ما كان عليه قبل الإسلام، وهو عبارة عن القميص والحلة والإزار والشمرة والعباءة والعمامة، ولم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون السراويل ولا الأقبية،^{٧٣} وإنما هي فارسية، وكذلك النعال والخفاف، ولكن بعض الخاصة كان يلبسها، وكانوا يعلقون سيوفهم على عواتقهم، وثيابهم على الإجمال قصيرة إلى أسفل الركب.^{٧٤}

وأفضل مثال للباس العرب لباس النبي ﷺ فقد ذكروا أن أحب اللباس إليه البرود والبياض والحبرة، وهي ضرب من البرود فيه حمرة، وكان كمه قصيراً إلى الرسغ، يلبس أحياناً حلة حمراء وإزاراً ورداً، والإزار قصير إلى أسفل الركبة، ولبس الخف والنعل،^{٧٥} وقد نهى عن الثوب الطويل الذي يجر على الأرض من الخلاء، ومن أقواله: «فضل الإزار في النار».^{٧٦} ولم يكن العرب يعرفون من الأنسجة غير القطن والصوف.

على أن الذين كانوا يقدون على الشام والعراق من أغنيائهم لتجارة أو زيارة كانوا يقلدون أهلها بملابسهم الفاخرة، فمن فعل ذلك اشتهر ذكره بين القبائل ولا سيما في أوائل الإسلام، ومن المؤثر عندهم أن أول من لبس الخز الأدكن من العرب عبد الله بن عامر، وأول من لبس الدراريع السود المختار بن أبي عبيد، وأول من لبس الطيلسان في المدينة جبير بن مطعم^{٧٧} وقس عليه سائر ما اتخذوه من لباس الأعاجم بعد الإسلام، والعادة أن يبدأ الأمراء بذلك ثم يقلدهم سائر الناس، وأول من أقدم على تقليد الأعاجم بأسباب البذخ معاوية وعماله، فزياد بن أبيه أمير العراق أول من قلد الفرس بلبس القباء الديجاج^{٧٨} وهو أول من لبس الخفاف الساذجة بالبصرة.

ولما أترف بنو أمية لبسوا الحرير على أنواعه، وتفننوا بأنواع الأنسجة، وأحبوا الوشي وأكثروا من لبسه، فقلدهم الناس في ذلك فراجت المنسوجات المنشاة في أيامهم، واتخذوا كثيراً من ألبسة الروم، ولكنهم لرغبتهم في المحافظة على البداءة ظلوا يلبسون العمائم ويعلقون السيوف على العواتق، وكان الأخف يقول: «لا تزال العرب عرباً ما لبست العمائم وتقلدت السيوف».^{٧٩}

اللباس في عصر الحضارة

فلما أقضت الخلافة إلى العباسين، واستسلموا للفرس وأخذوا نظامهم وأدابهم، قلدوهم بالألبسة وجعلوا ذلك بأمر رسمي من أوائل دولتهم، فأمر المنصور رجاله سنة ١٥٣ هـ أن يلبسو القلانس الفارسية الطويلة تدعم بعيدان من داخلها، بدل العمائم، أو يعتموا فوقها بعمامة صغيرة، وأن يعلقوا السيوف في أوساطفهم، وأن يكون اللباس الأسود عاماً فيهم، وهو شعار العباسين كما كان البياض شعار الأمويين، فلا بد للداخل على الخليفة العباسي من لباس جبة سوداء يسمونها «السوداء» تغطي سائر الثياب، وألبسهم المنصور دراريع كتب على ظهورها ﴿فَسَيِّكِ فِيهِمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾،^{٨٠} وبعث إلى عماله في سائر الأقطار أن يأمروا رجالهم بمثل ذلك.^{٨١}

فأقبل العرب من ذلك الحين على تقليد الفرس في الملابس، ولا سيما أهل الدولة ورجال الحكومة، فلبسو الأقبية والسراويات والطيلاسة والخفاف والجوارب وغيرها، معبقاء ألبسة العرب عند عامتهم، ثم اختصت كل طائفة أو طبقة بلبس خاص يميزها عن سواها، فالفقهاء والعلماء كانوا يلبسون عمامة سوداء بشكل خاص ومبطنة وطيلسان أسود،^{٨٢} وأول من غير لباس العلماء على هذه الصورة أبو يوسف قاضي الرشيد،^{٨٣} وأما

لبس القضاة فهو القلنس الطوال والطياسسة الرقاق، ويختلف ذلك باختلاف الدول والأعصر مما لا محل لاستيفائه.

أما عامة الناس فتختلف أشكال ألبستهم باختلاف صناعاتهم وأحوالهم وطبقاتهم، وباختلاف الأصقاع والأطوار مما لا يمكن حصره، وإنما يقال بالإجمال أن لباس الرجال العمامة والدراعة والسراويل والقميص والقباء والجبة والجوارب والنعال، على نحو لباس المصريين والسوريين في أوائل القرن الماضي وهو ما يلبسه جماعة المشايخ الآن.

ثياب المناومة والتطيب والخضاب

على أن رجال الدولة ومن جرائمهم من الخاصة كانت لهم ألبسة لجالس الأئمة والشرايين يسمونها «ثياب المناومة»، وهي أثواب مصبغة بالألوان الزاهية: الأحمر أو الأصفر أو الأخضر، يصدقونها حتى تلمع وتشرق، ويتحمرون بالخلوق ويتطيبون، ولهم ألبسة يتخففون بها في منازلهم وأخرى يلبسونها في الأسفار وغير ذلك.

أما التطيب فقد كان من دلائل الغنى والنبل عندهم، ومن أمثلتهم: «ثلاثة يحكم لهم بالنبل حتى يُدرى من هم: رجلرأيته راكباً، أو سمعته يعرب كلامه، أو شمنت منه طيباً».

والخضاب كان مستحسنًا عندهم، وأصله هندي أخذه الفرس عن الهندو،^{٨٤} ومنه انتقل إلى بلاد العرب قبل الإسلام، ويقال: إن أول من خضب بالسواد من أهل مكة عبد المطلب،^{٨٥} وقالوا: بل المغيرة بن شعبة، ولما ظهر الإسلام وانتشر العرب في الأرض تعلموا فنون الخضاب، فصاروا يخضبون بالحناء للحمرة وبالزعفران للصفرة فضلاً عن الخضاب الأسود، وكانوا يبيضون شعورهم بالكريبت،^{٨٦} وأول من خضب لحيته بالزعفران جرير الشاعر،^{٨٧} وكان حسان بن ثابت يخضب لحيته على أسلوب خاص، فيلون شاربيه وعنفقته بالحناء دون سائر لحيته، فيبدو لأول وهلة كأنه أسد والغ في الدم،^{٨٨} وقس على ذلك تفتنهم في الخضاب للرجال والنساء، ولا يزال ذلك شائعاً في الشرق إلى الآن، والأكثرون يخضبون بالسواد وبعضهم بالحناء، ويندر الخضاب بالزعفران، ولا نعرف أحداً يبيض شعره بالكريبت.

المأوى:

مساكن العرب

كان العرب قبل الإسلام أهل خيام وأنعام، يحملون منازلهم على ظهورهم، إلا من أقام منهم في مكة أو المدينة أو الطائف أو غيرها من مدن الجاهلية، ولما نهضوا للفتح كانت البداوة من جملة أسباب تغلبهم، فلما فتحوا الأ MCSارات تحاشوا سكناً المدن، ونصبوا مضاربهم في ضواحيها أو بناوا بيوتاً من القصب معسّكراً لهم، لا يفصل بينها وبين مقر الخلافة (المدينة) ماء، لأنهم محتلون إلى أجل، وكانوا إذا فسد ما بنوه من القصب أو احترق، استأندوا الخليفة عمر في بنائهما بالحجارة، مثل المدن التي فتحوها بمصر والشام والعراق، ولكنه لم يكن يرى تحضرهم خوفاً عليهم من الترف والرخاء، ولهذا السبب أيضاً منعهم من الزرع، ثم أذن لهم بالبناء، ولكنه اشترط الاقتصاد فيه، فلما استشاروه في بناء الكوفة بالحجارة قال لهم: «افعلوا، ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات، ولا تطاولوا في البناء، والزموا السنة تلزمكم الدولة». ^{٨٩}

على أن ناموس العمران غالب على ما أراده عمر من بقاء المسلمين يقيعون في المعسكرات، فما لبثوا أن تحضروا وتحولت تلك المعسكرات إلى مدن عاملة، ونزلوا المدن القديمة التي فتحوها، وبنوا المنازل والقصور يقلدون بها أبنية الدول السالفة.

أساليب البناء في الإسلام

وكانت أساليب البناء يومئذ تختلف باختلاف الأمم، ولكل منها نمط تولد عندها بتواتي الأجيال، إما رأساً أو اقتباساً، وأهمها النمط البيزنطي في الشام ومصر، والفارسي في فارس وخراسان، والقوطي في الأندلس وما يليها، فلما تحضر العرب وعمدوا إلى تشييد المباني؛ استخدموا في بنائهما مهندسين من الروم والفرس، فكانوا يخططونها على ما عرفوه من الأساليب التي ذكرناها، ثمأخذ العرب تلك الصناعة وأدخلوا فيها تعديراً يواافق الذوق الشرقي ويلائم الإسلام، فتولد نمط إسلامي خاص يعرف بالنمط العربي أو الشرقي يختلف باختلاف الأصقاع واختلاف العصور والدول، وترجع تنوعاته إلى ثلاثة أعصر كبرى:

أولاً: العصر العربي الرومي: هو أقدم أعرق البناء في الإسلام، وأساسه النمط البيزنطي، وتنوع في أثناء التمدن الإسلامي وتفرع إلى خمسة أشكال:

- (١) النمط السوري ومثاله الجامع الأقصى في القدس، والجامع الأموي في الشام.
- (٢) النمط المصري ومثاله جامع عمرو بالفسطاط.
- (٣) النمط الإفريقي ومنه جامع القиروان.
- (٤) النمط الصقلي في صقلية بابطاليما ومن أمثلته قلاع سرقوسة وغيرها.
- (٥) النمط الأندلسي ومنه جامع قرطبة وبعض الآثار العربية في طليطلة مما بني قبل انتهاء القرن العاشر للميلاد.

ثانياً: العصر العربي البحث: وهو يشمل الأشكال التي تكيفت بين يدي العرب حتى بدت عن الأصول التي نقلت عنها وهي قسمان:

- (١) النمط المصري ومنه الأبنية التي أقيمت في مصر بين القرن العاشر والخامس عشر وفي جملتها الجواجم التي بناها السلاطين المماليك، كجامع الظاهر وجامع السلطان حسن.
- (٢) النمط الأندلسي وهو ما بني في الأندلس بعد القرن العاشر ومن أمثلته أبنية إشبيلية وغرناطة ولا تزال آثارها باقية إلى الآن.

ثالثاً: العصر المختلط: ويدخل فيها:

- (١) النمط الإسباني العربي ويراد به ما بناه المسيحيون بعد استيلائهم على الأندلس وخروج المسلمين منها.
- (٢) النمط الإسرائيلي العربي ومن أمثلته الآثار البابوية لليهود في طليطلة من أنقاض الكنائس.
- (٣) النمط الفارسي العربي كالجواجم التي بناها الفرس بعد الإسلام ولا سيما في أصفهان.
- (٤) النمط الهندي العربي وهو خليط من النمطين الهندي والعربي كبرج كتاب وهيكيل بندرابند وباب علاء الدين.
- (٥) النمط المغولي العربي كالأبنية التي أقيمت في الهند أثناء سلطة المغول وأشهرها تاج محل وقصر الشاه وكثير من المساجد ونحوها.^{١٠}

فمساكن الناس في عهد التمدن الإسلامي كانت تختلف شكلاً باختلاف البلاد والعصور، وتتفاوت سعة وقدراً بتفاوت طبقات الناس: من الأكواخ الحقيرة إلى القصور الفخيمة، وسنأتي بأمثلة من القصور وسائر الأبنية الإسلامية عند الكلام على الحضارة.

هوماش

- (١) الجزء الأول.
- (٢) الأغاني ٦٠ ج ١٠.
- (٣) العقد الفريد ٢٥٤ ج ٢.
- (٤) الأغاني ١٧٣ ج ١٤.
- (٥) ابن الأثير ١٩١ ج ٤.
- (٦) الأغاني ١٦٥ ج ٦.
- (٧) الجزء الرابع.
- (٨) الجزء الثاني.
- (٩) ابن الأثير ٢٣٧ ج ٣.
- (١٠) ابن خلkan ٢٣٠ ج ١.
- (١١) العقد الفريد ١٤٠ ج ١، وابن خلkan ١١٠ ج ٢.
- (١٢) الأغاني ١٦٣ ج ١٧، وابن الأثير ١٥٩ ج ٤.
- (١٣) الأغاني ٢٣ ج ١٢.
- (١٤) ابن خلkan ٩ ج ١.
- (١٥) الأغاني ١٨٣ ج ١، و ١٨٤ ج ٧.
- (١٦) الأغاني ٢٦ ج ١٩، و ٥٤ ج ٦.
- (١٧) الأغاني ٧٤ ج ١٩.
- (١٨) الأغاني ٦٧ ج ٢.
- (١٩) المسعودي ١٢٢ ج ٢.
- (٢٠) الأغاني ١٨١ ج ٢٠.
- (٢١) الأغاني ٩٨ ج ٤.
- (٢٢) المسعودي ١١٦ ج ٢.
- (٢٣) كتاب الحيوان للجاحظ ٢٨ ج ١.

- (٢٤) الأغاني ١٥٤ ج. ١.
- (٢٥) الأغاني ١٤٩ ج. ١٣.
- (٢٦) الأغاني ٣٩، و ١٥٩ ج. ٦.
- (٢٧) الأغاني ١٢٨ ج. ٢.
- (٢٨) الأغاني ٤٨ ج. ٤.
- (٢٩) الأغاني ٤٠ ج. ٦.
- (٣٠) الأغاني ٤١، و ٥٨ ج. ٢.
- (٣١) الأغاني ١٦٠ ج. ٣.
- (٣٢) الفرج بعد الشدة ١٨٣ ج. ٢.
- (٣٣) تزيين الأسواق ١٢٢.
- (٣٤) ألف باء ٧٧ ج. ٢.
- (٣٥) رسائل الخوارزمي ٢٠.
- (٣٦) الجزء الثاني.
- .Library of Univ. Fist, 11, 750 (٣٧)
- (٣٨) ابن خلكان ١١٧ ج. ٢.
- (٣٩) الأغاني ١٥٦ ج. ١٢.
- (٤٠) العقد الفريد ٨٥ ج. ١.
- (٤١) المسعودي ١١١ ج. ٢.
- (٤٢) العقد الفريد ١١٠ ج. ١.
- (٤٣) الأغاني ٦١ ج. ١٠.
- (٤٤) الأغاني ١٧٠ ج. ٥، و ١٥٦ ج. ١٧.
- (٤٥) ابن خلكان ١٣١ ج. ٢.
- (٤٦) الأغاني ٨٤ ج. ٥، و ٤٦ ج. ٣، و ١١ ج. ١٢.
- (٤٧) العقد الفريد ٨٣ ج. ١.
- (٤٨) العقد الفريد ٦ ج. ٣، و ابن خلكان ٨٢ ج. ١.
- (٤٩) العقد الفريد ٦ ج. ٣.
- (٥٠) ابن خلكان ٢٧١ ج. ٢.
- (٥١) ابن خلكان ٥٥ ج. ١.

- (٥٢) المقريزي ٨٥ ج. ١.
- (٥٣) ترتيب الدول ١٢٠.
- (٥٤) الأغاني ١٥٤ ج. ١٧.
- (٥٥) الأغاني ٩ ج. ١٢.
- (٥٦) العقد الفريد ٨٧ ج. ١.
- (٥٧) ابن الأثير ١٥٤ ج. ٦.
- (٥٨) تاريخ الوزراء ٣٢٢.
- (٥٩) ابن خلkan ٣٧٢ ج. ١.
- (٦٠) الفرج بعد الشدة ١٤٢ ج. ٢.
- (٦١) سراج الملوك ٥٦ وراجع الجزء الثاني من هذا الكتاب.
- (٦٢) ابن الأثير ٥١ ج. ٦.
- (٦٣) ابن الأثير ١٢١ ج. ٧.
- (٦٤) الجبرتي ١٨٢ ج. ٣.
- (٦٥) ألف باء ٣٤٨، ٣٤٩ ج. ٢.
- (٦٦) مشكاة المصايب ٢٦٩.
- (٦٧) ابن خلدون ١٧٠ ج. ١.
- (٦٨) كتاب البخلاء ١٨٣.
- (٦٩) الفخرى ٧٤.
- (٧٠) ابن خلدون ١٤٤ ج. ١.
- (٧١) الهمданی ١٨٨.
- (٧٢) الدميري ٥٥ ج. ١.
- (٧٣) البيان والتبيين ٥٣ ج. ٢.
- (٧٤) سراج الملوك.
- (٧٥) تهذيب الأسماء ٦٠.
- (٧٦) الكامل للمبرد ٢٦.
- (٧٧) المعارف لابن قتيبة ١٨٧.
- (٧٨) الأغاني ١٠٤ ج. ١٤.
- (٧٩) الكامل للمبرد ١٠٠.

- (٨٠) الأغاني ١٢١ ج ٩، وابن الأثير ٢٨٩ ج ٥، والعقد الفريد ٧٤ ج ١.
- (٨١) ابن تغري بردي ٤٣٧، والمقريزي ٣٠٧ ج ١.
- (٨٢) الأغاني ١٠٩ ج ٥، و ٦٩ ج ٦، وطبقات الأطباء ٤ ج ٢.
- (٨٣) ابن خلكان ٣٠٣ ج ٢.
- (٨٤) المسعودي ١١٥ ج ١.
- (٨٥) لطائف المعارف ٨.
- (٨٦) ألفباء ٢٤٤ ج ٢.
- (٨٧) المعارف لابن قتيبة ٩٩.
- (٨٨) الأغاني ٣ ج ٤.
- (٨٩) ابن خلدون ٢٩٩ ج ١.
- .La Civilisation des Arabes, 597 (٩٠)

حضارة الدولة الإسلامية

نريد بالحضارة ما تبلغ إليه الدولة من الثروة وبسطة العيش والتتوسيع في أسباب الترف والراغد في أرقى درجات عمرانها، والدولة الإسلامية أدركت تلك الدرجات أولاً في العصر العباسي ببغداد من أواسط القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي) إلى أواسط الرابع (العاشر الميلادي)، وفي العصر الأموي بالأندلس في القرن الرابع، وفي العصر الفاطمي بمصر من أواسط الرابع إلى أواسط السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي). وأسباب الحضارة فيما نحن فيه تقسم إلى قسمين كبيرين؛ الأول: العمارة أي إنشاء المدن وبناء المصانع والقصور، والثاني: الثروة وبها يتم ما يقتضيه الترف من الانغماس في النعيم والرخاء وبسطة العيش، فتتكلم أولاً عن المدن، فالملباني، ثم نبين ما بلغت إليه الأمة من الثروة وأسباب الترف والرفاهية.

عمارة المدن والقصور

إن المدن التي سكنها المسلمون وحوواها التمدن الإسلامي تعد بالمئات، وهي منتشرة في آسيا وإفريقيا وأوروبا، ومنها ما كان عامراً قبل الإسلام، ومنها ما بناه المسلمون لأنفسهم، وقد نشرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب فصلاً في المدن الإسلامية، وما بلغت إليه من الحضارة والثروة في عهد التمدن الإسلامي واقتصرنا على أعظم تلك المدن: البصرة، والكوفة، والفسطاط، وبغداد، وأجلنا الكلام فيما بقي إلى هذا الجزء فنقول:

(١) القطر المصري

(١-١) مساحة الأرض الزراعية فيه

القطر المصري اليوم (حوالي سنة ١٩١٠) في نهضة مالية تضاعفت فيها الثروة إلى حد استغراقه الناس وخافوا رد الفعل؛ لأنهم رأوا غلاء في الأسعار، مفاجئاً لم يعهدوا مثله، وزادت مساحة الأرض الزراعية ستة أضعافها في قرن واحد، فبعد أن كانت مساحتها في أيام المالكين نحو مليون فدان وبعض المليون صارت ثمانية ملايين فدان، وبعد أن كان الفدان ببضع عشر جنيهاً بيع بمائة جنيه، أو مائة وخمسين جنيهاً أو أكثر، فكيف لو علموا أن مساحة الأرض الزراعية في إبان التمدن الإسلامي زادت على ٢٥٠٠٠٠٠ فدان؟ وقد ذكرنا ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب نقلًا عن ثقates مؤرخي العرب، فاستغرقه بعض الفضلاء وعدوه من قبيل الخرافنة أو الأكذوبة على عادتهم في الاستخفاف بأقوال مؤرخي المسلمين، ولا نرى باعثاً على هذا الاستخلاف، والمسلمون أو العرب من أكثر الأمم تحقيقاً في حوادث التاريخ، لما تعودوه من التحقيق في المسائل الدينية بالإسناد ونحوه.

على أننا لا نلومهم إذا استغربوا تلك الرواية؛ لأن الناس يقيسون الأشياء بما علموه من أشباهها، فثروة القطر المصري إذا قيست بما ألفناه من أحوال عمرانه في القرنين الماضيين لا نرى ما يسهل علينا تصديق قول العرب بمساحته الزراعية إلى ثلاثة أضعاف ما بلغت إليه اليوم، ولكن لو قيل لأهل هذا الجيل إن مساحة الأرض الزراعية بمصر ستبلغ بعد عشر سنين عشرة ملايين أو ١٢ مليون فدان لهان عليهم التصديق؛ لأنهم شاهدوا تزايد هذه المساحة من مليون فدان إلى ثمانية ملايين، أما لو قيل ذلك لأهل أواسط القرن الماضي لعدوه مستحيلًا؛ لأن مساحة أرض مصر التي تقبل الزراعة لم تكن تقدر يومئذ بأكثر من ٧٠٠٠٠٠ فدان، وهاك تقدير الدكتور كلوت بك لسنة ١٨٤٠ باعتبار الفدان:

الجملة غير مزروعة مزروعة أرض			
٢٨٠٠٠٠	١٥٥١٠٠	٢٢٤٩٠٠٠	مصر السفلي
١٦٢٠٠٠	٧٦٣١٧٤	٨٥٦٨٢٦	مصر الوسطى
١٥٩٤٠٠	٨٤٣٦٠٠	٧٥٠٤٠٠	مصر العليا
٧٠١٤٠٠	٣١٥٧٧٧٤	٣٨٥٦٢٢٦	

فتكون مساحة الأرض التي يمكن زراعتها بمصر ٧٠١٤٠٠٠ فدان، فمن كان هذا اعتقاده في أطيان مصر لا يصدق إذا قيل له: إن مساحة هذه الأطيان ستزيد على عشرة ملايين فدان، أو ١٢ مليوناً بعد بضع عشرة سنة.

(٢-١) عدد السكان

ويقال نحو ذلك في عدد السكان، فلو قيل في أواسط القرن الماضي: إن القطر المصري سيبلغ عدد سكانه إلى عشرة ملايين أو ١٢ مليوناً لعدوا قولنا من الخرافات، أو كما قال الدكتور كلوت بك: «من عادات الشرقيين في المبالغة». لأن عددهم في أيامه لم يكن يزيد على ٣٠٠٠٠٠ نفس، فكيف يصدق زيادته إلى أربعة أضعاف؟ لا نقول ذلك تحكمًا أو افتراضًا، ولكننا ننقل للقارئ قول الدكتور كلوت بك مؤرخ ذلك العصر في هذا الشأن؛ فقد بحث في كتابه عن سكان القطر المصري سنة ١٨٤٠ فبلغ عددهم ثلاثة ملايين

نفس، فصدر بحثه بمقدمة عن إحصائهم في الزمن القديم قال فيها ما معناه: «يؤخذ من إحصاء مؤرخي اليونان أن سكان هذا القطر بلغ عددهم في زمن سيزوستريوس والبطالسة نحو سبعة ملايين نفس إلى ثمانية، وأما مؤرخو العرب فزعموا أن عددهم في زمن عمرو بن العاص بلغ عشرين مليوناً، وهو قول يدل على عادة الشرقيين في المبالغة في كتاباتهم ... لأننا لو قسنا مصر بما نعلمه في سواها من نسبة عدد الناس إلى مساحة ما يوطنونه من الأرض لوصلنا إلى نتيجة تنفي كل شك، فمصر مساحتها سدس مساحة فرنسا، ومهمما قلنا في خصب وادي النيل وما يمكن الوصول إليه من امتداد الزراعة وزيادة العمارة، ولو سلمنا بإمكان استثمار البقاع الرملية، فمع كل هذه الوسائل لا يرجى زيادة عدد السكان على ثلث الإحصاءات التي ذكره العرب.» (أي: نحو ٦٢٣٣٠٠٠ نفس) هذا هو رأيه، وأنت ترى أن سكان مصر زاد عددهم اليوم على عشرة ملايين.

ولن تمضي بضع سنين حتى يناهز ١٥ مليوناً، أو ضعفي ما ظنه الدكتور كلوت بك غاية ما يمكن الوصول إليه.

وقياساً على ما تقدم لا نرى مانعاً من بلوغ سكان القطر المصري إلى ٢٠٠٠٠٠٠ نفس، فلا غرابة إذا بلغوا هذا العدد في إبان التمدن الإسلامي، وإنما أنكر أبناء هذا الجيل ذلك استخفافاً برواية العرب، مع أنها مبنية على إحصاءات رسمية واقعية في أزمنة معينة لأجل تعديل الجزية أو الخراج، وليس من قبيل الحدس أو الرجم بالغيب، الإحصاء الأول وقع في زمن الفتح على أيام عمر، ذكر المقريزي أنهم أحصوا الرجال الذين تؤخذ عليهم الجزية بلغ عددهم ٨٠٠٠٠٠ نفس، فإذا اعتبرناهم ثلث الأمة كان مجموعها ٢٤٠٠٠٠ نفس، والإحصاء الثاني في ولاية الوليد بن رفاعة سنة ١١٠هـ، ذكروا أنه خرج ليحصي أهلها وينظر في تعديل الخراج، فأقام في ذلك ستة أشهر بالصعيد حتى بلغ أسوان، ومعه جماعة من الكتاب والأعوان يكفونه ذلك بجد وتشمير، وثلاثة أشهر في الوجه البحري، فأحصوا من القرى عشرة آلاف قرية، في أصغر قرية منها ٥٠٠ جمجمة من الرجال الذين تفرض عليهم الجزية، فتكون جملة ذلك على الأقل ٥٠٠٠٠٠٠ رجل، وعلى متوسط ما يلحق ذلك من النساء والأطفال والشيوخ يكون المجموع نحو ٢٠٠٠٠٠٠ نفس.

(٣-١) مساحة الأرض الزراعية

ويقال نحو ذلك في الأرض الزراعية، فإنهم استخرجوا مساحتها بالإحصاءات الرسمية لأجل تعديل الخراج، منها إحصاء لعبد الله بن الحجاج سنة ١٠٧ هـ فبلغت مساحة الأرض الزراعية مما يركبه النيل ٣٠٠٠٠٠٠ فدان، أي نحو أربعة أضعاف ما بلغت إليه مساحتها اليوم، مع اجتهاد حكومتنا في تعميم وسائل الري ببناء الجسور والخزانات، وما لدينا من آلات الحرث والزراعة، فإذا سبق إلى أذهاننا الاستخفاف برواية العرب حكمنا لأول وهلة وبلا تردد أنها مكذوبة، أما إذا نظرنا فيها نظر الناقد المحقق فلا نعدم الوصول إلى الحقيقة.

فالمرizي وغيره من رواة الإحصاء لم يقولوه عرضاً ولا تركوا في قولهم التباساً، وذكروا في أمكنة أخرى أن الأرض الزراعية نقصت في أيام ابن المدبر، أي بعد قرن ونصف قرن، إلى ٢٤٠٠٠٠ فدان، ولم يكتفوا بذلك المساحة ولكنهم ذكروا عدد العمال الذين كانوا يشتغلون بالحرث والزراعة، واشترطوا عدداً معلوماً منهم، فإذا نقص نقصت غلة الأرض.^٢

ولا يتجلّى لنا وجه الصواب إلا بعد معرفة البقاع التي كانت عامرة في ذلك العصر، فلو كانت حدود مصر الزراعية يومئذ مثل حدودها الآن، أي يحدها من الشرق والغرب الجبلان والصحراء الشرقية والغربية، لحكمنا باستحالة زعمهم؛ لأن مساحة مصر الجغرافية اليوم، وفيها الواحات والبادية الواقعة بين النيل والبحر الأحمر والعرיש، نحو ٤٠٠٠٠ ميل مربع، معظمها صحراء قاحلة، أما الأرض الزراعية فمساحتها ١٧٨٢٦ ميلًا مربعاً، يخرج منها ٤٨٥٠ ميلًا مسطحات النيل والترع والمستنقعات والبحيرات ونحوها، فالباقي ١٢٩٧٦ ميلًا مربعاً، أي نحو ٨٠٠٠٠ فدان، وهي الأرض المزروعة الآن فلا سبيل إلى المزيد.

ولكن يؤخذ مما نقله العرب عن أحوال مصر في إبان تمدنهم، ومما جاء من أخبارها القديمة، أن حدودها الزراعية كانت أوسع من ذلك كثيراً، ذكروا أنها كانت تمتد من الغرب وراء صحراء الإسكندرية إلى برقة^٤، وتتصل من الشرق بحدود السويس إلى العريش، ومعظم المسافة هناك اليوم رمال قاحلة ولكنها كانت تزرع قديماً الزعفران والعصفر وقصب السكر وكان ماؤها غزيراً، ولا تزال آثار العمارة باقية في تلك البقاع، فإن تحت الرمال تربة سوداء زراعية يعرفها من اختبر الأرض بالسبار.

وكان الصعيد عامراً ويمتد من جهته الشرقية إلى البحر الأحمر وأراضي الوجه،^٥ وكانت أطيان الفيوم ممتدة إلى ما وراء العمارة المعروفة مسافة بعيدة، فإذا اعتربنا ما ذكروه من هذا القبيل، وأن النيل كان أكثر فروعاً وأغزر ماء وأوسع فيضاناً مما هو عليه اليوم، هان علينا قبول أقوالهم وإن كنا لا نزال نستغربها لبعدها عن مألفنا، ولعلنا متى رأينا الشركات تعمل على إحياء الصحاري المحطة بوادي النيل شرقاً وغرباً، بنزع ما يغطيها من الرمال وأرواها بالترع المتصلة إليها من النيل أو الآبار الأرتوازية، نرى أقوالهم معقولة، ولا نظن ذلك بعيداً، ورجال الأعمال يدرسون أمثل هذه المشروعات.

(٤-١) مدينة القاهرة

وأشهر مدن القطر المصري في الإسلام الفسطاط والقاهرة، وقد ذكرنا عمارة الفسطاط في الجزء الثاني، وأما القاهرة فقد بناها القائد جوهر في أواسط القرن الرابع للهجرة معقلاً لولاه العز لدين الله الفاطمي وجنده، فظلت في أثناء دولة الفاطميين لم تتسع عمارتها وإنما كانت العمارة للفسطاط والقطائع، وذكر المقريزي أنه كان في هاتين المدينتين — غير القاهرة — ١٠٠٠٠ بيت، في بعضها مائة إنسان ومتنان، إذ يكون البيت مؤلفاً من خمس طبقات أو ست أو سبع،^٦ ومع ذلك فهي في تقديره لا تزيد على ثلث بغداد، فكم تكون عمارة هذه؟ ولما أفضت الدولة إلى السلطان صلاح الدين أذن للناس بسكنى القاهرة، فاتصلت بمدينة الفسطاط، وكانت الفسطاط تسمى «مصر»، فلما صارت مدينة واحدة أطلقوا عليها اسم «مصر والقاهرة»، ثم قالوا «مصر القاهرة»، ولما خربت الفسطاط ظل الاسم للقاهرة وحدها كما هو مشهور.

(٢) الأندلس

لما فتح المسلمون الأندلس كانت عاصمة آهلة، فأقاموا في مدنها وزادوها عمراناً، وأشارت تلك المدن قرطبة وقد زادها المسلمون عظمة بما بنوه في ضواحيها من القصور الكبيرة أشباه المدن الضخمة مما سنذكره.

(١-٢) قرطبة

هي من أعمال الأندلس، واقعة على الوادي الكبير تستقي ماءها منه، وكانت عامرة قبل الإسلام ويظن أنها من بناء القرطجيين ودخلت في حوزة الرومانيين سنة ١٥٢ قبل الميلاد، وتواتت عليها أحوال شتى حتى فتح المسلمون الأندلس واستولوا على طليطلة، ثم جعلوا مقر الإمارة في قرطبة، وزاد الأمويون عمارتها بما أنشأوا من القصور والمساجد والجسور وغيرها، فاتسعت مساحتها، وكان محيط المدينة الأصلية ٣٣٠٠ ذراع عليها سبعة أبواب، فنشأ حولها ٢١ ربيضاً في كل ربع من المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهله، فصار طولها ٢٤ ميلاً وعرضها ستة أميال أو ١٤٤ ميلاً مربعاً (ومساحة لندن ١١٧ ميلاً)، وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين على طول ضفة الوادي المذكور.

وقد أحصوا مباني هذه المدينة وأرباضها في إبان عمرانها إحصاءات مختلفة خلاصتها أن عدد الأبنية فيها كما يأتى:

	عدد
دور الرعایا	١١٣٠٠
دور القصر الكبير	٤٣٠
دور أهل الدولة	٦٣٠٠
المساجد	٢٨٧٣
الحمامات	٩٠٠
	١٢٤٥٠٣

وذكروا أن عدد الأبنية بلغ في أيام ابن أبي عامر ٢٠٠٠٠ دار للرعاية، و٦٠٣٠٠ دار لأهل الدولة، و٨٠٤٥٥ حانوتاً غير الحمامات والخانات،^٧ ولا يخلو هذا التقدير من مبالغة، والأول أقرب إلى الصواب، وإذا اعتبرنا ما يلحقه من الحوانities والخانات زاد المجموع على ضعفي عدد أبنية القاهرة اليوم.

على أنك ترى في هذا التقسيم تمييزاً بين الخاصة والعامة في المساكن، وأن دور الخاصة نحو ٦ في المائة من دور العامة، على حين أن دور الأشراف في رومية لم يزد عددها في إبان عمرانها على ٢٠٠٠ دار،^٨ فعمارة قرطبة بهذا الاعتبار فائقة الحد، وأما سكانها فكانوا يناهزون المليونين، وسيأتي الكلام على قصورها.

(٢-٢) غرناطة

وأما غرناطة فكانوا يسمونها دمشق الأندلس، لكثرة أشجارها وأعنابها وفاكهتها، وتمتاز عن سائر مدائن الأندلس بنهر يتوزع على دورها وأسواقها وحماماتها وأرجائها الداخلة والخارجية وبساتينها، كما يتوزع نهر بردى في دمشق، وبلغت غرناطة قمة مجدها في الدولة النصرية، وأشهر ملوكها ابن الأحمر، في أواسط القرن الثامن للهجرة، وهو الذي بني قصر الحمراء فيها كما بني عبد الرحمن الناصر قصر الزهراء في قرطبة، ونتقدم إلى ذكر القصور والمباني.

(٣) القصور والمباني

قال ابن خلدون: «إن المباني والمصانع في الملة الإسلامية قليلة، بالنسبة إلى قدرتها وبالقياس على من كان من الدول قبلها». ولكننا إذا اعتبرنا ما انتاب المدائن الإسلامية من أسباب الخراب بما توالى عليها من الإحن والفتنة، ونظرنا إلى ما بقي من أبنيتها في مصر والشام وال العراق وفارس والهند والأندلس،رأيناها أكثر مما خيل لمؤرخنا الفيلسوف، ولعل الذي بعثه على هذا القول أن كثيراً من هذه المباني شيد بعد عصره على عهد السلاطين المماليك في مصر، وبعضها لم يتصل علمه به مما في بلاد فارس والهند وغيرها، فقد كان للخلفاء والأمراء، على اختلاف الدول والممالك، عناية في بناء المساجد والمصانع والقصور يتأنقون في هندامها وإتقانها، فضلاً عن المنتزهات والحدائق مما ينفقون فيه الأموال الطائلة، فيجلبون إليه الأغراض من أطراف المعمور، ويتفننون في تزيين مجالسهم بالأشعار وال تصاوير الملوحة بالذهب، وبينها رسوم الحيوانات والأدميين والأزهار وغيرها مما ستراء.

(١-٣) مباني الأمويين في الشام

لم يصلنا من أخبار مباني الأمويين في الشام ما يستحق الذكر إلا «الجامع الأموي»، الذي جدد بناءه الوليد بن عبد الملك بدمشق، وكان قبل الإسلام كنيسة على اسم القديس يوحنا، فلما فتح المسلمون دمشق صالحوا أهلها على أن تقسم الكنيسة مناصفة: المسيحيون يصلون في نصفها الغربي، والمسلمون في النصف الشرقي، فلما أضفت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك أخذ النصفين جميعاً وجدد بناء الجامع، فاستقدم نحو ١٢٠٠ صانع من بلاد الروم، تأقروا في بنائه فغطوا جدرانه كلها بفصوص من الفسيفساء صبغت بأنواع الأصيغة الغربية فمثلت أشجاراً، وفرعت أغصاناً منظومة بالفصوص ببدائع الصنعة الأنثقة، فأنفق في ذلك نحو ١١٢٠٠٠٠ دينار، وكان طول الجامع من الشرق إلى الغرب ٣٠٠ ذراع، وعرضه ٢٠٠ ذراع، قائم على ٦٨ عموداً، وأعظم ما فيه قبة مصنوعة من الرصاص متصلة بالحراب عظيمة الاستدارة والارتفاع، وقد زاره ابن جبير الرحالة الأندلسي في القرن السادس للهجرة، ووصفه وصفاً مطولاً وذكر تاريخه إلى أيامه مما يضيق عنه المقام،^٩ ولا يزال هذا الجامع قائماً إلى الآن، ويعد من أفجر أبنية المسلمين. وبنى الحاج بن يوسف قبة الإسلام في واسط، وكانت من أفحى الأبنية وفيها يقول

الشاعر:

بني قبة الإسلام حتى كأنما أتى الناس من بعد الضلال رسول^{١٠}

(٢-٣) مباني العباسيين بالعراق

أول من شاد الأبنية منهم المنصور، فبني القبة الخضراء ليحول أذهان الناس عن الكعبة إليها، وبني الجامع والحسنون والقصور في بغداد، كقصر الخلد وقصر باب الذهب وغيرهما، وأخذ الخلفاء بعده في تشييد المصانع، واقتدى بهم وزراؤهم وأمراؤهم، فأقاموا قصوراً فخيمة تعرف غالباً بأسماء بانيها، كقصور البرامكة في الشماسية، وقصر ابن الخصيب، وقصر أم حبيب بالجانب الشرقي من بغداد، وقصر بني خلف البصرة، وقصر عيسى بن علي وهو أول قصر بناه الهاشميون في أيام المنصور، وقصر وضاح بناه رجل اسمه وضاح للمهدي العباسي، وقصر الرشيد، وقصر الأمين، وقصر ابن الفرات، وقصر ابن مقلة، غير ما أطلقوا عليه لفظ الدار كدار الشجرة الآتي ذكرها، ودار القرار

وهي قصر زبيدة زوج الرشيد وغير ذلك، وأخذت رغبتهما في بناء القصور تتزايد كلما تقدموا في المدينة وأغرقوا في الترف والرخاء، على أن بعض خلفائهم كانوا يحبون العمارة وينسقونها وأولهم المعتصم بالله، فقد كان كلفاً ببناء فبني سامراً لأنزاكه وأقطعهم فيها القطاع، والمتوكل على الله كان مغرماً بالعمارة، فبذل فيها الأموال الطائلة، فأحدث أساليب من الأبنية لم تكن معروفة قبله، منها النمط الحيري والكمين ذات الأروقة، وبني ثلاثة أبنية تُعرف بالهاروني والجوسق والجعفري، بذل في بنائها جميعاً أكثر من ١٠٠٠٠٠٠ درهم^{١١}، أفق منها على القصر الجعفري أكثر من ٢٠٠٠٠٠ دينار^{١٢}، أو نحو ٤٠٠٠٠٠ درهم، ثم صار تشييد المباني عادة جرى عليها الخلفاء والأغنياء، فضلاً عن المتنزهات، فبني إسماعيل بن علي متزهاً أفق فيه ٥٠٠٠٠٠ درهم^{١٣}.

قصر التاج وقصر الثريا

وكان المعتضد بالله محباً للعمارة أيضاً، فبني قصراً في الجانب الشرقي من بغداد سماه «قصر التاج» لم يتم في أيامه فأتمه ابنه المكتفي، وكان في مكانه قصر بناه جعفر البرمكي ثم سكنه الحسن بن سهل فسمى القصر الحسني، فلما تولى المعتضد سنة ٢٨٩ هـ أضاف إليه ماجاوره، فوسعه وكبره وأدار عليه سوراً واتخذ حوله منازل كثيرة ودوراً، واقتطع من البرية قطعة عملها ميداناً، وأخذ في بناء قصر التاج، فاتفاقاً خروجه إلى آمد، فلما عاد رأى الدخان يرتفع إلى الدار، فكرهه وابتلى على ميلين منه قصراً سماه «قصر الثريا»، طوله ثلاثة فراسخ أفق فيه ٤٠٠٠٠٠ دينار^{١٤}، وصله بالقصر الحسني وابتلى بين القصرين على مسافة ميلين سرداً تمثي فيه جواريه وحرمه وسراريته، وما زال باقياً إلى الغرق الأول الذي صار ببغداد، وفي قصر الثريا يقول ابن المعزن:

<p>فلا زلت فيها باقياً واسع العمر فلا زال معهوماً وبورك من قصر وأورقن بالأثمان والورق الخضر تنقل من وكر لهن إلى وكر كمثل نساء قد تربعن في أزر لتعرض أولاد الرياحين والزهر</p>	<p>سلمت أمير المؤمنين على الدهر حللت الثريا خير دار ومنزل جنان وأشجار تلاقت غصونها ترى الطير في أغصانهن هواتقا وبنيان قصر قد علت شرفاته وأنهار ماء كالسلسل فجرت</p>
---	--

عطایا إله منعم كان عالماً
بأنك أوفى الناس فيهن بالشكر

ولما توفي المعتصم قام ابنه المكتفي سنة ٢٨٩ هـ، فأتم بناء قصر الناج، وكان وجهه مبنياً على خمسة عقود كل عقد على عشرة أساطين في خمسة أدرع.^{١٥}

دار الشجرة

وبنى المقتدر بالله في أول القرن الرابع داراً فسيحة ذات بساتين مونقة عرفت بدار الشجرة، لشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة أمام إيوانها وبين شجر بساتينها، لها ثمانية عشر غصناً من الذهب والفضة لكل غصن منها فروع كثيرة مكللة بأنواع الجوهر على شكل الثمار، وعلى أغصانها أنواع الطيور من الذهب والفضة، إذا مر الهواء عليها أبانت عن عجائب من ضروب الصفير والهدير، وفي جانب الدار من يمين البركة قد ألبسوها أنواع الحرير المدجع، مقلدين بالسيوف وأيديهم المطارد، يتحركون على خط واحد فيظنون الناظر إليهم أن كل واحد منهم يقصد صاحبه.^{١٦}

وفي دولة آل بويه بني معز الدولة قصره المعروف بالدار المعزية، أنفق في بنائه ١٠٠٠٠٠ دينار وموه سقفه بالذهب، ذكروا أنهم لما أرادوا هدمه بذلوا في حك الذهب من سقفه ٨٠٠٠ دينار ولم يبق لهذه القصور أو الدور أثر الآن.

(٣-٣) مباني الأمويين بالأندلس

أما الأندلس فقد بني بها آل مروان قصوراً سارت بذكرها الركبان، ولا يزال بعض آثارها باقية إلى اليوم، وأكثرها في قرطبة وغرناطة؛ فمنها في قرطبة:

القصر الكبير

وهو آية من آيات الزمان، شرع في بنائه عبد الرحمن الداخل في أواسط القرن الثاني للهجرة، وأنمه من جاء بعده وبنوا القصور في داخله، وقد رأيت عند ذكر أبنية قرطبة أن القصر المذكور مؤلف من ٤٣٠ داراً، بينها قصور فخيمة لكل منها اسم خاص، كالكامل والمجد والحاير والروضة والمشوش والبارك والرشيق وقصر السرور والبديع،

وقد غالوا في زخرفها وإتقانها، وأنشأوا فيها البرك والبحيرات والصهاريج والأحواض، جلبوا إليها الماء في قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال، حتى أوصلوه إليها وزرعوه فيها، وفي ساحاتها ونواحيها بواسطة تلك القنوات التي تؤديها إلى المصنع (أي: المنشآت)، هذا إلى صور مختلفة الأشكال من الذهب والإبريز والفضة الخالصة والنحاس الملوه، إلى البحيرات الهائلة والبرك البدعية والصهاريج الغربية في أحواض الرخام الرومية المنقوشة، ينصب فيها الماء من أنابيب من الذهب أو الفضة بصور الحيوانات الكاسرة أو الصور الجميلة على أشكال بد菊花.^{١٧}

مسجد قرطبة

ومن عجائب قرطبة مسجدها الشهير، ذكروا أنه لم يكن في بلاد الإسلام أعظم منه ولا أعجب بناء، وكان في مكانه كنيسة للنصارى شاطرهم عليها المسلمين عند الفتح كما فعلوا بالجامع الأموي في دمشق، ثم أخذوا في توسيعه والزيادة فيه بأنقاض الكنائس على توالي الأجيال، وأعجب ما فيه صومعته أو المئذنة، قالوا: لم يكن في مساجد المسلمين صومعة تعدلها، بنيت بضماء الحجارة بلغ طولها إلى مكان موقف المؤذن ٥٤ ذراعاً، وإلى أعلى الرمانة الأخيرة ٧٣ ذراعاً، وعرضها في كل تربيع ١٨ ذراعاً.

وتدرج الجامع في الاتساع بتوالي التجديد فيه، حتى بلغت مساحته في أيام الخليفة الناصر ٢٢٥ ذراعاً في ٢٠٥ ذراع، وزاد الحكم في طوله مائة ذراع وخمسة ذراع فصار طوله ٣٣٠ ذراعاً، وزاد ابن أبي عامر في عرضه ثمانين ذراعاً فصار ٢٨٥، وأرضه مرصفة بإحدى عشرة بلاطة، الوسطى عرضها ١٦ ذراعاً، وعرض كل واحدة عشرة ذراع، الباقية ١١ ذراعاً، وزاد ابن أبي عامر ثمانين بلاطات عرض كل واحدة عشرة ذراع، وكان سقفه قائماً على ١٢٩٣ سارية من الرخام، وعدد ثرياته ٢٨٠ ثريا، منها ثريات المقصورة من الفضة الخالصة، وكان في وسط الجامع تنور نحاس يحمل ألف مصباح. وكان للجامع تسعه أبواب مصفحة بالنحاس الأصفر، إلا باب المقصورة فإنه من الذهب، وكذلك جدار المحراب وما يليه وقد أجرى فيه الذهب على الفسيفساء، وفي رأس الصومعة ثلاثة تفاصيل، دور كل تفاحة ثلاثة أشبار ونصف، اثنتان من الذهب والإبريز وواحدة من الفضة، وتحت كل تفاحة وفوقها سوسة قد هندست بأبدع صنعة، ورمانة ذهب صغيرة على رأس الزرج، وكان في بيت المبر مصحف الخليفة عثمان، وعليه حلية الذهب مكللة بالدر والياقوت، وفوقه أغشية الديباج، وهو موضوع على كرسى من العود

الرطب بمسامير الذهب، وقد أضاف صاحب نفح الطيب في وصف هذا الجامع وما كان ينفق فيه من الزيت والشمع فليراجع هنالك،^{١٨} وتحول الجامع المذكور بعد دخول قرطبة في حوزة الإفرنج إلى كنيسة، ولا يزال على بنائه الإسلامي وعليه النقوش الشرقية والكتابة العربية.

قصر الزهراء

ومن قصورهم في قرطبة «الزهراء»، بدأ بإنشائها الخليفة الناصر سنة ٣٢٥ هـ على أربعة أميال من المدينة، وأتمها ابنه الحكم فاستغرق البناء أربعين سنة، وهي عبارة عن بلد كبير طوله من الشرق إلى الغرب ٢٧٠٠ ذراع وعرضه ١٥٠٠، وعدد أعمدته أو سوارية ٤٣٠٠ سارية، بعضها حمل إلى قرطبة من روما وإفريقيا وتونس، وبعضاً منها أهداه صاحب القسطنطينية، وفيها الرخام الأبيض والأخضر والوردي والمجزع، وكان في الزهراء مسجد فخم وعدة قصور وحدائق، على نحو ما تقدم في وصف القصر الكبير، وفيها البحيرات تسحب فيها الأسماك بألوانها وأنواعها، وأحواض الرخام المنقوش على أشكال شتى بين مذهب وغير مذهب، في جملتها حوض منقوش بتماثيل الإنسان، جيء به من القسطنطينية ونصبه الناصر في بيت المnam بالجلس الشرقي المعروف بالمؤنس، وجعل عليه ١٢ تمثلاً من الذهب الأحمر، مرصعة بالدر النفيسي الغالي مما صنع بدار الصناعة في قرطبة، بصورة أسد بجانبه غزال إلى جانبه تمساح يقابلها ثعبان وعقاب وفيل، وفي المجنبيين حمامه وشاهين وطاوس ودجاجة وديك وحداة ونسر، وكلها من ذهب مرصع بالجوهر يجري الماء من أفواهها.^{١٩}

ووكل الناصر النظر في بناء هذه القصور إلى ابنه الحكم بعده، وذكروا أن الناصر كان ينفق عليها ثلث جبایة الدولة، وكانت ٦٠٠٠٠٠ دینار فینفق منها ٢٠٠٠٠٠ دینار كل سنة على ذلك البناء، وقد تقدم أنهم واصلوا العمل فيه ٤٠ سنة، فلو فرضنا أنهم كانوا ينفقون هذا القدر في نصف هذه المدة فقط لبلغ مجموع ما أنفق على الزهراء أكثر من ٥٠٠٠٠٠ دینار، ولكن يظهر أن الإنفاق السنوي لم يكن يبلغ ثلث جبایة المملكة إلا في بضع سنين، وأما في سائر مدة البناء فكانت النفقة أقل من ذلك كثيراً.

وقد ورد في مكان آخر أن الناصر كان ينفق على بنائها في أيامه ٣٠٠٠٠ دینار في السنة، فإذا حسبنا ما أنفقه ابنه الحكم فيما بقي من الأربعين سنة على هذه النسبة مع ما أنفقه هو بالإضافة إلى المقدار السنوي المذكور؛ كان مجموع ما دخل في بناء هذه

المدينة نحو ٢٠٠٠٠٠٠ دينار على الأقل، ولا غرابة في ذلك؛ لأننا إذا أعدنا النظر في تفاصيلها رأينا فيها ما يفوق الحصر من المرصعات والمذهبات، وقد أدخلوا فيها شيئاً كثيراً من الذهب حتى جعلوا بعض قرميدتها منه، وقد كان يتصرف في بنائهما من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل و١٥٠٠ دابة، وأغرب من كل ذلك أن الناصر إنما عمد إلى بناء الزهراء مرضاه لحظية له كان اسمها «زهراء» طلبت إليه أن يبني مدينة باسمها وتكون خاصة بها.^{٢٠}

الزاهرة

واقتدى بال الخليفة الناصر المنصور بن أبي عامر، فابتني سنة ٣٦٨ هـ قصرًا، لإقامته سماه «الزاهرة» ليكون معقلاً له يحميه من أعدائه، فأقامه في طرف البلد على نهر قرطبة الأعظم، وحشد له الصناع والفعلة وبالغ في رفع أسواره وجعل فيه أبرية كثيرة من جملتها أهرا ودواوين، وأقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقاداته، فابتنت الدور والقصور وغرسوا الحدائق، فقامت الأسواق وتنافس الناس في النزول في أكناها تقرباً من صاحب الدولة، حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة، واتصلت بهما الزهراء من الجهة الأخرى، فأصبح الناس يمشون بين هذه المدن عشرة أميال على ضوء السرج.

قنطرة قرطبة

ويجدر بنا في هذا المقام الإشارة إلى القنطرة الفخيمة التي أقامها المسلمون على نهر قرطبة، وكانت مبنية قبل الإسلام ثم سقطت فأعاد المسلمون بناءها على يد عبد الرحمن الغافقي، وطولها ٨٠٠ ذراع، وعرضها عشرون ذراعاً، وارتفاعها ٦٠ ذراعاً، وعدد حنایاتها ١٨ حنية، وأبراجها ١٩ برجاً.^{٢١}

قصر الحمراء وأمثاله

الحمراء قصر شهير في غرناطة لا يزال شكله محفوظاً إلى الآن يقصده السياح من كل مكان، بناء ابن الأحمر في أواسط القرن الثامن للهجرة كما تقدم في أرض مساحتها ٣٥ فدانًا على مترتفع فسيح، ويقال إنها سميت «الحمراء» نسبة إلى لون قرميدتها، وفي هذا

القصر كانت بركة السباع، وفي وسطها تماثيل أسود تُقذف المياه من أفواهها على شكل جميل.

وبنى المنصور بن الأعلى قصراً فخيمًا في بجایة، أنشأ فيه بركة على حافاتها أسود يجري الماء من أفواهها، وعلى البركة أشجار من ذهب وفضة ترمي فروعها في الماء، وعلى أغصانها أطياف من أشكال شتى بألوان بدعة وصنع عجيب، على مثال الشجرة التي ذكرنا أنها نصب في قصر المقتدر العباسي عند كلامنا عن أبنية العباسيين، وقد نظم محمد بن حمديس الشاعر الأندلسي قصيدة يصف بها بركة هذا القصر وخروج الماء من أفواه الأسود قال منها:

تركت خرير الماء فيه زئيرًا	وضراغم سكنت عرين رياسة
وأذاب في أفواهها البلورا	فكأنما غشي النضار جسومها
في النفس لو وجدت هناك مثيراً	أسد كأن سكونها متحرك
أقعت على أدبارها لثثروا	وتذكرت فتكاتها فكأنما
ناراً وألسنها اللواحس نوراً	وتخالها والشمس تجلو لونها
ذابت بلا نار فعدن غديرًا	فكأنما سلت سيف جداول
درعًا فقدر سردها تقديرًا ^{٢٢}	وكأنما نسج النسيم لمائه

وقس على ذلك قصر المأمون بن ذي النون الأندلسي، فإنه أنفق في بنائه بيوت الأموال، وكان من عجائب أنه صنع فيه بركة ماء كأنها بحيرة، وبني في وسطها قبة من زجاج وساق الماء من تحت الأرض حتى علا فوق رأس القبة بتدبیر أحکمه المهندسون، فكان الماء ينزل من أعلى القبة وحوليتها محيطاً بها متصلًا بعضه ببعض، فكانت القبة في غلالة من ماء سكباً لا يفتر والمأمون قاعد فيها.^{٢٣}

(٤-٣) مباني مصر

مباني آل طولون

أنشأ بنو طولون في مصر أبنيه أشهرها الجامع الذي بناه أحمد بن طولون، لا تزال آثاره إلى الآن بالقاهرة، والقصر الذي بناه في القطائع وجعل له ميداناً كبيراً، ولما توفي أحمد زاد فيه ابنه خمارويه وجعل الميدان كله بستاناً زرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر،

ونقل إليه الشجر اللطيف الذي ينال ثمرة القائم (أي الرجل الواقف) ومنه ما يتناوله الجالس من أصناف خيار النخل، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب وأنواع الورد، وزرع فيه الزعفران وكسا أجسام النخل نحاساً مذهبًا حسن الصنعة، وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزارات الرصاص وأجرى فيها الماء المدبب، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فتنحدر إلى فساق معمولة، ويفيض منها الماء إلى مجار تسمى سائر البستان، وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعهد بها البستانى بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة، وزرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر الجنوى العجيب، وأهدى إليه من خراسان وغيرها كل أصل عجيب، وطعموا له شجر المشمش باللوز وأشباه ذلك من كل ما يستشرف ويستحسن، وبنى فيه برجاً من خشب الساج المذوق بالنقر النافذ ليقوم مقام الأقباص، وزوجه بأصناف الإصباغ وبلط أرضه وجعل في تضاعيفه أنهاراً لطاهاً جدًا ولها يجري الماء مدبراً من السواقي التي تدور على الآبار العذبة ويُسقي منها الأشجار وغيرها، وسرح في هذا البرج من أصناف القماري والدبابي والنونيات وكل طائر جميل الشكل حسن الصوت، وكانت الطير تشرب وتغتسل من تلك الأنهر الجارية في البرج، وجعل فيه أوكياراً في قواديس لطيفة ممكنة في جوف الحيطان لتفرخ الطيور فيها، وعارض لها فيه عيدانًا ممكنة في جوانبه لتقف عليها إذا طايرت حتى يجاوب بعضها بعضاً بالصياح، وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواويش ودجاج الحبش ونحوها شيئاً كثيراً.

و عمل في داره مجلساً برواقه سماه بيت الذهب، طلى حيطانه كلها بالذهب المحلي باللازورد المعمول في أحسن نقش وأظرف تفصيل، وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صوراً في حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظاياه والمعنىات اللاتي تغيرت بأحسن تصوير وأبهج تزييق، وجعل على رءوسهن الأكاليل من الذهب الخالص الإبريز الرزين، والكوادن المرصعة بأصناف الجوادر وفي آذانها الأجراس الثقال الوزن المحكمة الصنعة، وهي مسمرة في الحيطان ولونت أجسامها أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة، فكان هذا البيت من أغرب مباني الدنيا.

و جعل بين يدي هذا البناء فسقية ملأها زئبقاً، وذلك أنه شكا طبيبه كثرة السهر فأشار عليه بالتدليل فأنف من ذلك وقال: «لا أقدر على وضع يد أحد على». فقال له: «تأمر بعمل بركة من زئبق». فعمل بركة يقال إنها خمسون ذراعاً طولاً في خمسين ذراعاً عرضاً وملأها من الزئبق فأنفق في ذلك أموالاً عظيمة، وجعل في أركان البركة سكاكاً من

الفضة الخالصة، وجعل في السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة في حلق من الفضة، وعمل فرشاً من أدم (أي: جلد) يحشى بالريح حتى يتنفس فیحکم حينئذ شده ويُلْقى على تلك البركة وتتشد زنانير الحرير التي في حلقة الفضة بسک الفضة، وینام على هذا الفرش فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه، وكانت هذه البركة من أعظم ما سمع به من الهمم الملكية يُرى لها في الليالي المقرمة منظر بهيج إذا تألف نور القمر بنور الزئبق.^{٢٤}

مباني الفاطميين

ولما أضفى الأمر إلى الفاطميين بنوا في القاهرة الجامع الأزهر، وهو عامر إلى اليوم، وقصوراً أشهرها القصران الشرقي والغربي، وأنفقوا على الأخير منها ٢٠٠٠٠٠ دينار،^{٣٥} فقس على ذلك ما أنفقوه فيسائر القصور والدور، كدار الفطرة ودار الديباج وغيرهما، ولما استبحر عمرانهم تفتقروا في بناء المقاصير والمناظر على ضفة الخليج وشاطئ النيل، كمنظرة الجامع الأزهر، ومنظرة اللؤلؤة على الخليج، ومنظرة الغزالة بجانبها، ومنظرة السكرة، ومنظرة الدكة، ومنظرة المقس، ومنظرة التاج، ومنظرة باب الفتوح، ومنظرة البعل، ومنظرة دار الملك، غير المتزهات العظيمة والقصور الفخيمة في الجزيرة والروضة، كالقصر الذي بناه الأمر بأحكام الله لمحبوبته البدوية وسماه الهودج.

وكانوا يتأنقون في زخرفة تلك المناظر والقصور تأنقاً عظيماً يدل على مبلغ حضارتهم وتفننهم، فمنظرة بركة الحبش كانت مصنوعة من خشب مدهون صور فيها الشعراً، كل شاعر وبليه وعند رأس الشاعر أبيات نظمها في ذكر المنظرة، وبجانب كل صورة رف لطيف مذهب، فإذا دخل الخليفة وقرأ الأشعار أمر أن يحط على كل رف صرة مختومة فيها خمسون ديناراً، فيدخل الشاعر ويأخذ صرتة.^{٢٦}

مباني الأيوبيين والمماليك

ولما انتقلت الدولة إلى الأكراد كان أعظم آثارهم البنائية قلعة القاهرة، بناها السلطان صلاح الدين ليغتصب بها من الشيعة، ولا تزال قائمة إلى اليوم.

ومعظم ما في مصر الآن من الآثار البنائية إنما هو من أعمال السلاطين المماليك ولا سيما المساجد، كجامع السلطان حسن وجامع المؤيد وقايتباي وقلاؤون وغيرها، ومن

آثارهم قبور الخلفاء خارج القاهرة فإنها لهم، وإن نسبت إلى الخلفاء بالاسم، غير ما اندر من قصورهم، وكانوا يقلدون الفاطميين في زخرفها كالرفرف الذي بناه الأشرف خليل بن قلاوون عاليًا يشرف على الجيزة كلها، وصور فيه أمراء الدولة وخواصها وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها وكان السلطان يجلس فيه، وقصر يليغا، بناه الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٨هـ، لسكنى الأمير يليغا حيث مدرسة السلطان حسن تجاه القلعة، وغيرها.

هوامش

(١) فصلنا ذلك بمقالات في «النهضة المالية المصرية» في السنين ١٣ و ١٤ من الهلال.

.Aperçu sur l'Egypte. 1, 265 (٢)

(٣) المقرizi ج ١٠٠ .

(٤) المقرizi ج ١٨٢ .

(٥) المقرizi ج ١٨٩ .

(٦) المقرizi ج ٢٤١ .

(٧) نفح الطيب ج ٢٥٦ .

Gibbon, 1829 (٨)

(٩) رحلة ابن جبير ج ٢٦٣٠ .

(١٠) الكامل للمبرد ج ٢٨٧ .

(١١) المسعودي ج ٢٧٩ .

(١٢) ابن الأثير ج ٣٣ .

(١٣) ابن الأثير ج ٢٨ .

(١٤) المسعودي ج ٣٢٨ .

(١٥) معجم ياقوت ج ٩٢٤ و ٨٠٦ .

(١٦) معجم ياقوت ج ٥٢٠ .

(١٧) نفح الطيب ج ٢١٩ .

(١٨) نفح الطيب ج ٢٦٠ .

(١٩) نفح الطيب ج ٢٦٧ و ٢٤٨ ، وابن خلكان ج ٢٩ .

- (٢٠) نفح الطيب ٢٤٨ ج ١.
- (٢١) نفح الطيب ٢٢٦ ج ١.
- (٢٢) نفح الطيب ٢٣٣ ج ١.
- (٢٣) سراج الملوك ٥٠.
- (٢٤) المقرizi ٣١٦ ج ١.
- (٢٥) المقرizi ٤٥٧ ج ١.
- (٢٦) المقرizi ٤٨٦ ج ١.

الثروة والرخاء ونتائجها

واشتغال الخلفاء والأمراء بإنشاء المدن وبناء القصور والمتزهات إنما هو من ثمار الثروة وتكاثر النقود في بيوت الأموال، فتنتقل إلى رجال الدولة وغيرهم على ما بناه في نظام الاجتماع، ولذلك كان الخليفة أكثر الناس مالاً؛ لأنه قابض على بيت المال، يليه الوزراء والكتاب والعمال فبني هاشم فالأتباع والتجار وغيرهم، وإليك أمثلة من ذلك.

(١) ثروة الخلفاء وأهاليهم

لما كان الخلفاء يتولون شؤون الدولة بأيديهم كانوا أكثر الناس ثروة، فلما عهدوا بها إلى الوزراء تحولت الثروة إليهم، وأصبح الخلفاء أحياناً مثل سائر الفقراء^١، والأصل في ثروة بيت المال أن تكون للدولة تُنفق في مصالحها، وال الخليفة بيت مال خاص به، ولكن الخلفاء تصرفوا في أموال الدولة أولاً لاعتبارهم إنفاقها مساعداً على تأييدها، ثم أنفقوها في الجوائز والهدايا مثل هذه الغاية، وتدرجوا إلى بذلها في ملذاتهم وسائل أسباب تنعمهم، وكان يبقى مع ذلك في بيوت الأموال شيء كثير، وقد بينا في الجزء الثاني من هذا الكتاب مقدار ما بقي منها في خزائن الخلفاء الأولين من بنى العباس: المنصور والمهدى والمعتصم والمستعين والمكتفي وغيرهم، وما صار إليهم من الضياع الكثيرة، وذكرنا ما بلغت إليه ثروة أمهات الخلفاء ولا سيما الخيزران أم الرشيد وقبيلة أم المعز وغيرها، فلا حاجة إلى التكرار، وإنما نأتي ببعض التفاصيل على سبيل المثال، ذكروا أن المكتفي خلف ١٠٠٠٠٠ دينار هذا تفصيلها:^٢

دينار
٢٠٠٠٠٠٠ من العين والورق (أي: الفضة) والأواني المعمولة.
٢٠٠٠٠٠ من الفرش.
٢٠٠٠٠٠ من الكراع والسلاح والغلمان.
٢٠٠٠٠٠ من الضياع والعقارات والأملاك.
٢٠٠٠٠٠ من الجوهر والطيب وما يجري مجرياً.

(٢) ثروة رجال الدولة وغيرهم

ونذكرنا في الجزء الثاني أيضاً سبب ثروة الوزراء ومقادير الأموال التي حصلها الحسن بن الفرات والمادرائي وابن كلس والأفضل وابن شهيد الأندلسي وإليك أمثلة أخرى: أول من أثرى من الوزراء البرامكة في عهد الرشيد، فكثرت ضياعهم (الأبعديات والجفالك)، حتى بلغت غلة يحيى وابنه جعفر فقط ٢٠٠٠٠٠٠ دينار في السنة، ولما نكبوا وقبضت أموالهم بلغ مقدار ما قبض منها ٣٠٦٧٦٠٠ دينار غير الضياع والدور والرياش،^٣ ويشبه الوزراء ببغداد الكتاب بمصر، وقد أثرى منهم جماعة كبيرة كالمادرائي، في أواسط القرن الثالث للهجرة، فملك أحدهم محمد بن علي المادرائي ما قيمته ٣٠٠٠٠ دينار من الضياع بالشام ومصر والأمتعة مع كثرة ما كانوا ينفقونه على الناس من الرواتب، وكانت غلته ٤٠٠٠٠٤ دينار في السنة،^٤ وهو مع ذلك لا يعد شيئاً بالنظر إلى البرامكة، ومثلهم آل المغربي وأل الكتامي بمصر أيضاً.

أما العمال والأمراء فقد كانوا يحشدون الأموال الكثيرة، ولا سيما المفوضين منهم، ويسهل ذلك عليهم لإطلاق أيديهم في مصادر الجباية فيجمعون ما شاءوا وكيف شاءوا، وقد أثروا وكثرت أموالهم من أيامبني أمية قبل زمن الوزراء، فخلف عمرو بن العاص سبعين بهاراً من الدنانير – والبهار أربستان بالمصري – ذهباً،^٥ وبلغت غلة خالد القسري ١٣٠٠٠٠ درهم،^٦ وصاروا في عهدبني العباس أوفر ثروة، ولا سيما بعد أن طمعوا في الاستقلال، فخلف يعقوب بن الليث الصفار في ماله ٥٠٠٠٠٠٤ درهم و ٤٠٠٠٠ دينار،^٧ وقس على ذلك أموال السلاطين المالكين بمصر ورجالهم، وكانت مخلفاتهم من الجواهر واللحبي تقدر بالأربطال والقناطير والصناديق، مثل ذلك ما خلفه الأمير

سيف الدين تنكر التستري منها ١٩ رطلاً من الزمرد والياقوت، وستة صناديق جواهر، وفضوص الماس، و١٢٥٠ حبة لؤلؤ كبيرة مدورة مما زنته درهم إلى مثقال، و٢٤٠٠٠ مثقال ذهب، و١٠٠٠٠ درهم فضة، وأربعة قناطير مصرية من المصاغ والعقود ونحوها كالحلق والأساور، وستة قناطير فضيات، و١٢٠٠٠ دينار، فقس عليه ثروة الخلفاء الفاطميين والسلطانين والممالئ وغيرهم من سلاطين المسلمين وملوكهم.

غير ثروة الحواشى والأتباع، فمن أثرى بالصناعة والأدب أو التجارة، فقد ذكرنا ثروة بعض التجار فيما تقدم، فاعتبر ذلك في سواهم من الأطباء والمغنين والشعراء، فإن إبراهيم الموصلي مغني الرشيد توفي عن ٢٤٠٠٠ درهم،^٨ وذكرنا في باب الرواتب من الجزء الثاني ما كان يقبضه جبرايل بن بختيشوع طبيبه.

(٣) نتائج الثروة

من قواعد العمران إذا تكاثرت الأموال في أيدي الناس أن يتتوسعوا في الإنفاق ويتنعموا بمعيщتهم، فيتأنقوا في الطعام والشراب والسماع وغيرها من المذادات الجسدية، ويتنعموا بالألبسة الثمينة والرياش الفاخر، ثم يطلبوا المذادات المعنوية من التفاخر باقتناه المجوهرات والعقارات، ويلتمسوا سعة الشهرة فيقربوا من يضمن لهم ذلك كالشعراء ورواة الأخبار في ذلك العهد، كما يفعل بعض أغنياء زماننا بالتقارب من أرباب الصحافة، ونقسم الكلام في هذا الباب إلى فصول:

(١-٣) التأنيق في الطعام

قد رأيت في كلامنا عن أطعمة العرب أنها كانت ساذجة قليلة، ثم تعددت بعد الاختلاط بالأعاجم ولا سيما الفرس، والعرب قلدوا الفرس في أكثر أسباب الحضارة، فضلاً عن نظام الحكومة، فكانوا إذا أحوجهم الاحتفال بعيد أو عرس أو ختان سألوا عما يفعله الفرس في مثله وقلدوهم فيه، هموا بذلك من عهد الأمويين، وكان الصحابة قبلهم يتحاشون التنعم اقتداء بخلفائهم الراشدين مع غلبة البداءة على طباعهم، فأبوا موسى الأشعري كان يتجاف عن آكل الدجاج؛ لأن العرب لم يعهدوا ذلك، وكانوا يتتجنبون الإكثار من أكل اللحوم ويعتقدون أضرارها، نحو ما يعتقده النباتيون اليوم تمثلاً بما قاله عمر بن الخطاب: «مدمن اللحم كدمن الخمر». فلما حكم الأمويون ومالوا إلى

التنعم كان الفرس أحسن مثال لهم، وأراد غير واحد من أمراء العراق تقليدهم في ذلك، ولكن البداوة كانت تتغلب عليهم فيرجعون، ذكروا أن الحاج بن يوسف أولم لختان أحد أولاده، فاستحضر بعض الدهاقين ليسأله عن ولائم الفرس وقال: «أخبرني بأعظم صنيع شهدته». فقال: «شهدت أيها الأمير بعض مرازبة كسرى وقد صنع لأهل فارس صنيعاً أحضر فيه صحائف الذهب على أخونة الفضة أربعاً على كل واحد، وتحمله أربع وصائف ويجلس عليه أربعة من الناس، فإذا أطعمنوا أتبعوا أربعتهم المائدة بصحافتها ووصائفها». فلما سمع الحاج ذلك أكبه وغلبت عليه البداوة فقال: «يا غلام انحر الجزر وأطعم الناس^٩...»

على أنهم ما لبثوا أن رضخوا لتيار الترف وتكييفوا لموافقة البيئة التي تحف بهم، فبعد أن كانوا يحسبون الكافور ملحًا والأرز طعاماً مسموماً والخبز المرقق كاغداً، وبعد أن أكلوا العلهز والخنافس والعقارب وعجنوا الحنطة بنخالتها،^{١٠} فاقوا الفرس والروم في التأنق والتنعم، فتقننوا في معالجة اللحوم واصطناع التوابل المنبهة لشهوة الطعام التماساً للمزيد من اللذة، فكان الخلفاء والملوك منبني هاشم إذا جلسوا إلى الطعام يقف الأطباء بين أيديهم ومعهم البراني بالجوارشنات الهاضمة المسخنة الطابخة المقوية للحرارة الغريزية في الشتاء على اصطلاحهم في ذلك العصر، ويقفون في الصيف ومعهم الأشربة الباردة والجوارشنات الموافقة لذلك الفصل،^{١١} واقتدى بهم سائر الأمراء وأهل الدولة فكانوا يستشieren الأطباء ويستعينون بهم في حفظ صحتهم، حتى في أثناء الطعام وهم على المائدة، وكان سيف الدولة إذا حضر الطعام جلس معه على المائدة ٢٤ طبيباً أرزاهم جارية.

وغالى الخلفاء في استحضار ما اشتهر بطبيه من ألوان اللحوم والطيور والفاكهه ولو بعد مكانه، فيحملونه على البريد ينفقون في ذلك الأموال الكثيرة،^{١٢} وكانوا يربون الطيور الداجنة على أطعمة مغذية يتهمون أنها تزيد في لذة طعمها أو نفعها أو تسهل هضمها، فكانوا يعلقون الفراريج الجوز المقشر ويسوقونها اللبن الحليب،^{١٣} وتقنن الطهاة في اصطناع الأطعمة التي يظنون فيها الغذاء الكثير أو النفع الصحي، وربما فعل بعضهم ذلك مغلاة في الاحتفاء، كما فعل إبراهيم بن المهدى في زيارة زاره فيها الرشيد فاصطنع له أطعمة بينها جام سمك مقطع فاستصغر قطعه، فسأل الرشيد عن ذلك فقال: «يا أمير المؤمنين هذه ألسنة السمك». وقدرت نفقة ما في ذلك الجام بألف درهم،^{١٤} وقس عليه تفنتهم في اصطناع الفالوذج بدهن الفستق والمخ المعقود بالسكر والطبرز والعسل.

فاتسعت مطابخ الخلفاء والأمراء لتعدد ألوان الأطعمة والتتوسيع في النفقه عليها، حتى صار لكل صنف منها خدم عليهم رئيس، فكان عندهم لتربية الطيور إدارة قائمة بذاتها عليها رئيس، وبلغت علوفة البط وحدها على أيام المقتدر العباسى ٣٠ قفيزاً من الشعير كل شهر^{١٥} فاعتبر كم يحتاج إليه أحدهم إذا أراد نقل مطبخه من الدواب لحمله، ذكروا أن عمرو بن الليث الصفار كان مطبخه يحمل على ٦٠٠ جمل^{١٦} وكان لل الخليفة المقتفي العباسى ثمانون جملًا تحمل الماء من دجلة لشرب عياله^{١٧} وأماماً مقدار المطبوخ من كل طعام فلا قياس له، على أنهم كانوا يجعلونه أضعاف ما يحتاجون إليه مخافة أن يطرقهم أضياف، فكانت الأطعمة تفيض بمقادير كبيرة يحملها الخدم ويبيعونها ويرتفقون بأثمانها.^{١٨}

فنتج من الانغماس في الأكل والتفنن في التشويف إليه كثير من علل القناة الهضمية، توالت على أهل الترف في ذلك العهد كالقولنج وتلبة المعدة والدووزنطاريا، وغيرها من عوائق النهم في اللحوم كالنقرس والروماتزم ونحوهما، وتسليط السويداء على أمرزجتهم، وتولتهم حدة المزاج فجرهم الغضب إلى سرعة الفتك والقتل من تغلب السويداء، كما يتضح من مراجعة أخبارهم، وعلة ذلك في الغالب فساد الهضم، واشتهر من الخلفاء والأمراء غير واحد من الأكلة، منهم في أيامبني أمية معاوية بن أبي سفيان وعبد الله بن زياد والحجاج بن يوسف وسلمان بن عبد الملك، واشتهر من بنى العباس محمد الأمين.^{١٩}

(٢-٣) البذخ في الألبسة

كان المسلمون في صدر الإسلام يتخون الخشونة في العيش والتعفف في المطعم والملبس، فكان الخليفة من الراشدين يمشي في الأسواق وعليه القميص الخلق المرقوع إلى نصف ساقه، أو ثوب من كرباس غليظ وفي رجله نعلان من ليف وحمائل سيفه من ليف وفي يده درة يستوفى الحد بها^{٢٠} وكان عمالهم في مثل حالهم، إذا وفد أحدهم على الخليفة ليس جبة صوف وتعمم بعمامة دكناه واحتذى خفين ودخل عليه^{٢١} وأول من اتخذ زي الملوك من أمراء المسلمين معاوية منذ كان أميراً في الشام، وقدم عليه عمر بن الخطاب في أثناء ذلك، فلما رأه في أبهة الملك أنكرها عليه، وقال له: «أكسروية يا معاوية؟»^{٢٢}

ثم تحضروا وكثرت الأموال بين أيديهم وحالوا أهل الترف من الأعاجم، فاضطروا بطبيعة المدنية إلى التبسيط في العيش والتنعم باللباس، وأحب الأمويون الوشي كما تقدم، وأكثراهم رغبة في لبسه هشام بن عبد الملك، فاجتمع عنده ١٢٠٠ قميص وشي، و ١٠٠٠ تكة حرير، وكانت كسوته إذا حج تُحمل على ٧٠٠ جمل،^{٢٣} وفي أيامهم تسابق الصناع إلى إجاده الوشي، وزاد المسلمون بذخاً في أيام بنى العباس، ورغب أهل التجارة في حمل أصناف النسوجات الحريرية والصوفية بين موشى ومطرز ومحوك بالذهب أو الفضة ومرصع بالحجارة الكريمة على اختلاف البلاد التي يصنع فيها، على نحو ما بيناه في كلامنا عما يحمل من أصناف التجارة إلى بغداد.

ومن أهم النسوجات الثمينة الخز، وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ومن وبر الخرز وهو ذكر الأرانب،^٤ والأبريسم حرير خالص، والديجاج نسيج حرير موشى بالقصب بأشكال الحيوانات ونحوها، والبز نسيجقطني ثمين وغير ذلك من أصناف الحرير والكتان والأوداري، والملحم والمعلم والمنير ومنسوجات الشعر أو الوبر أو الصوف، وما يلحق ذلك من أنواع السمور والقامق وغيرها؛ يصنعون منها الأقبية والدراريع والطيات والجبب والعمائم والأبراد والغلائل والملاحف والمازر والسراويات والشاشيات والتتك وغيرها.

وكان الصناع يتبارون في إتقان هذه الصناعات ويغاللون في ترفيعها، لما يلاقونه من البذل في ابتعادها لتتوفر الثروة بين أيدي الناس ولا سيما الخليفة وأهل دولته، فكان هؤلاء يتهافتون على اقتناه الألبسة، لا يبالون كم يكون ثمنها حتى بلغت قيمة العمامة من الدبيقي خمسمائة دينار، وهم مع ذلك يكترون من اقتناها، وربما لبس الواحد ^٩ أقبية كل قباء بلون خاص للمفاخرة في البذخ، وقد تزيد على أضعاف حاجتهم إليها فيجتمع عند أحدهم عشرات أو مئات أو ألف من القطعة الواحدة ولا سيما الخلفاء، مثاله ما خلفه المكتفي بالله من الألبسة وهو:

عدد

٤٠٠٠٠٠ من الثياب المقصورة سوى الخامات.

٦٣٠٠ من الأثواب الخراسانية المروية.

٨٠٠٠ من الملاءات.

عدد	
١٣٠٠	من العمائم المروية.
١٨٠٠	من الحلل الملوشاة اليمانية وغيرها منسوجة بالذهب.
١٨٠٠	من البطائن التي تحمل من كرمان في أنابيب القصب.
١٨٠٠	من الأبسطة الأرمنية.

وتوفي ذو اليمينين وفي خزانته ١٣٠٠ سروال لم يستعملها، ووجدوا في كسوة بختيشوع الطبيب ٤٠٠ سروال ديبقي، ولما قتل برجوان خادم الوزير بمصر وجدوا في تركته ألف سروال ديبقي بألف تكة حرير.

وغالوا في البذخ حتىكسوا دوابهم المنسوجات الحريرية الملوشة، وكان الفاطميون يلبسون الفيلة أجلة في الخسراني الأحمر المذهب، وكان في القاهرة دار يصنع فيها الديباج ونحوه، وكان عند الفاطميين خزانة للثياب يسمونها دار الكسوة يصطنعون فيها جميع أنواع الثياب والبز، ويكسون بها الناس على اختلاف أصنافهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف، وقد فصل المقرizi ما تحويه تلك الدار من الألوان والأشكال،^{٢٥} ولما جهز خمارويه ابنته قطر الندى إلى الخليفة المعتصم العباسي كان من جملة الجهاز ألف تكة ثمن الواحدة عشرة دنانير،^{٢٦} وقس عليه سائر الملابس.

(٣-٣) الأثاث والرياش والمجوهرات

كان الخلفاء الراشدون يجلسون على الأرض مثل سائر الناس وكذلك عمالهم، فكان عمرو بن العاص بمصر يجلس في قصره على الأرض مع العرب، ويأتيه المقوقس ومعه سرير الذهب محمول على الأيدي لجلوسه شأن الملوك يومئذ، فيجلس عليه وهو على ما تقدم، وفاء له بما اعتقاد معهم من الذمة واطرافاً لأبهة الملك، فما لبث المسلمون أن تحضروا وأثروا حتى اتخذوا الأسرة من الذهب والجاج وفاقوا الأكاسرة والقياصرة قبلهم، وأول من اتخذ السرير في الإسلام معاوية بن أبي سفيان، ويريدون بالسرير المقدد أو الكرسي الكبير، ولم يقعد معاوية على ذلك إلا بعد استئذان المسلمين، واعتذر بثقل جسمه فزعم أنه بدین، فأذنوا له فاتخذه واقتدى به من جاء بعده من الخلفاء.^{٢٧}

الأثاث والرياش عند الفرس

لما خرج المسلمون للفتح في زمن الراشدين كان أكثر ما لقوه من الفرش الفاخر والمجوهرات الثمينة في فارس وعند فتح المدائن، فدهشوا منه ولم يعرفوا قيمته، ذكروا بدويًّا ظفر يوم المائة بحجر من الياقوت كبير يساوي مبلغًا عظيماً فلم يدر قيمته، فاشتراه منه بعضهم بآلف درهم، ثم علم أنه كان يساوي أضعاف ذلك المبلغ فلame أصحابه على تفريطيه به فقال: «لو عرفت عدًّا أكثر من الآلف لطلبه».٢٨

وكان في جملة ما عثروا عليه في المدائن كثير من الآنية والحلية الذهب المرصعة بالجوهر، وفيها تاج كسرى نفسه وألبسة من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر، وظفر آخرون بسفطين في أحدهما فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى ثغره ولباته الياقوت والزمرد المنظوم على الفضة وفارس من فضة مكل بالجوهر، وفي الآخر ناقة من فضة عليها شليل من ذهب مكل بالجوهر، ووقع لهم بساط يسمونه القطيف طوله ٦٠ ذراعاً في ٦٠ مطرز بالصور وعليه فصوص كالأنهار أرضها مذهبة، وخلال ذلك فصوص كالدر، وفي حافته كالأرض المزروعة والأرض المبلقة بالنبات في الربيع، والورق من الحرير على قضبان الذهب والفضة وثمرة الجوهر، وحمل هذا البساط إلى عمر في المدينة فقطعه وفرقه في أصحابه مثل سائر الغنائم.٢٩

وكان عمر إذا جاءته الغنائم من العراق وفيها الجوهر بكى لما كان يخافه من مصير المسلمين إلى الترف المؤذن بالانحدار، وكذلك أبو بكر الصديق، وله السبق في نصرة الإسلام والفضل في تأييده، فلما حضرته الوفاة وبخ المهاجرين وخوفهم وقال: «والله لتخذن نضاد الديباج وستور الحرير». والنبي ﷺ قبلهما نهى عن لبس الحرير واتخاذ آنية الذهب،٣٠ فلم ينفعهم ذلك كله، فما كادوا يأخذون بأطراف الحضارة حتى انغمسو في أسباب التنعم بالفرش الوثير والرياش الفاخر.

بدأ بذلك الأمويون لما تقدم من رغبتهم في الدنيا وتحويلهم الخلافة إلى الملك، فأكثر خلافتهم المسرفون ولا سيما الوليد بن يزيد من عقود الجوهر يغيّرها في كل يوم كما تغير الثياب، وكان يجمعه من كل وجه ويغالي فيه حتى أغلاه،٣١ على أنهم اقتصروا من أسباب الحضارة على مثل ذلك لرغبتهم في البقاء على البداوة، إلا ما اتخذوه من الستائر المطرزة التي كانت تُصنع لهم في مصر كما تُصنع للروم من قبل، عليها طراز باليونانية مقاوه البسملة عند النصارى،٣٢ فأبدلها عبد الملك بالطراز العربي بسورة التوحيد، غير ما استعملوه من الوسائل المزركشة.

الأثاث والرياش عند العباسين

لما انتقلت الخلافة إلى العباسين اشتغل السفاح والمنصور بتأسيس الدولة وتأييدها، فلما تأيد سلطانهم مالوا إلى الترف فأخذوا بتقليد الدول السابقة لهم عملًا بناموس العمran، فاقتربوا الأسرة الذهب المرصعة بالجوهر أو الأبنوس المطعم بالعاج، واتخذوا المقاعد والنمارق والكراسي، ونصبوا منائر الذهب أوقدوا فيها الشموع من العنبر، وعلقوا الستور المطرزة والموشاة، وافتشروا البسط والطنافس المزركشة والحضر المنسوجة بالذهب المكملة بالدر والياقوت،^{٣٣} وغالوا في اقتناء آنية الذهب والفضة يأتون من كل بلد بأحسن مصنوعاته وأثمنها فحملوا الستور المعلمة من فسا، والبسط والمصليات من تستر وبخارا، والحضر من عبادان، والمقاعد من دشت، على أن أحسن أصناف الفرش المذهبة بطراز الذهب كانت تأتيهم من أرمينية، والطاقم الأرمني — وهو عشر مصليات بمخارها ومساندتها ومطارحها وبساطتها — يساوي خمسة آلاف دينار،^{٣٤} وكانت أطباق الخشب لآنية الطعام تأتيهم من طبرستان، والزجاج والخزف من البصرة وأكثره وارد في الأصل من بلاد الصين على ما فصلناه في كلامنا عن التجارة من هذا الجزء، ولكن الزجاج الرقيق كان يُحمل إليهم من الشام وكان يضرب به المثل بالرقعة والصفاء فيقال: أرق من زجاج الشام، وأصفى من زجاج الشام^{٣٥} اتخذوا ما تقدم من الآنية والمفروشات تقليدياً للفرس والروم على ما كانت عليه عندهم، ثم عربوها فجعلوا ما ينقش عليها من الكتابة باللغة العربية بين أمثال وأشعار وحكم ينقشونها على الستور ويعلقونها بمسامي الذهب والفضة،^{٣٦} ويزركشون البسط والطنافس فيرسمون في أواسطها أشكالاً وصورة مما في البر والبحر ويطرزون حواشيه بالذهب أو القصب أبياتاً من الشعر، وربما طرزوا دور البساط (أي: حافته) بقصيدة،^{٣٧} وغالوا في الزخرفة حتى نقشوا الأشعار على آنية البلور وأطباق الطعام وعلى جدران القاعات وفوق أبوابها — يتفاوت ذلك شكلاً ومقداراً بتفاوت طبقات الناس من المطرز بالحرير إلى المزركش بالقصب فالمحل بالذهب فالمرصع بالجوهر — كالبساط الذي كان لأم المستعين، وعليه صورة كل حيوان من جميع الأجناس وصورة كل طائر من ذهب وأعينها يوaciت وجواهر أنفقت في صنعه ١٣٠٠٠٠٠ درهم.^{٣٨}

وأحدث العباسيون في عهد الرشيد أشكالاً من الفرش وفنونه لم يسبقهم إليها أحد، منها ما ينسبون اختراعه إلى زوجته زبيدة، فقد ذكروا أنها أول من اتخد القباب من الفضة والأبنوس والصندل وكلالبيها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور والديباج وأنواع الحرير الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق.^{٣٩}

واخترع العباسيون المذاب وهي نوع من المراوح لم تكن معروفة قبلهم،^{٤٤} وتقنعوا في تزيينها وكتابه الأشعار عليها مما يناسب المراد بها أو يشار به إلى غرض، كما فعل أبو العتاهية في طلب الجارية عتبة من الرشيد، وكان يخاف أن يرده، فأهدى إليه ثلاثة مراوح كتب على كل منها بيتاً هذا مجموعها:

فإذا لها من راحتيه شميم
عنق يحث إليك بي ورسيم
إن الذي ضمن النجاح كريم^{٤٥}

ولقد تنسمت الرياح لحاجتي
أعلقت نفسي من رجائك ما له
ولربما استأسست ثم أقول لا

على أن كتابة الأشعار على المراوح كانت معروفة في أيام بنى أمية.^{٤٦}

المجوهرات عند العباسيين

غالى الخلفاء العباسيون في اقتناء المجوهرات، ولا سيما الدر، وهو اللؤلؤ الكبير والياقوت الأحمر القاني ويسمى البهرمانى، ويتألوه الأحمر المشرقي الرمانى ثم الأزرق الغمىق وتشوبه زرقته حمرة ويسمى الاسمانجوني، وبعده الأصفر وهو الفاقع اللون وبعده الذهبي، ولكل من هذه الأشكال قيمة تختلف باختلاف الصفاء والحجم، ومنها الزمرد وأحسنها يعرف بالذبابي لقرب لونه من لون الذباب الكبير المائل إلى الحضرة، والماس كانوا يفضلون منه ما يشوب لونه حمرة يسيرة؛ هذا أهم ما كانوا يتفاخرون باقتنائه من الحجارة الكريمة، وأما الفيروز والمرجان والعقيق والجزع فقلما كان الملوك يقتنونه لكثرة.

وأكثر ما تناقله المسلمون من الحجارة الكريمة في أوائل دولتهم مأخوذه من غنائم الفرس؛ لأنهم غنموا ما يفوق الحصر من الجوادر التي قضى الفرس الأجيال وهم يجمعونها ويتوارثونها، فقبضها العرب صفة واحدة ولم يعرفوا قيمتها كما بيناه آنفًا، وأصابوا نحو ذلك لما حاربوا الأكراد فإنهم غنموا سبطاً فيه جوهر حملوه إلى عمر في جملة الغنائم، فأمر ببيعه وقسمة ثمنه في المسلمين، فباعه وقسمه وكان الفص يُباع بخمسة دراهم وقيمتها عشرون ألفاً.^{٤٧}

ولما تحضرروا صاروا يشترون الجوادر بالأثمان الغالية، فاشترى الرشيد فص ياقوت أحمر بأربعين ألف دينار، وكان قدّيماً ويعرف بالجبل والملوك تصونه، فنقش

عليه الرشيد اسمه،^{٤٤} واشتري فصاً آخر بمائة وعشرين ألف درهم،^{٤٥} وعرض أحد تجار المصوغات ببغداد على يحيى بن خالد سبط جوهر فساومه على ثمنه بسبعة ملايين درهم.^{٤٦}

وكثيراً ما كانوا يستخدمون الجوادر بدلاً من المبالغ الكبيرة، فإذا عزم أحدهم على سفر طويل يستغرق نفقة عشرة آلاف دينار مثلاً، فبدلاً من أن يحمل ذلك المال ذهباً أو فضة استبدل به بجودرة أو عدة جوادر يسهل حملها في الجيب، فإذا وصل إلى البلد المقصود باع الجوادر وأنفق من ثمنها كما يفعل الناس اليوم بتحاويل المصارف المالية أو البنوك (العملة الورقية).

وكان الأمويون يرغبون في المجوهرات أيضاً، وقد رصعوا بها الحلي وبعض الآنية وأصطنعوا منها العقود للبسهم ولبس نسائهم وجواريهم، أما العباسيون، فبالغوا في ذلك حتى نظموها في عصائب نسائهم كما فعلت أخت الرشيد،^{٤٧} ورصعوا بها خفافهن كما فعلت أم جعفر زوجته.^{٤٨}

فكان الخلفاء العباسيون يقتنون من الآنية والفرش والمجوهرات والثياب ما لا يعلم مقداره إلا الله، يدلك على ذلك ما قدمناه مما خلفه المكتفي وغيره وما أخرجوه من خزائنهما في فتنة البساسيري في أواسط القرن الخامس من جملته ٧٥٠٠ قطعة دينار و١١٠٠ كزاغند و ٣٠٠٠ سيف، وهو بعض ما كان في دار الخليفة، ومع ذلك فهو لا يقارب بما كان عند الفاطميين كما سترى.

وقد أنكر ابن خلدون ما ذكره المؤرخون عن ترفبني العباس في ملابسهم وزينتهم وسائل متناولاتهم، لما كانوا عليه من خشونة البداءة،^{٤٩} واستشهد بالمسعودي والطبرى، ولا ينطبق رأيه في ذلك على ما ذكره هذان ولا على ما قاله هو نفسه؛ لأن المسعودي هو الذي أخبرنا بنظم الجوهر في خفاف أم جعفر وهي من أقرب الناس للتقوى، والطبرى أورد أخباراً كثيرة، تدل على ترف العباسيين في عصر الرشيد، غير ما ذكره غيرهما من ثقات التاريخ والأدب المتقدمين كأصحاب الأغانى والعقد الفريد والكامل والمعارف وغيرهم، ونقل المؤرخون عنهم ذلك ولم يکبروه ولا اعترضوا عليه، حتى ابن خلدون نفسه فقد ذكر في مقدمة تاريخه «أن المأمون أعطى بوران في مهرها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت، وقد أوقد شموع العنبر في كل واحدة مائة منْ وهو رطل وثلاثين، وبسط لها فرشاً كان الحصير منها متسوجاً بالذهب مكللاً بالدر والياقوت».٥٠ ويلوح لنا أن ما كانوا يتاجفون عنه في صدر الدولة العباسية إنما هو الركوب بحلية الذهب، وأول

من ركب فيها منهم المعتز بالله،^١ فمؤرخنا الفيلسوف شديد الرغبة في تنزيه العباسين عن الترف وهم من أعرق الخلفاء فيه.

بذخ الفاطميين

كان العباسيون قدوة لمن قام بعدهم من الدول الإسلامية في مصر والشام والمغرب والأندلس، فالفاطميون بمصر كانوا يناظرون العباسين في كل شيء حتى في أسباب الحضارة، وكان التمدن الإسلامي قد نضج والدولة العباسية أخذت في التقهقر، ففاقوهم في كثير من أسباب البذخ والترف، ولا سيما من حيث الأثاث والرياش والثياب، فقد رأيت أن العباسيين رصعوا عصائب نسائهم وخافهن بالجواهر، ولكن الفاطميين رصعوا بها آنية المطبخ واتخذوا كوز الزير من البلور مرصعاً بالجوهر، وكللوا المزيرة بحب اللؤلؤ النفيسي، وتألقوا في المصوغات حتى اتخذوا منها التماضيل المرصعة للزينة في مجالسهم، فإذا جلس الخليفة في إحدى المناظر للراحة أو تبديل الثياب وضعوا بين يديه الصوانى الذهب، عليها أشكال الصور الآدمية والوحشية من الفيلة والزرافات ونحوها، معمولة من الذهب والفضة والعنبر والمرسين المشدود والمطفور عليها، المكل باللؤلؤ والياقوت والزيرجد، ومن الصور الوحشية ما يشبه الفيلة بينما عنبر معجمون كخلقة الفيل ونباوه فضة وعيناه جوهرتان كبريتان، في كل منهما مسمار ذهب مجرى سواده، وعلى الفيل سرير منجور من عود بمتكات فضة وذهب، وعليه عدة من الرجال ركبان عليهم اللبوس تشبه الزرديات، وعلى رءوسهم الخوذ وبأيديهم السيف المجردة والدرق وجميع ذلك فضة، ثم صور السبع منحورة من عود وعينا السبع ياقوتتان حمراوان وهو على فريسته وأشكال من سائر الوحوش، وأصناف تشد من المرسين المكل باللؤلؤ شبه الفاكهة.^٢

وكان للفاطميين في القاهرة دور يختزنون بها أدوات الترف والبذخ يسمونها خزائن، بعضها للفرش والبعض الآخر للجوهر وأخر للطيب وأخر للبنود وأخر للسلاح وأخر للسرج أو الدرق أو الكسوات أو الأدب أو الشراب أو التوابيل أو الخيم، وكان الخليفة يذهب إلى مجالس خاصة له في تلك الخزائن، والمجلس عبارة عن دكة عليها طراحة ولها فراش يخدمها وينظفها ليجلس الخليفة عليها إذا زار تلك الخزانة، وقد توسع المقرizi في وصف هذه الدور وما حوتة من الآلة والرياش والثياب والجواهر والأطياط مما يضيق عنه هذا المقام فليراجع في مكانه،^٣ ونأتي بشيء من ذلك على سبيل المثال:

الحلي والجواهر عند الفاطميين

فما أخرجوه من خزانة الجوهر في أيام الشدة على عهد المستنصر بالله (توفي سنة ٤٨٧هـ) صندوق فيه سبعة أمداد زمرد سألوا الصياغ عن قيمتها فقالوا: إنما نعرف قيمة شيء إذا كان مثله موجوداً، واستخرجوا خريطة فيها وبية جوهر قال الصياغ: إن قيمته لا تقدر وأصل ثمنه ٧٠٠٠٠ دينار بيع يومئذ بعشرين ألف دينار، ووجدوا ما لا يُحصى من أقذاح البلور المنقوش والمجرود وصحوناً من المينا منها ما يساوي مئات من الدنانير، وفي مكان آخر ١٨٠٠ قطعة من بلور تتراوح أثمانها بين عشرة دنانير وألف دينار كل قطعة، وصوان من الذهب المجرأة بالليناء وغير المجرأة المنقوشة بأنواع النقوش، و ١٧٠٠ غلاف خيار مبطن بالحرير محللة بالذهب، ونحو مائة كأس بادزهر وأشارباهما على أكثر اسم هارون الرشيد.

غير ما وجدوه هناك من الصناديق المملوهة بالسلاكين المذهبة والمفضضة وأنصابها من الجوهر المختلفة، وصناديق مملوهة دوياً (جمع دواة) على اختلاف الأشكال من الذهب والفضة والصندل والعود والأبنوس والعاج، محللة بالجوهر مما يساوي ألف دينار إلى بضعة آلاف كل دواة، وعدة أزيار مملوهة كافوراً وعدة جمامج عنبر ونافاج المسك التيبتي وشجرة العود وغيرها.

ومما خلفته رشيدة بنت المعز وحفظ هناك ما قيمته ١٧٠٠٠٠ دينار من جملتها ١٢٠٠ من الثياب المصمت ألواناً و ١٠٠ قاطرميز مملوهة كافوراً قيسوريًا ومعممات بجواهر من أيام المعز، وبيت هارون الرشيد الخز الأسود الذي مات فيه بطوس، ومثل ذلك مما تركته عبدة بنت المعز أيضاً ويطول شرحه، وخزانة مملوهة بأنواع الصيني تساوي القطعة منها ألف دينار، وحصیر من الذهب وزنه عشرة أرطال يظن أنه الحصیر الذي حملت عليه بوران بنت الحسن بن سهل لما رُفت إلى الملائكة كما تقدم، وصوان من الذهب كان ملك الروم أهداها إلى العزيز بالله.

ووجدوا أنواعاً من الشطرنج والترد مصنوعة من الجوهر والذهب والفضة أو العاج أو الأبنوس، وعدداً كبيراً من الظهريات ونحوها، ومن تماثيل العنبر ٢٢٠٠ قطعة أقل تمثال منها وزنه ١٢ مِنَّا، ومن تماثيل الخليفة ما لا يحده، والكلوته (أي: الطاقية للرأس) المرصعة بالجوهر قيمتها ١٣٠٠٠ دينار فيها من الجوهر ١٧ رطلًا، وطاووس من ذهب مرصع بنفيس الجوهر عيناه من ياقوت أحمر وريشه من الزجاج المينا المجرى بالذهب على ألوان ريش الطاووس، وغزال مرصع بنفيس الدر والجوهر بطنه أبيض قد

نظم من در رائق، ومائدة من الجزع يقعد عليها جماعة قوائمها مخروطة، ونخلة ذهب مكللة بالجوهر وبديع الدر في أجانة من ذهب تجمع الطلع والبلح والرطب بشكله ولونه وعلى صفتة وهيئته من الجواهر قيمتها لا تقدر، وكوز زير بلور مرصع يحمل عشرة أرطال ومزينة مكللة بحب لؤلؤ نفيس وقس على ذلك عشرات من أمثاله.

الفرش والأثاث عند الفاطميين

ووجدوا في خزائن الفرش من أصناف الأثاث والرياش ما يعد بالألاف، من ذلك ١٠٠٠٠ قطعة خسرواني أكثرها مذهب، ومراتب خسرواني وقلموني ثمن الواحدة ٣٥٠٠ دينار، وأجلة معمولة للفيلة من الخسرواني الأحمر المذهب، و٣٠٠ قطعة خسرواني أحمر مطرز بأبيض من هدبها لم يفصل من كساء البيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها، وكل بيت يشتمل على مسانده ومخاده ومساوره ومراتبه وبسطه ومقاطعه وستوره وكل ما يحتاج إليه، ومثل ذلك من المholm والديباج وسائر أنواع الحرير وعليها أشكال الصور من كل شيء، ونحو ألف من ستور الحرير المنسوجة بالذهب على اختلاف ألوانها وأطوالها، فيها صور الدول وملوكها ومشاهيرها وعلى صورة كل واحد اسمه ومدة أيامه وشرح حاله، و٤٠٠ رزمة خسرواني مذهب في كل رزمة فرش مجلس ببسطه وتعاليقه وسائر آلاته منسوجة في خيط واحد، ومن جملتها مقطع من الحرير الأزرق التستري غريب الصنعة منسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير كان المعز لدين الله أمر بعمله، وفيه صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومساكنها شبه الخارطة الجغرافية، وفيه صورة مكة والمدينة ومكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب والفضة أو الحرير، وقد كتب في آخره «مما أمر بعمله المعز لدين الله شوقاً إلى حرم الله وإشهاراً لعالم رسول الله في سنة ٣٥٣هـ».

فاعتبر ما تدل عليه هذه الآثار من رقي المدنية والحضارة، وكم تكون قيمتها لو وجدت الآن وكم يدفع المتمويلون من المبالغ في الحصول عليها.

وقس عليه ما كان في سائر الخزائن من التحف، ففي خزانة السلاح سيف الحسين بن علي، ودرقة حمزة بن عبد المطلب، وسيف جعفر الصادق، ومئات الألاف من الدروع والسيوف والقصي والرماح وغيرها، وفي خزانة السروج ألف لف من السروج الثمينة ومنها ما يساوي ألف دينار، وفي خزانة الخيم أنواع الفساطيط والمضارب والمسطحات والمحصون والقصور، والشراعات والمشاريع العمومية من الديبقي والمخمل والخسرواني والديباج

المكي والأرماني والبهنساوي والكردوانى، وغير ذلك على اختلاف الألوان والنقوش من المفلي والمسبع والمخيل والمطوس والمطير غيرها من أشكال السباع والطيور والأدميين مما ينصب على أعمدة ملبة بالفضة، ومن هذه الفساطيط ما يبلغ طوله ٦٥ ذراعاً كبيراً يحمله مع ملحقاته مائة جمل، وفي خزانة البنود كثير من الريات والأعلام الساذجة والمطرزة وغيرها.

ومن أدلة الترف والإسراف في هذه الدولة أن السيدة الشريفة ست الملك أخت الحاكم بأمر الله أهدت أخاها هذا هدايا من جملتها ثلاثون فرساً بمراكبها ذهباً، منها مركب واحد مرصع ومركب من حجر البلور وتابع مرصع بنفييس الجوهر وبستان من الفضة مزروع من أنواع الشجر.

وقد يتadar إلى الذهن أن ما تقدم ذكره لا يخلو من مبالغة أو هو من قبيل الأحاديث الخرافية، ولكن مصر اشتهرت في العصور الإسلامية الوسطى بالثروة مثل شهرة بغداد في إبان حضارتها، و Ashton المصريون بالترف والغنى حين كان الناس يشكرون الضيق،^٤ ولذلك قالوا: «من دخل مصر ولم يستغن فلا أغناه الله». وقد تواتر ذكر هذه التحف وأمثالها في كتب الثقات وبعضهم شهد الأمر بنفسه، ورأى هذه التحف رأي العين ومنهم ابن الأثير المؤرخ الشهير، فقد ذكر في حوادث سنة ٥٦٧هـ التي أقام فيها السلطان صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية واستولى على ما كان باقياً في قصور الخلافة من التحف والجواهر بعد ما أصابها من النهب في فتنة المستنصر وغيره؛ قال: «وتحمل الجميع إلى صلاح الدين، وكان من كثرته يخرج عن الإحصاء، وفيه من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة ما تخلو الدنيا من مثله، ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم، فمنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهماً أو ١٧ مثقالاً أنا لا أشك؛ لأنني رأيتها وزمنتها، واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرد الذي طوله أربع أصابع في عرض عقد كبير». ^٥

بذخ الأندلسيين

واقتدى بالعباسيين في الترف والبذخ الأندلسيون، ولكنهم لم يبلغوا مبلغ المصريين فيهم، على أن بعضهم تفنب بذلك على شكل لم يسبق له أحد إلى مثله، فالمتصور بن أبي عامر في أواخر القرن الرابع قدم عليه رسول ملك الروم، وهو أعظم ملوك النصارى في ذلك الزمان، ليطلع على أحوال المسلمين وقوتهم، فأراد المنصور أن يبغفته بما يطلعه عليه من

عز الدولة وثروة المملكة، فأمر أن يغرس في بركة عظيمة ذات أميال نيلوفر، ثم أمر بأربعة قناطير من الذهب وأربعة قناطير من الفضة فسبك قطعاً صغاراً قدر ما تسع النيلوفرة، وملأ بها جميع النيلوفر وبعث إلى الرسول فحضر عنده قبل الفجر في مجلسه بالزاهرة فأجلسه بحيث يشرف على موضع البركة، فلما قرب طلوع الشمس جاء ألف من الصقالبة عليهم الأقبية والمناطق من الذهب والفضة، وبيد ٥٠٠ منهم أطباق من ذهب وبيد ٥٠٠ أطباق من فضة، فتعجب الرسول من جمالهم ولم يدر الغرض من مجئهم، فحين أشرقت الشمس ظهر النيلوفر في البركة وبادروا لأخذ الذهب والفضة منه، وكانوا يجعلون الذهب في أطباق الفضة والفضة في أطباق الذهب، حتى التقاطوا جميع ما فيها وجاءوا به فعرضوه بين يدي المنصور حتى صار كوماً، فتعجب الرسول من ذلك وطلب الماهنة. واصطنع المنصور هذا نموذج قصر من فضة لصبح أم هشام، وحمله إليها على رءوس الرجال استجلاباً لحبها.^٦

وأغرب منه ما فعله المعتمد الأندلسي لأم أولاده الرميكة **الملقبة** اعتماد، وقد رأت ذات يوم نساء البادية بإشبيلية يبعن اللبن في القرب وهن رافعات عن سوقةهن في الطين فقالت: «يا سيدي أشتتهي أن أفعل أنا وجواري مثل هؤلاء النساء». فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد وصیر الجميع طيناً في القصر، وجعل لها قريباً وحباً من الأبريض وخرجت هي وجواريها تخوض في ذلك الطين.^٧

وقس على ذلك سائر ملوك الإسلام في عصر الترف، فقد كان عند سنجر بن ملكشاه ١٠٣٠ رطلاً من الجوهر ولم يسمع بمثله عند الملوك، وكانتوا يقيسون الإسراف أحياناً بما ينفقونه من الشمع في الأضواء، فذكروا أن وظيفة كل من ابن بقية وعز الدولة ألف رطل من شمع في الشهر،^٨ واشتهر محمد الأمين بكبر شمعه، ولم يكن ذلك الترف قاسراً على الخلفاء والملوك والأمراء، ولكنه كان يتناول سائر رجال الدولة، ومن يرتفق منهم، وأما العامة فربما كانوا في أشد الضيق، راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٤-٣) التسري

هو اقتناء الجواري للتمتع بهن أو استيلادهن، وقد علمت ما كان من تكاثرهن والاتجار بهن وتربيةهن وتهاديهن في ذلك العصر، ونتكلم هنا عما بعث عليه الترف من تسريحهن، وكثيراً ما يعقب التسري التزوج، فإذا ولدت الجارية لأحدهم تزوجها، وكان العرب يكرهون التزوج بالجواري، فمع كثرتها في صدر الإسلام لم يتزوج الراشدون جارية،^٩

ولكن المسلمين كانوا يتصرفونهن للفراش، فتوفي الإمام علي عن ٤٠ نسوة و١٧ سرية،^{٦٠} وكانت تلد الجارية لأحدهم فيبيعها كما يبيع سائر الجواري، فنهاي عمر عن بيع أمهات الأولاد،^{٦١} وكانت العرب على كل حال تحتقر أبناء الجواري، حتى نبغ منهم ثلاثة من كرام الرجال أمهاتهم من بنات يزدجرد،^{٦٢} فرغم الناس في التسري.

وليس المسلمون أول من افتتن السراري، فالتسري كان شائعاً عند الرومانيين، والسرية عندهم أحط منزلة من الزوجة، ولكن علاقتها مع الرجل كانت شرعية، وكانوا في أول أمرهم كالعرب يكرهون التسري، حتى تقدمهم فيه اثنان من كبار أمرائهم فعكفوا عليه.^{٦٣}

وزادت رغبة المسلمين في التسري في إبان الحضارة، حتى أصبح أكثر أبناء الخلفاء من أولاد الجواري،^{٦٤} وأكثر نساء أهل الدولة منهن، واقتدى بهم سائر الوجهاء والأغنياء، فعمدوا إلى اقتناء السراري، ومن ولدت له تزوجها أو اعتقها، فبلغ عددهن عند بعض الخلفاء عدة آلاف، ذكروا أنه كان للمتوكل العباسي ٤٠٠٠ جارية وطنّهن جميعاً،^{٦٥} وعلم الأمراء برغبته فيهن فتقربوا إليه بالهدايا منهن، فأهداه عبد الله بن طاهر ٤٠٠ وصيفة،^{٦٦} وكان لنصر الدولة صاحب ميافارقين ٣٦٠ سرية على عداد أيام السنة،^{٦٧} غير ما كانوا يقتنونه من الجواري للغناء، فقد كان عند الرشيد ٢٠٠٠ جارية،^{٦٨} منهن ٣٠٠ قينة للغناء والضرب على آلات الطرف.^{٦٩}

وأصبح الاستكثار من الجواري عادة مألوفة، حتى صار النساء يقتننهن للزينة، فكان عند أم جعفر البرمكي ٤٠٠ وصيفة يخدمنه،^{٧٠} وقدرأيت ما اتخذته زبيدة من الجواري المقدورات وكيف ألبستهن ملابس الغلمان فقللتها الوجيهات من أهل اليسار، فاتخذت الجواري المطمومات أو الغلاميات، ثم تبارى الخلفاء وسائر الكبار في ذلك، حتى ألف القاهر بالله العباسي جوقاً من الجواري بقدر واحد ألبسهن القراطق والأقبية والطرر والأقفية والمناطق من الذهب أو الفضة كأنهن الغلمان.^{٧١}

وقس على ذلك سائر دول المسلمين في المشرق والمغرب، وقد فاق الفاطميون سواهم في الإكثار من الجواري أيضاً، فكان في قصر الحكم بأمر الله ١٠٠٠ جارية وخادم،^{٧٢} وكان عند أخته السيدة الشريفة ست الملك ٨٠٠ جارية منها ١٥٠٠ من البنات الأذكار،^{٧٣} ولا قبض صلاح الدين على قصورهم وجد في القصر الكبير ١٢٠٠ نسمة ليس فيها فحل إلا الخليفة وأهله وأولاده، غير الخدم والغلمان والأمتعة والتحف، وأطلق صلاح الدين البيع فيهم فاستمرروا يبيعون عشر سنين،^{٧٤} ويقال نحو ذلك في السلاطين المالك

بمصر وبني أمية في الأندلس مما يطول شرحة، ولا يزال مثاله عند بعض أمراء الشرق وملوكه إلى اليوم (قبل الحرب العالمية الأولى).

أثمان الجواري

والاستكثار من الجواري في أوائل الإسلام لم يكن يحتاج إلى نفقة كبيرة لكثره السبابيا، فلما نضج التمدن صاروا يتاعونهن ويغالون في رفع أثمانهن، وكانت أسعارهن تتضاعف إذا جمعن بين الجمال ورخامة الصوت وصناعة الغناء، ويختلف ثمن الجارية من بضع مئات إلى بضعة آلاف أو مائة ألف دينار، وأول من بذل في هذا السبيل إلى هذا المقدار سعيد أخو سليمان بن عبد الملك، فابتاع «الذلفاء» الجارية الشهيرة بـ ٧٥ مليون درهم،^{٧٥} (نحو ٧٠٠٠ دينار).

وابتاع الرشيد جارية بمائة ألف دينار،^{٧٦} وجارية أخرى اشتراها من إبراهيم الموصلي بمبلغ ٣٦٠٠٠ دينار فباتت عنده ليلة ثم أرسلها إلى الفضل وطلب محمد الأمين إلى عصر بن الهادي أن يبيعه جارية له اسمها «بذل» فأبى، فأمر فأقرروا قاريءه ذهبًا بلغت قيمة ذلك ٢٠٠٠٠٠٠ درهم،^{٧٧} أي أكثر من مليون دينار، وهذا إذا صح كان أعظم ما بلغ إليه بذلهم في أثمان الجواري.

وأما ما خلا ذلك فقد اشتري يزيد بن عبد الملك الأموي «سلامة» المغنية بعشرين ألف دينار، وبيعت الجارية «ضياء» بخمسين ألف دينار، واشتري عصر البرمكي جارية بأربعين ألف دينار، وابتاع الواثق بالله جارية مولدة للغناء اسمها «الصالحية» بعشرة آلاف دينار، وقس عليه ما دون ذلك وما فوقه، واعتبر مقدار ما كانوا ينفقونه من الأموال في اقتناهنهن.

(٥-٣) السخاء

علمت مما تقدم انطباع العرب على السخاء من أيام جاهليتهم، وأنهم اضطروا للمحافظة عليه بعد الإسلام حتى أصبح من قواعد الارتزاق فيمن يحومون حول الخليفة وأهل الدولة، فلما توفرت الأموال في أيدي هؤلاء وتمتعوا بال حاجات والكماليات من الملاد الجسدية تطلبو الملاذ العنوية بحسن الأحداث، وهم أهل أريحية يستفزهم الإطراء والاستنجاد، فوجدوا في السخاء باباً واسعاً لتلك الملاذ، فبذلوا الأموال على الشعرا

والندماء والمغنين والمستجدين من سائر الطبقات، لما في ذلك من لذة الفخر أو توقع الأجر.

مبلغ السخاء على العموم

وقد ذكرنا في كلامنا عن الارتزاق بالسخاء ما الذي بعث علىبقاء هذه المنقبة الجاهلية حتى صارت سنة مرعية، وتدرج المسلمين فيها بتدرجهم في الحضارة والمدنية، وزادت جوائزهم بزيادة الثروة واتساع الأرزاق، فكان الأمويون يعطون بالألف درهم أو بضعة آلاف يلحقونها ببعض الماشية أو الكسوة أو الخيل، وإذا توسموا في العطاء مصلحة جعلوا الصلة عشرة آلاف أو عشرات الآلاف أو مائة ألف أو مئات الآلاف، كما فعل معاوية في استرضاء الناس واكتساببني هاشم إلى حزبه، فإنه جعل صلات أبناء الصحابة ملبيين ببذلها رواتب كل عام، وهو أول من فعل ذلك من المسلمين، غير ما كان يصلهم به من الهدايا لسبب أو لغير سبب، كما فعل لما ولد عبد الله بن جعفر غلام فبدل له ١٠٠٠٠ درهم على أن يسميه معاوية فرضي، ولكنه أعطى تلك الصلة للذي بشره بالغلام.^{٧٨}

واقتدى بمعاوية من خلفه من الأمويين وأمرائهم، واشتهر من هؤلاء آل المهلب بالسخاء في الدولة الأموية، كما اشتهر البرامكة في الدولة العباسية،^{٧٩} ومن أسفخاء عمالهم خالد القسري والحجاج بن يوسف إذا مست الحاجة إلى السخاء، فالحجاج أعطى للذى توسط في زواجه بهند بنت أسماء ثلاثين غلاماً مع كل غلام عشرة آلاف درهم، وثلاثين جارية مع كل جارية تخت من ثياب وغير ذلك،^{٨٠} وكان سعيد بن العاص لا يرسل إلى أحد هدية مع عبد إلا كان العبد في جملتها.^{٨١}

أما العباسيون فكانت الثروة في أيامهم أوفى، فبلغت عطاياتهم عشرات الملايين من الدرارهم، وأول من أعطى هذا القدر منهم المنصور،^{٨٢} ثم صاروا يهبون الضياع وخارج البلاد، أو يوقرنون الزوارق ذهباً أو فضة، أو يهدون الغلمان يحملون بدر المال، أو يرسلون الجائزة على مئات من الدواب، أو يولون الولايات والأعمال، وتزداد جوائزهم إذا استخفهم الظرف أو استفزهم الإطراء، فقد ول السفاح رجالاً الأهواز بقصيدة،^{٨٣} والغالب أن يكون سخاؤهم لغرض سياسي يعود نفعه على الدولة، كما فعل المنصور إذ أعطى في يوم واحد عشرة ملايين درهم فرقها في أعمامه ووجوه قواه ليقطع ألسنتهم عن مقاومته، ولما تولى ابنه المهدي استكتب أسماء أولاد المهاجرين والأنصار وجلس

مجالسًا عامًّا فرق فيه ٣٠٠٠٠٠ درهم، وقرر لكل واحد من أهل بيته ٦٠٠ درهم كل سنة،^{٨٤} وأعطى المغيرة بن حبيب ألف فريضة يضعها حيث شاء،^{٨٥} وفرق الرشيد في يوم واحد ١٣٥٠٠٠ دينار،^{٨٦} وطرب يومًا فنثر على الناس ٦٠٠٠٠ درهم،^{٨٧} وأعطى الهادى لعبد الملك بن مالك صاحب شرطة أبيه مالًا أرسله إليه على ٤٠٠ بغل موقرة دراهم،^{٨٨} وأعطى الأمين إلى سليمان بن أبي جعفر مليون درهم،^{٨٩} واحتضن الأمين من أساليب السخاء بأنه كان يأمر بإيقار زورق الطالب ذهباً أو فضة، وكان قصره على شاطئ دجلة، فإذا جاءه شاعر أو طالب في زورق وأخذته الأريحية واستنفه الطرب قال: «أوقدروا زورق هذا ذهباً أو فضة». وقلما كانوا يفعلون ذلك، والغالب أن يعواضا عنه بمبلغ من المال كما فعلوا بأبي محمد التيمي، فإنه مدح الأمين بقصيدة أطربته فأمر الفضل بن الربيع، أن يوقد زورقه مالًا فقال: «نعم يا سيدي». فلما طالبه التيمي بذلك قال له الفضل «أنت مجنون! من أين لنا ما يملأ زورقك؟» ثم صالحه على ١٠٠٠٠ درهم،^{٩٠} وأجاز للأمويين طببيه بمليون درهم وألف كر حنطة،^{٩١} وفرق للأمويين في ساعة ٢٦٠٠٠٠ درهم، ومدحه أعرابي فأجازه بثلاثين ألف دينار،^{٩٢} وكان المتوكل يهب القطائع جوائز على المدح،^{٩٣} وقس على ذلك هدايا سائر الخلفاء، وإنما ذكرنا أعظمها لبيان مبلغ ذلك في إبان التمدن.

فلما افتقر الخلفاء العباسيون في أواسط الدولة صاروا يهبون الرتب الاسمية وألقاب الشرف يسترضون الناس بها، وهذه أبيات يقولون: إن أبو بكر الخوارزمي نظمها بهذا المعنى:

من الكنى ومن الألقاب أبوابا ما كان يرضى به للحبس بوابا هذا فأنفق في الأقوام ألقابا	ما لي رأيت بنى العباس قد فتحوا ولقبوا رجلاً لو عاش أولهم قل الدرارم في كفي خليفتنا
--	--

سخاء البرامكة

على أن العصر العباسي الأول إنما زها بالبرامكة، وهم الذين رغبوا الخلفاء في السخاء، وأولهم خالد بن برمك وزير المنصور، والثروة لم تنضح في أيامه، ومع ذلك فالوافدون على الخلفاء للاستجداء كانوا يسمونهم السؤال، فقال خالد: «هذا والله اسم أستقله لطلاب الخير، وأرفع قدر الكريم عن أن يُسمى به أمثال هؤلاء المؤلمين؛ لأن فيهم الأشراف

والأحرار وأبناء النعيم، ومن لعله خير من يقصد وأفضل أدبًا، ولكننا نسميهم الزوار». وكان منمن شهد مجلسه وسمع قوله بشار بن برد فقال:

فمجده له مستطرف وأصيل
بلغه على الإعدام فيه دليل
وإن كان فيهم نابه وجليل
فأستاره في المهددين سدول

هذا خالد في فعله حذو برمك
وكان ذنوو الآمال يدعون قبله
يسمون بـ«السؤال» في كل موطن
فسماهم «الزوار» ستراً عليهم

فأعطاه خالد عن كل بيت ألف درهم.^{٩٤}

وكان ابنه يحيى بن خالد إذا ركب أطعى كل من تعرض له ٢٠٠ درهم،^{٩٥} ويررون من أخبار سخائه ما هو أشبه بالخرافات منه بالحقائق، نذكر حادثة تواتر ذكرها في كتب التاريخ والأدب، وهي تمثل سخاء يحيى أحسن تمثيل، وذلك أن البرامكة لما نكبا منع الرشيد الناس من ذكرهم أو رثائهم، فمن ذكرهم إنما يذكرهم سرّاً، وظلوا على ذلك في أيام الأمين والمأمون، فسمع المأمون بشيخ يأتي خرابات البرامكة ويبيكي وينتحب طويلاً ثم ينشد شعراً يرثهم به وينصرف، فبعث في طلبه، فلما حضر انتهره الخليفة وسألة: من هو؟ وبم استحق البرامكة منه ما يصنع؟ فقال الرجل وهو غير هائب: «للبرامكة عندي أيداد خضر، فإن أمر أمير المؤمنين حدثه ببعضها». فقال: «هات». فقال: «أنا المنذر بن المغيرة الدمشقي، نشأت في نعمة فزالت حتى وصلت إلى بيع داري وأملقت إلى غاية، فأشير على بقصد البرامكة فخرجت إلى بغداد ومعي نيف وعشرون امرأة وصبياً، فدخلت بهم إلى مسجد بيغداد ثم خرجت، وتركتهم جياعاً لا نفقة لهم، فمررت بمسجد فيه جماعة عليهم أحسن زyi، فجلست معهم أردد في صدري ما أخطبهم به فتحيد نفسى عن ذل المسألة، وإذا خادم قد أزعج القوم فقاموا فقمت معهم، ودخلوا داراً كبيرة فدخلت، فإذا يحيى بن خالد على دكة وسط بستان فجلسوا وجلس، وكنا مائة رجل ورجل فخرج مائة خادم في يد كل خادم منهم مجرمة ذهب فيها قطعة عنبر، فتبخروا وأقبل يحيى على القاضي وقال: زوج ابن عمي هذا بابنتي عائشة، فخطب وعقد النكاح وأخذنا النثار من فتات المسك وبنادق العنبر وتماثيل الند، فاللتقط الناس والتقطت، ثم جاءنا الخدم في يد كل واحد منهم صينية فضة فيها ألف دينار مخلوطة بالمسك، فوضع بين يدي كل واحد واحدة، فأقبل كل واحد يأخذ الدنانير في كمه والصينية تحت إبطه ويخرج، فبقيت وحدي لا أجسر أفعل ذلك، فغمزني بعض الخدم وقال: خذها وقم،

فأخذتها وقامت وجعلت أمشي والتفت خوفاً من أن تؤخذ مني، ويحيى يلاحظني من حيث لا أ瘋ن، فلما قاربت الستر رددت، فيئست من الصينية، فجئته فأمرني بالجلوس فجلسـت، فسألني عن حالـي فحدثـه عن قصتي فبـكـي ثم قال: على بـموـسى، فجاءـهـ، فقالـ: يا بنـيـ، هذا رـجـلـ من أولـادـ النـعـمـ قد رـمـتهـ الأـيـامـ بـصـرـفـهاـ، فـخـذـهـ إـلـيـ فـاخـلـطـهـ بـنـفـسـكـ، فـأـخـذـنـيـ وـخـلـعـ عـلـيـ وأـمـرـنـيـ بـحـفـظـ الصـينـيـةـ لـيـ، فـكـنـتـ فيـ الـذـيـ عـيشـ يـوـمـيـ وـلـيـلـيـ، ثـمـ استـدـعـيـ أـخـاهـ العـبـاسـ وـقـالـ: إـنـ الـوـزـيرـ قدـ سـلـمـ إـلـيـ هـذـاـ وأـرـيدـ الرـكـوبـ إـلـيـ دـارـ أمـيرـ المـؤـمـنـينـ فـلـيـكـ عـنـدـكـ الـيـوـمـ، فـكـانـ يـوـمـيـ مـثـلـ أـمـسـ، فـأـقـبـلـواـ يـتـاـولـونـيـ وـأـنـاـ قـلـقـ بـأـمـرـ عـيـالـيـ وـلـاـ أـتـجـاسـرـ أـنـ ذـكـرـهـ، فـلـمـ كـانـ فـيـ الـيـوـمـ الـعاـشـرـ أـدـخـلـتـ عـلـىـ الـفـضـلـ بـنـ يـحـيـىـ فـأـقـمـتـ عـنـدـهـ يـوـمـيـ وـلـيـلـيـ، فـلـمـ أـصـبـحـ جـاءـنـيـ خـادـمـ فـقـالـ: قـمـ إـلـيـ عـيـالـكـ وـصـبـيـانـكـ، فـقـلـتـ: إـنـ اللـهـ، ذـهـبـتـ الصـينـيـةـ وـمـاـ فـيـهـاـ، فـلـيـتـ هـذـاـ كـانـ مـنـ أـوـلـ يـوـمـ!ـ وـقـمـتـ وـالـخـادـمـ يـمـشـيـ بـيـنـ يـدـيـ، فـأـخـرـجـنـيـ مـنـ الدـارـ فـازـدـادـ مـاـ بـيـ، ثـمـ أـدـخـلـنـيـ إـلـيـ دـارـ كـأـنـ الشـمـسـ تـطـلـعـ فـيـ جـوـانـبـهـ، وـفـيـهـاـ مـنـ صـنـوـفـ الـآـلـاتـ وـالـفـرـشـ، فـلـمـ تـوـسـطـتـهـ رـأـيـتـ عـيـالـيـ يـرـتـعـونـ فـيـ الـدـيـبـاجـ وـالـسـتـورـ، وـقـدـ حـمـلـ إـلـيـهـمـ مـائـةـ أـلـفـ درـهـمـ وـعـشـرـةـ آـلـافـ دـيـنـارـ، وـسـلـمـ إـلـيـ الخـادـمـ صـكـاـً بـاسـمـ ضـيـعـتـينـ جـلـيلـتـينـ، وـقـالـ: هـذـهـ الدـارـ وـمـاـ فـيـهـاـ وـالـضـيـاعـ لـكـ، فـأـقـمـتـ مـعـ الـبـرـامـكـةـ فـيـ أـخـفـضـ عـيـشـ إـلـىـ الـآنـ، ثـمـ قـصـدـنـيـ عـمـرـوـ بـنـ مـسـعـدـ فـيـ الضـيـعـتـينـ وـالـزـمـنـيـ مـنـ خـرـاجـهـمـاـ مـاـ لـاـ يـفـيـ بـهـ دـخـلـهـمـاـ، فـكـلـمـاـ لـحـقـتـنـيـ نـائـبـةـ قـصـدـتـ دـورـهـ فـبـكـيـتـ.ـ»

فـاستـدـعـيـ الـمـأـمـونـ عـمـرـوـ بـنـ مـسـعـدـ وـأـمـرـهـ أـنـ يـرـدـ عـلـىـ الرـجـلـ ماـ اـسـتـخـرـجـ مـنـهـ، وـيـقـرـرـ خـرـاجـهـ عـلـىـ مـاـ كـانـ فـيـ أـيـامـ الـبـرـامـكـةـ، فـبـكـيـ الشـيـخـ بـكـاءـ شـدـيـداـ، فـقـالـ لـهـ الـمـأـمـونـ: «ـأـلمـ أـسـتـأـنـفـ بـكـ جـمـيـلاـ؟ـ»ـ فـقـالـ: «ـبـلـ، وـلـكـ هـذـاـ مـنـ بـرـكـةـ الـبـرـامـكـةـ!ـ»ـ فـقـالـ: «ـامـضـ مـاصـاحـبـاـ، فـإـنـ الـوـفـاءـ مـبـارـكـ وـحـسـنـ الـعـهـدـ مـنـ الإـيمـانـ.ـ»^{٩٦}

وـعـلـىـ ذـلـكـ شـبـ جـعـفـرـ وـالـفـضـلـ اـبـنـاـ يـحـيـىـ وـسـائـرـ الـبـرـامـكـةـ، وـتـوـسـعـواـ فـيـ السـخـاءـ حـتـىـ عـيـنـواـ الرـوـاتـبـ لـأـهـلـ الـحـاجـاتـ، فـقـدـ ذـكـرـنـاـ فـيـماـ تـقـدـمـ أـنـ غـلـتـهـمـ بـلـغـتـ ٢٠٠٠٠٠٠ دـيـنـارـ فـيـ السـنـةـ، فـلـمـ قـتـلـ جـعـفـرـ وـقـبـضـتـ أـمـوـالـهـمـ وـجـدـوـاـ ١٢٠٠٠٠ دـيـنـارـ فـيـ بـدـرـ مـخـتـومـةـ وـعـلـيـهـاـ صـكـوكـ لـأـنـاسـ عـلـىـ سـبـيلـ الرـوـاتـبـ أـوـ الـصـلـاتـ أـوـ نـحـوـ ذـلـكـ، وـمـنـ فـنـونـ سـخـائـهـمـ أـنـ الـفـضـلـ بـنـ يـحـيـىـ كـانـ يـكـتـبـ رـقـاعـاـ بـخـطـهـ فـحـواـهـاـ «ـامـضـ إـلـىـ فـلـانـ الـصـيـريـ وـخـذـ مـنـهـ كـذـاـ دـيـنـارـ!ـ»ـ حـسـبـاـ يـجـريـهـ اللـهـ عـلـىـ يـدـهـ، وـيـرـكـبـ فـيـ الـلـيـلـ أـوـ فـيـ الـقـائـلـةـ وـيـخـتـرـقـ شـوـارـعـ الـبـلـدـ وـيـنـتـرـهـاـ فـيـهـاـ، وـسـئـلـ عـنـ ذـلـكـ فـقـالـ: «ـأـرـدـتـ أـنـ يـصـلـ بـرـيـ إـلـيـ مـنـ لـاـ يـصـلـ إـلـيـ وـلـاـ أـعـرـفـهـ وـلـاـ يـعـرـفـنـيـ.ـ»ـ فـإـذـاـ وـجـدـ أـحـدـ رـقـعـةـ مـضـيـ بـهـ إـلـىـ الـصـيـريـ

فيأخذها منه ويعطيه ما فيها، وعند الصيرفي أمين جالس لئلا يصالحه على بعضها، ولا يعطي لأحد غير رقعة واحدة ولا يسأل عنه ولا يثبت اسمه، وربما جاءت بيد الصبي والمرأة والذمي فيأخذ ما فيها.^{٩٨}

واشتهر من وزراء الدولة العباسية بالسخاء بعد البرامكة آل الفرات في أيام المقدتر، فكانوا يفرضون الرواتب للعلماء والأدباء والفقهاء وأهل الفاقة، وقد نكبا كما نكب البرامكة، ولكن شهرة البرامكة غلت على سواهم، فأصبحوا مضرب الأمثال في الكرم، ولا يزال الناس يتداولون أخبارهم ويتمثلون بسخائهم ويستثنون أريحية العظماء على السخاء بما يرون من أحاديثهم، حتى ظنها بعضهم موضوعة لهذه الغاية، ولا يبعد أن تكون رغبة الناس في الاستحساث بعثت على المبالغة في بعضها، ولكنها صحيحة على إجمالها؛ قال السلطان العادل الأيوبي مرة وقد جرى ذكر البرامكة وأمثالهم من الكرماء: «هذا كذب مختلق من الوراقين ومن المؤرخين، يقصدون بذلك أن يحركوا همم الملوك والأكابر للسخاء وتبذير الأموال».

فقال بعض الحضور: «يا خوند، ولأي شيء يكذبون عليك؟»^{٩٩}

السخاء على الشعراء والمغنين

واعتبر ذلك في سخائهم على الشعراء، فقد كانت إجازة الشعراء قاعدة عامة من أوائل الإسلام لأسباب تقدم ذكرها، ويشبهه ذلك ما تنفقه بعض الدول اليوم على الصحافة لتنصرها أو تأخذ بيدها في نشر مبدأ أو رأي.

وتعدوا أن يسموا ما يُعطى للشاعر جائزة أو صلة، كما يسمون ما يُعطى للصحف إعانة أو راتبًا، على أن بعض الخلفاء كانوا يفرضون للشعراء رواتب يتناولونها مشاهرة أو مسانحة، وربما عدوا الجائزة راتبًا يناله الشاعر إذا وفد على الخليفة أو الأمير في يوم معين من السنة، وقد تكلمنا عن الشعر وسائل أحواله فيما تقدم، ونحن ذاكرون سخاء الخلفاء على الشعراء في إبان الحضارة.

أول من جاد على الشعراء في الإسلام بنو أمية، وأسخاهم الوليد بن يزيد، وهو أول من عد أبيات الشعر وأعطى على كل بيت ألف درهم، ^{١٠٠} واقتدى به من جاء بعده منهم، أما العباسيون فزادوا القيمة وأعطوا على القصيدة في مدحهم ١٠٠٠٠ درهم، وأول من نال هذه الصلة منهم مروان بن أبي حفصة وصله بها المهدى على قصيدة مدحه بها مطلعها:

«طرقتك زائرة فحي خيالها»^{١٠١}

ومدحه سلم الخاسر بقصيدة مطلعها:

«حضر الرحيل وشدت الأحداج»

فأراد أن ينقص له من جائزه مروان فلطف أنه لا يأخذ إلا مائة ألف درهم، ويقال: إنه أعطاه إياها^{١٠٢} والغالب أنه أعطاه مائة ألف فقط، وإنما أضيفت الألف الأخرى خطأ من النساخ.

وكان المنصور قبله بخيلاً على الشعراء، إذا أحب أن يعطي شاعره أبا دلامة فرض على الهاشميين دينارين ليعطيها له.^{١٠٣}

أما الرشيد فأعطى مروان كما كان يعطيه المهدى، أي مائة ألف درهم^{١٠٤} وأعطاه مرة ٥٠٠٠ درهم وعشرة من الرقيق، وكان يعطي أبا العطاية راتباً سنوياً مقداره ٥٠٠٠ درهم غير الجوائز والمعاون،^{١٠٥} وفاقه المتوكل في ذلك؛ لأنه أعطى حسين بن الضحاك ألف دينار عن كل بيت من قصيدة قالها، وهو أول من أعطى ذلك،^{١٠٦} وكان المعتصم إذا أعجبه قول الشاعر ملأ فمه جوهراً، وقد سبقه إلى ذلك يزيد بن عبد الملك.^{١٠٧} وتشبه الوزراء والأمراء بالخلفاء، فكان خالد القسري يجلس للشعراء في مقام معين ويجيزهم، وكذلك آل المهلب فإنهم فرضوا لهم الأعطيية والجوائز.^{١٠٨} أما في الدولة العباسية فالبرامكة لم يدخلوا وسعاً في إجازة الشعراء، خصوصاً الفضل بن يحيى، وقد قال فيه بعضهم:

ما لقيتا من جود فضل بن يحيى ترك الناس كلهم شعراء^{١٠٩}

وكان أبوه يحيى إذا لقيه شاعر ولم يكن معه مال أعطاه دابته،^{١١٠} وقد فاق البرامكة الخلفاء في إجازة الشعراء، فنال شاعرهم أبان اللاحقى على قصيدة واحدة ما ناله مروان بن أبي حفصة من الرشيد كل عمره،^{١١١} وقس على ذلك سخاء سائر الوزراء والأمراء، فإن يزيد بن مزيد أعطى نصف ماله لشاعر.^{١١٢}

ويقال نحو ذلك في سخائهم على المغنين، فقد أعطى المهدى دحمان المغني في ليلة واحدة ٥ دينار؛ لأنه أطربه، وأعطى الأمين إسحاق الموصلي ١٠٠٠٠ درهم؛

لأنه غناه شعرًا في مدحه، فحملها إلى داره مائة فراش،^{١١٣} وكان الهادي يجري على إبراهيم الموصلي عشرة آلف درهم في الشهر سوى صلاته، أما الرشيد فكان إذا طرب وهب وجاد حتى ول إسماعيل بن صالح مصر؛ لأنه أطربه بغنائه،^{١١٤} وأخبار الشعراء والمغنيين كثيرة لا محل لها.

واقتدى بسخاء العباسيين ورجال دولتهم سائر رجال الدولة الإسلامية، وإن لم يبلغوا شأوهם.

(٦-٣) المسكر

كان المسكر شائعاً قبل الإسلام في الشام والعراق وفارس ومصر وجزيرة العرب وغيرها، وكان ملوك الفرس يقبلون على اللذات والمسكرات، ويقال: إن الرومانيين لم يتعدوا المسكر إلا بعد فتحهم آسيا، على أن عقلاه الناس كانوا يحرمون شربه حتى في جاهلية العرب، فإن جماعة منهم حرموا على أنفسهم وأهلهما، وإذا عرب أحدهم بالسكر وتكرر ذلك منه خلعه قومه ونفوذه، فلما جاء الإسلام ورد النص بتحريمه، وأقيمت الحدود في منعه: الجلد والحبس وحلق الرأس أو اللحية والشوارب أو قطع العطاء، وعاقبوا بائعيه وكسرموا أوانيه ولا سيموا في عصر الراشدين وأوائل أيامبني أمية، حتى عنف عمر بن الخطاب خالد بن الوليد على تدلكه في الحمام بغسل فيه خمر، وقال له: «إن الله حرم ظاهر الخمر وباطنها ومسها فلا تمسوها بأجسادكم». ومع ذلك فاختلط المسلمين بأهل البلاد المفتوحة عودهم إليها، حتى شرب جماعة من الصحابة وأبنائهم فوقعوا تحت طائلة العقاب، وأول من عوقب على شربها وحشى بن حرب قاتل حمزة،^{١١٥} ثم عوقب غير واحد منهم ومن أبنائهم، وفيهم جماعة من الكبار كالوليد بن عقبة، ويزيد بن معاوية، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب وأخويه عبد الرحمن وعااصم، والعباس بن عبد الله بن عباس، وقدامة بن مظعون، وعبد العزيز بن مروان، وعبد الرحمن بن عبد الله الثقفي القاضي، وأبي محجن الثقفي وغيرهم.^{١١٦}

ومما ساعد على إقبال نفر من المسلمين على الخمر أن بعض الخلفاء الأمويين كانوا يشربونها، كيزيد بن معاوية، وعبد الملك بن مروان، ويزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد،^{١١٧} والوليد هذا أول من وصف الخمر وتقدّل بها فسرق الشعراء معانيه وأدخلوها في أشعارهم، وتهتك الوليد في المسكر حتى حدثته نفسه أن يسكر فوق الكعبة، فخوفه أصحابه من الناس فأمسك، وقد أفسده وعلمته الخلاعة مؤديبه عبد الصمد بن عبد

الأعلى،^{١١٨} على أن رجال الحكومة كانوا يشددون في منع الخمر والحد عليها، حتى كثیراً ما كانوا يمنعون بيع العسل لئلا يصنعوا منها،^{١١٩} وأشهر من شد في منعها من الخلفاء عمر بن عبد العزیز الأموي والمهندي العباسي، ومع ذلك فقد كانت تزداد انتشاراً، باتساع أسباب الحضارة وذهب الدين واحتفال الناس بالغناء والجواري، حتى صاروا يشربونها جهاراً، و Ashtoner بشربها غير واحد من الخلفاء وأهلهما ورجال الدولة مع التهتك في مجالس الشرب، فعمد بعض المتملقين من الفقهاء ورجال الدين إلى انتحال المسوغات لشربها، فأخذوا يبحثون في الفرق بين أنواعها وميزوا بين المحلل والمحرم منها، فأجمعوا على تحريم الخمر واختلفوا في تحريم النبيذ، وفي أي أنواعه حلال وأيها حرام، ويقال بالإجمال: إن أهل العراق كانوا يستحلون النبيذ وأهل الحجاز يحرمونه.^{١٢٠}

والنبيذ يصنع من أكثر أنواع الفاكهة ولا سيما العنبر والتمر والتفاح والمشمش ومن الذرة، ويختلف باختلاف البلاد وباختلاف طرق عمله وهو عصير بعض هذه الأثمان أو منقوعها كما يُنقع الزيبيب اليوم (الخشاف).

وقد يضيفون إليه العسل أو الدبس أو يصنعونه من أحدهما مع الحب على النار،^{١٢١} وكانوا إذا أقبلوا على شربه صفوه وتناولوه بالأقداح الكبيرة، وربما صنعوا الخمر منه، وإذا صُفي في القنانى صعب تمييزه من الخمر أو منقوع الزيبيب أو مذاب العسل،^{١٢٢} فمن أحب الشرب استحل تناوله على أنه نبيذ، فإذا أكثر من شربه فعل فعل الخمر، وبعضهم كان يحلل قليل الخمر ويحرم كثيرها، وأخرون يحللون شرب الخمر إلا إذا أدت إلى السكر،^{١٢٣} ولكن الأكثرين حكموا بتحريمها، ولهم في ذلك أقوال يطول شرحها تراها مبسوطة في كتب الشرع.

فالخلفاء العقلاء الذين بلغنا أنهم سكروا في بعض مجالسهم كانوا يستحلون شرب النبيذ، وهو حلو منعش فيكترون منه حتى يسکروا، ويفيد ذلك أنهم كانوا يشربونه بالأرطاف، وإذا طال مكث النبيذ قبل شربه دب فيه الاختمار وتولد الكحول ولو قليلاً، وقد يطول مجلس الشراب فيذكر الشاربون ويعربدون، وربما أتوا في سكرهم بما لا يأتيه غير المجانين، وأفظع ما يُروى من هذا القبيل أن الملك الناصر ابن الملك المعظم الأيوبي كان إذا سكر يقول: «أشتهي أن أرى غلامي فلاناً طائراً في الهواء!» فُيرمى بذلك المسكين بالمنجنيق، ويراه في الهواء فيضحك ويشرب ويقول: «أشتهي أن أشم رائحة فلان وهو يُشوى!» فيُحضر ذلك الرجل ويقطع لحمه ويُشوى،^{١٢٤} وكتب التاريخ والأدب مشحونة بأخبار مجالس الشراب، وهي في الغالب مجالس الغناء، ويندر أن يترفع خليفة أو وزير

عنها، ومن أكثر العباسيين رغبة فيها الهادي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، وأكثرهم نفراً منها المنصور والمهти. واشتهر من الفاطميين بالتهتك بها المستنصر^{١٢٥} واشتهر بمقاومتها الحاكم بأمر الله، وكثيراً ما أمر بإراقة الخمور وإراقة العسل حتى لا تُصنع منه.

أما العامة فانغمس الكثيرون منهم في المسكر وشربوه على أنواعه، شأنهم في كل زمان وإن لم يشربه حكامهم، فكيف إذا كانوا يشربون؟ والغالب في شاريبي التبizz أن ينبذوه في بيوتهم، وبعضهم يشربه عند إخوانه، وأخرون يتناولونه في الحانات وكانت كثيرة، وأكثر أصحابها من اليهود، وقد يشربون الخمر في الأديار وخرمها مشهورة بجودتها.

(٧-٣) التهتك

وطبيعي فيما قدمناه من الحضارة والترف أن يعتورها شيء من التهتك والفحشاء، وإن كان ذلك لا يخلو منه قوم مهما بلغ من بعدهم عن الحضارة، ولكن يكثرا غالباً في المتحضرين، لسكن خواطيرهم وتتوفر أسباب الرغد والتنعم عندهم، كان في جاهلية العرب جماعة من البغایا لهن رايات ينتحيها الفتیان، وكان بعض الناس يكرهون إماءهم على البغاء يبتغون عرض الدنيا،^{١٢٦} ولكن ذلك شأن الحضر منهم؛ لأن البدو أقرب إلى صحة الآداب، فاعتبر كم تكون أسباب التهتك أوفر في المدن الكبرى، حيث تتزاحم الأقدام وتتوفر الثروة وتكثر الجواري ويتفشى الغلاء والمسكر، كما كان شأن بغداد وقرطبة والقاهرة والفسطاط في إبان ذلك التمدن، فلا غرو إذا تفشت الفحشاء فيها ولا سيما في العصور الوسطى، حتى صار البغاء في بعض الأحيان صناعة عليها رئيس يحکم إليه البغاءون عند الحاجة،^{١٢٧} وتقنعوا في ترويج تلك البضااعة بتصوير النساء على جدران الحمامات،^{١٢٨} وأصبح أهل القصص من الأغنياء يصورون حظايمهم على جدران منازلهم كما فعل ابن طولون، وكان الحكام العقلاء يبذلون جهدهم في منع الفحشاء ويقاومون تيارها بما في إمكانهم،^{١٢٩} ولما عجزوا عن كف أذاتها بالقوة ضرب بعضهم عليها ضرائب يدفعها أصحابها مثل سائر التجارات.^{١٣٠}

وأصبح ما ظهر من التهتك في أثناء هذا التمدن مغازلة الغلمان وتسريهم، وظهر ذلك على الخصوص في أيام الأئمين، وتکاثر بتکاثر غلمان الترك والروم من أيام المعتصم وفيهم الأرقاء بالأسر أو بالشراء، وتسابق الناس إلى اقتناصهم كما تسابقوا إلى اقتناص الجواري

وغالوا في تزيينهم وتطيباتهم، وكانوا يخسونهم ليأمنوا تعديهم على نسائهم وجواريهم، وفشا حب الغلمان في أهل الدولة بمصر وتغزل بهم الشعراء^{١٣١} حتى غارت النساء من ذلك فعمدن إلى التشبه بالغلمان في اللباس والقيافة ليستعلنن قلوب الرجال.^{١٣٢}

وكثرة الجواري في بعض القصور جرتهن إلى التفنن في أساليب الفحشاء، وربما اتخذت كل جارية خصيًّا لنفسها كالزوج، كما فعلت جواري خمارويه صاحب مصر،^{١٣٣} حتى النساء الشريفات فإن قعودهن عن الزواج لعدم وجود الأكفاء أو لأسباب أخرى كان يجرهن إلى مثل ذلك فتكاثر الفساد فيهن لقلة التزويج،^{١٣٤} ذكروا أن ابنة الإخشيد صاحب مصر اشتهرت جارية لتمتع بها، وبلغ المعاذ لدين الله الفاطمي ذلك — وكان لا يزال في الغرب يتحفظ للوثوب على مصر ويختلف الفشل — فلما بلغه ما فعلته ابنة الإخشيد استبشر وقال: «هذا دليل السقوط». وجدن على مصر وفتحها، والعفاف سياج العمران.

هوامش

- (١) الجزء الثاني من هذا الكتاب.
- (٢) لطائف المعارف ٧٢.
- (٣) العقد الفريد ٢٢ ج ٢.
- (٤) المقرizi ١٥٥ ج ٢.
- (٥) المقرizi ٣٠١ ج ١.
- (٦) ابن الأثير ١٠٣ ج ٥.
- (٧) المسعودي ٣١٤ ج ٢، وابن خلكان ٣١٩ ج ٢.
- (٨) سير الملوك ١١٣.
- (٩) ابن خلدون ١٤٥ ج ١.
- (١٠) ابن خلدون ١٧٠ ج ١.
- (١١) طبقات الأطباء ١٧٥ ج ١.
- (١٢) لطائف المعارف ٩٥، وابن بطوطة ٣ ج ٢.
- (١٣) طبقات الأطباء ١٤٠ ج ١.
- (١٤) المسعودي ١٩٩ ج ٢.
- (١٥) تاريخ الوزراء ٣٥١.

- (١٦) الفخرى .٢٣٢
(١٧) الفخرى .٢٧٦
(١٨) المقرizi ٣١٨ ج ١.
(١٩) المسعودي ٢٦٧ ج ٢، والفرج بعد الشدة ١٠٢ ج ٢.
(٢٠) الفخرى ٢٥، و٦٦.
(٢١) العقد الفريد ٦ ج ١.
(٢٢) ابن خلدون ١٦٩ ج ١.
(٢٣) المستطرف ٤٠ ج ٢، والعقد الفريد ٢٦٦ ج ٢.
(٢٤) ألف باء ١٨٧ ج ٢.
(٢٥) المقرizi ٤٠٩ ج ١.
(٢٦) المقرizi ٣١٩ ج ١.
(٢٧) ابن خلدون ٢١٧ ج ١.
(٢٨) الفخرى .٧٤
(٢٩) ابن الأثير ٢٥٥ ج ٢.
(٣٠) ألف باء ١٨٧ ج ٢.
(٣١) الأغاني ١٢٩ ج ٦.
(٣٢) الدميري ٥٨ ج ١.
(٣٣) ابن خلدون ١٤٥ ج ١.
(٣٤) الفرج بعد الشدة ١٠٣ ج ١.
(٣٥) لطائف المعارف ٩٥.
(٣٦) الأظليدي .٩٨
(٣٧) الأغاني ٤١ ج ١٥.
(٣٨) المستطرف ١٣٤ ج ١.
(٣٩) المسعودي ٣٦٦ ج ١.
(٤٠) الأغاني ٨١ ج ١٢.
(٤١) المسعودي ١٩٦ ج ٢.
(٤٢) العقد الفريد ١٨٤ ج ٣.
(٤٣) ابن الأثير ٢٤ ج ٣.

- (٤٤) المسعودي ٣٠٠ ج ٢.
- (٤٥) الأتلبي ١٤١.
- (٤٦) الطبری ١٨٩ ج ٢.
- (٤٧) الأغاني ٨٣ ج ٩.
- (٤٨) المسعودي ٣٦٦ ج ٢.
- (٤٩) ابن خلدون ١٥ ج ١.
- (٥٠) ابن خلدون ١٤٥ ج ١.
- (٥١) المسعودي ٢٠٥ ج ٢.
- (٥٢) المقرizi ٤٧٢ ج ١.
- (٥٣) المقرizi ٤٢٥-٤٠٩ ج ١.
- (٥٤) ابن خلدون ٣٠٢ ج ١.
- (٥٥) ابن الأثير ١٦٥ ج ١١.
- (٥٦) نفح الطيب ٧٣١ و ٧٣٢ ج ٢.
- (٥٧) نفح الطيب ٢٠٨ ج ١.
- (٥٨) ابن خلكان ٨٧ ج ١، و ٦٣ ج ٢.
- (٥٩) ابن الأثير ٢٦ و ٩٢ ج ٣.
- (٦٠) ألف باء ٣٤٧ ج ٢.
- (٦١) ابن الأثير ٢٩ ج ٣.
- (٦٢) ابن خلكان ٣٢٠ ج ١.
- (٦٣) Gibbon, 11. 205.
- (٦٤) الجزء الرابع من هذا الكتاب.
- (٦٥) المسعودي ٢٧٩ ج ٢.
- (٦٦) الأغاني ١٣٣ ج ١٩.
- (٦٧) ابن خلكان ٥٧ ج ١.
- (٦٨) الأغاني ٨٨ ج ٩.
- (٦٩) الأتلبي ٦٧.
- (٧٠) المسعودي ٢٠٨ ج ٢.
- (٧١) المسعودي ٣٦٦ ج ٢.

- (٧٢) المقريزي ٣٦ ج ١.
- (٧٣) المقريزي ٤٨٥ ج ٢.
- (٧٤) المقريزي ٤٩٧ ج ١.
- (٧٥) العقد الفريد ٢٠٣ ج ٣، والمستطرف ١٣٢ ج ٢.
- (٧٦) الطبرى ١٣٣٢ ج ٢.
- (٧٧) العقد الفريد ٤٣ ج ٣، والأغاني ١٤٥ ج ١٥.
- (٧٨) الأغاني ٧١ ج ١١.
- (٧٩) ابن خلkan ٢٦٦ ج ٢.
- (٨٠) الأغاني ١٣٠ ج ١.
- (٨١) الفرج بعد الشدة ٢٣ ج ٢.
- (٨٢) لطائف المعارف ١٦.
- (٨٣) فوات الوفيات ٢٠ ج ١.
- (٨٤) سير الملوك ٦٥ و ٦٦.
- (٨٥) الأغاني ٩٨ ج ١٨.
- (٨٦) المستطرف ١٣٥ ج ١.
- (٨٧) الأغاني ٨٨ ج، و ١٢٤ و ١٧.
- (٨٨) ابن الأثير ٤٢ ج ٦.
- (٨٩) المستطرف ١٣٣ ج ١.
- (٩٠) الأغاني ١١٨ ج ١٨.
- (٩١) طبقات الأطباء ١٢٨ ج ١.
- (٩٢) فوات الوفيات ٢٤٠ ج ١.
- (٩٣) الأغاني ٣ ج ١١.
- (٩٤) الأغاني ٣٦ ج ٣.
- (٩٥) ابن خلkan ٢٤٤ ج ٢.
- (٩٦) الفرج بعد الشدة ٢٢ ج ٢، وسير الملوك ١١١ والأتلidiي ١٣٢.
- (٩٧) العقد الفريد ٢٢ ج ٣.
- (٩٨) ترتيب الدول ٢٢.
- (٩٩) نفح الطيب ٤٧٢ ج ١.

- (١٠٠) ابن الأثير ١٣٧ ج٥، والأغاني ١٤٨ ج١٧، و ٣٩ ج٩.
- (١٠١) ابن خلكان ١١٢ ج٢.
- (١٠٢) ابن خلكان ١٩٨ ج١.
- (١٠٣) الأغاني ١٢٨ و ١٢١ ج٩.
- (١٠٤) الأغاني ١٩ ج١٢.
- (١٠٥) الأغاني ١٥٧ ج٢.
- (١٠٦) الأغاني ١٨٤ ج٦.
- (١٠٧) الأغاني ١٧٤ ج٦، و ١٤٧ وج١.
- (١٠٨) الأغاني ١٦٤ ج١١.
- (١٠٩) ابن خلكان ٤١١ ج١.
- (١١٠) الأغاني ٨ ج٥.
- (١١١) الأغاني ٧٣ ج٥.
- (١١٢) ابن خلكان ٢٨٥ ج٢.
- (١١٣) الأغاني ٩٩، و ١٤٢ ج٥.
- (١١٤) حلبة الكميٰت ٦٣ و ٦٤.
- (١١٥) المعارف لابن قتيبة ١١٢.
- (١١٦) العقد الفريد ٣١٤ ج٢.
- (١١٧) الأغاني ١٥٤ ج١٩، و ١٥٧ ج١٣، والعقد الفريد ٣١٤ ج٣.
- (١١٨) ابن الأثير ١٢٤ و ١٣٦ ج٥.
- (١١٩) المقربزي ٢٩٧ ج٢.
- (١٢٠) ابن الأثير ٣٦ ج٦، وابن خلدون ١٥ ج١.
- (١٢١) كتاب البخلاء ٥١.
- (١٢٢) الأغاني ٤ ج٥، و ١١٢ ج٤، و ٣٥ ج٢.
- (١٢٣) العقد الفريد ٣٠٩، و ٣١٨ ج٣، و ٢٧٠ ج٢، وألف باء ٨١ ج١.
- (١٢٤) فوات الوفيات ١٥٧ ج١.
- (١٢٥) المقربزي ١٥٤ ج٢.
- (١٢٦) العقد الفريد ٢ ج٣.
- (١٢٧) الفرج بعد الشدة ١٤٣ ج٢.

الثروة والرخاء ونتائجهما

- (١٢٨) ابن خلكان ١٢٧ ج ٢، ونفح الطيب ٨٦٠ ج ٢.
- (١٢٩) ابن الأثير ٩٥ ج ١٠، و ٢١٥ ج ١١، والمقرizi ٣١٦ ج ١.
- (١٣٠) المقرizi ٨٩ ج ١.
- (١٣١) تزيين الأسواق ١٦٣.
- (١٣٢) المقرizi ١٠٤ ج ٢.
- (١٣٣) ابن الأثير ١٨٨ ج ٧.
- (١٣٤) الفرج بعد الشدة ٦١ ج ٢.

أبهة الدولة

الأبهة «العظمة والبهجة والكبر والنخوة»، ونريد بها مظاهر الدولة في أبهج أحوالها وأفخم أطوالها، والبحث فيها يتناول النظر في مجالس الخلفاء ومواكبهم وضخامة دولتهم وألعابهم ولماهיהם وملابسهم، وغير ذلك مما سنفصله، ولما كانت الدولة العباسية أسبق الدول الإسلامية إلى تلك المظاهر وقدوتها فيها، رأينا أن نحصر كلامنا عن الأبهة في العصر العباسي، مع ما يقتضيه المقام من الاستشهاد بما عند الدول الأخرى فنقول:

(١) مجالس الخلفاء

يختلف مجلس الخليفة شكلاً وأبهة باختلاف الدول، وفي الدولة الواحدة باختلاف أطوارها، وفي كل طور باختلاف المراد منها، فكانت مجالس الراشدين في المسجد أو المنزل، يقعدون على حصير أو جلد يلتغون بعباءة أو نحوها، فيدخل عليهم الناس في حوائجهم ويختاطبونهم بأسمائهم، لا يستنكفون من ذلك ولا يرون فيه ضعة، وإذا خرج أحد قوادهم للفتح مشى الخليفة لوداعه بلا حرس ولا بنود ولا طبول، وأوصاه بالتؤدة والصبر مع الرفق والعدل، وكان عمالهم في الأمصار على نحو ذلك، على أن العمال — نظراً لإقامتهم في مدن عمرها الفرس أو الروم مع ما رأوه من أحوال تينك الدولتين — كانوا أقرب إلى مظاهر الأبهة، وكان الخلفاء إذا علموا بذلك أنبوهم كما فعل عمر لما علم أن سعد بن أبي وقاص أمير الكوفة اتخذ قصراً وجعل عليه باباً، فأرسل إليه رجلاً من خاصته وأمره أن يحرق الباب عليه ففعل.

ثم إن طبيعة العمran غلت على تلك السذاجة، فتدرج الخلفاء والأمراء في مظاهر الأبهة واتخاذ الحجاب؛ بدأ بذلك معاوية بن أبي سفيان، وأعانه عليه أمراوه في العراق ومصر، وعملوا مثل عمله وأشاروا عليه بضرورب من الفخامة كان عليها ملوك تلك البلاد قبلهم، واقتدى بهم سائر خلفاءبني أمية، وزاد العباسيون أسباب الأبهة بمن قربوهم من الفرس، فأدخلوا في الدولة كثيراً مما كان عليه الأكاسرة في مجالسهم وسائر أحوالهم، فتعددت تلك المجالس وأصبحوا يجلسون مجلساً للحكم وأآخر للمنادمة أو للمناظرة أو للمذاكرة أو غيرها، ويختلف المجلس باختلاف ذلك فخامة وترتيبها.

على أن مؤسسي الدول قلما كانوا يجلسون لغير العمل والنظر في شئون الدولة، فمعاوية بن أبي سفيان^١، وأبو جعفر المنصور^٢، كانوا يوزعن ساعات النهار على ما لديهما من الأعمال من إدارة وسياسة ومقاومة ومطالعة، أما في أواسط الدولة فتعددت المجالس، والمراد هنا بالأكثر المجلس الذي كانوا يجلسونه للنظر في مصالح الدولة.

(٤-١) شكل المجلس وفرشه

قلنا إن الراشدين وعمالهم كانوا يجلسون في المساجد؛ لأن الإسلام كان لا يزال غضاً، فلما جعله الأمويون دولة جلسوا في قصور كانت للدولة السابقة أو بنوا قصوراً لأنفسهم نصبوا بها الأسرة والكراسي، وافتشروا الطنافس والمصليات والوسائل وعلقوا الستور وأقاموا الحجاب، فالأسرة أول من اتخذها معاوية، قلد بها بطاقة الروم في الشام وكذلك الستور والطنافس، وأما الكراسي فيظهر أنه قد بها مرازبة الفرس؛ لأن أول من استخدمها من أمراء المسلمين زياد بن أبيه عامله على فارس^٣، فلعله نقلها إلى الشام، وقد يكون معاوية اقتبسها من الروم رأساً، وقس على ذلك سائر ما أدخلوه من مظاهر الأبهة من الطراز ونقش الأشعار في صدور المجلس، وفرش الدبياج والخز واصطناع الأسرة من الأبنوس أو الصندل أو العاج أو الذهب أو غيرها.

وبعد أن كانت مصالح الدولة تجتمع في بناء واحد اختصت كل منها بإدارة، وأصبح بعض كبار الرجال إدارات خاصة بأعماله تشبه ما للخلفاء من إدارات الكتاب والحساب والأطباء وغيرهم^٤، وكان مجلس الحكم في العصر العباسي داران، دار خاصة ودار عامة، مجلس الخليفة في الأولى مع رجال الدولة أو من يفديه من كبار الأمراء أو الملوك، وينظر في الثانية في سائر الشئون ويعقد بها المجالس الاعتيادية.

ومجلس في إبان الحضارة كان ينعقد في قاعة أو بهو كبير، على جدرانه صور ممثلة بالذهب والفضة لما في البر والبحر من شجر أو حيوان أو جبال، ويكسو أرضه

بساط واحد أو عدة أبسطة من الديباج أو نحوه، وفي أطراف البهو مناور من الذهب أو الفضة توضع عليها الشموع،^٦ ويسبل على أبواب المجلس ونواذه ستائر من الحرير أو غيره مطرزة بشارة الدولة أو بأشعار أو حكم أو آيات أو أحاديث أو رسوم مدن أو أنهر أو جبال.

وفي وسط القاعة سدة أو سرير يجلس عليه الخليفة،^٧ يصنع من العاج أو الأبنوس أو الصندل يحلى بالذهب، وقد غالى الفاطميون في النفقة على الأسرة حتى يدخل في الواحد منها ١١٠٠٠ مثقال من الذهب الإبريز الخالص،^٨ وقد يجعل الخليفة بين يديه بعض التحف أو نحوها للزينة أو التشاغل بها، فالمعتمد الأندلسي كانوا يضعون أمامه في المجالس تماثيل عنبر من جملتها جمل مرصع بالذهب واللؤلؤ وجمل من بلور له عينان من ياقوت وقد حلي بنفائس الدر.^٩ ولما كان الخلفاء يحتاجون عن الناس كانوا يعلقون في وسط القاعة ستراً بينهم وبين الجلساء،^{١٠} أو يسترون عنهم وراء شباك مخمر، على أن فرشهم يختلف في الشتاء عنه في الصيف، فيضاف إليه في الشتاء موقد النار يستجر فيها الند والعود ويلبسون الفراء اللاتقة بالوقت على أشكالها.^{١١}

(٢-١) مجالسة الخلفاء

الاستئذان في الدخول

كان الاستئذان على الخليفة في عصر الراشدين أن يقف الرجل بالباب ويقول: «السلام عليكم، أدخل؟» يكرر ذلك ثلاثة، فإن لم يؤذن له لم يعدها،^{١٢} وربما أقام الراشدون الحجاب لمنع الزدحام أو للإستئذان في بعض الأحوال، فلما انقضى ذلك العصر أقيمت الآذون والحجاب يتوضطون للناس في دخولهم على الخليفة بحسب طبقاتهم وفي أوقات معينة لكل طبقة من الجلساء أو الأدباء أو الشعراء أو غيرهم،^{١٣} أما في المجالس العامة فيقدمون الناس حسب مراتبهم.

وأول من رتب المراتب في الدخول على الخليفة زياد بن أبيه في العراق، أشار عليه بذلك حاجبه عجلان ولعله اقتبسها من الفرس، فجعل الإنذن للناس على البيوتات ثم على الأسنان ثم على الآداب،^{١٤} وصار ذلك سنة في الاستئذان على الخلفاء في عصر الأمويين، فإذا استأذن جماعة في الدخول على الخليفة أو الأمير يؤذن أولاً لأشرفهم نسبياً، وإذا تساوا في النسب قدموا أكبرهم سنّاً، فإذا تساوا في السن قدموا أكثرهم أدباً، وظلت هذه القاعدة مرعية في سائر العصور الإسلامية.

وكانوا في أيام بني أمية وفي أوائل الدولة العباسية إذا وفد الناس على الخليفة أو الأمير وقفوا ببابه يلتمسون الإذن، فإذا أذن لهم أو يصرفهم، فإذا صرفهم عادوا ثانية وإذا لم يؤذن لهم هذه المرة عادوا ثالثة حتى يؤذن لهم أو يملوا، ويغبون عن ذلك بقولهم الإذن الأول والثاني والثالث إلخ،^{١٤} ثم جعلوا للوافدين على الخليفة منازل بجوار دار العامة يقيمون فيها ريثما يؤذن لهم، وأول من فعل ذلك المنصور العباسي لما بني بغداد، فاتخذ في قصره بيوتاً للإذن، فجرى الأمر على ذلك في الدولة العباسية،^{١٥} فكان الوافد يقيم ريثما يستريح ثم يستأذن، وقد يلتمسون إذناً لدخول القصر وأخر لدخول المجلس.

الدخول على الخليفة والسلام عليه

فإذا أذن لأحدthem بالدخول تقدم وألقى التحية، وكانوا في أول الإسلام يحيون تحية عامة، فيقول الداخل على الخليفة أو الأمير أو الوالي: «السلام عليك» ويكرهون قولهم: «عليك السلام» لأنها تحية الموتى،^{١٦} وقد يضاف إلى التحية كنية الأمير أو الخليفة، ولا يزیدون على ذلك، فلما خالطوا الأعاجم، ورأوا تمييزهم بين الرئيس والرعوس، هموا بتقليلهم، وأول من قلدhem المغيرة بن شعبة فقال: «ينبغي أن يكون بين الأمير ورعيته فرق». وألزم أهل عمله أن يؤمروه أي يحيوه تحية الأمراء وهي: «السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته»،^{١٧} أو «السلام على الأمير ورحمة الله» ففعلوا، واقتدى بهم سائر المسلمين، وميزوا الخلفاء بتحية الخلافة، فصاروا يقولون عند الدخول على الخليفة: «السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته»، أو «السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله»،^{١٨} وما زالت هذه تحيتهم حتى فسدت حضارتهم بالتملق ونحوه، فقلدوا الدول الأخرى بالتعظيم، وحظروا على الناس السلام على الخليفة لما فيه من تكليف الرد والجواب، واقتصرت تحيته على الخدمة والدعاء له، والخدمة تختلف بين أن تكون بانحناء الرأس والتطمأن والبلوغ إلى حد الركوع، وما زاد عليه فهو سجود ولا يجوز لغير الله.

وربما قبلوا يد الخليفة عند التحية، وكانوا في أوائل الإسلام يقبلونها عند البيعة أو تجديد العطاء، وعند العفو أو الوداع، وكان الصحابة يفعلون ذلك مع النبي ﷺ وظل متبعاً مع أكثر الخلفاء، ثم ترفع هؤلاء عن أن يلمس الناس أكفهم، فصار التقبيل للأحكام والعتبات على حسب الاقتدار، وإذا أراد الخليفة تشريف أحد قواه منعه من تقبيل يده أو كمه كما فعل الم Heidi مع مسلم بن قتيبة، فجذب يده منه وقال: «نصونك

عنها ولا نصونها عن غيرك».١٩ وقد يختلف ذلك باختلاف الناس واختلاف الدول وتباين الأحوال، فإن جوهر القائد لما ودع مولاه المعز لدين الله عند قدمه لفتح مصر أنزل المعز أولاده لوداعه، فنزلوا عن خيولهم ونزل أهل الدولة لنزولهم فقبل جوهر يد المعز وحاور فرسه.٢٠ وعبد الله بن مالك صاحب شرطة المهدى كان خائفاً من الهايدى؛ لأنَّه سبه قبل خلافته، فرأى منه رعاية وحلمًا فلم يتمالك عن تقبيل يده ورجله وحاور دابته،٢١ وكذلك فعل إبراهيم الموصلى فقبل حاور دابة الرشيد؛ لأنَّه تنازل لزيارته،٢٢ وكان أهل الدين والناس إذا دخلوا على الخليفة لا يدخلون مثل سواهم، بل يدخلون وعليهم السكينة والوقار.

والداخلون على الخليفة يجلسون في الموضع اللائق بمراتبهم، ويتولى إجلاسهم الحاجب أو الآذن، وكانت الرتبة الأولى بعد الخليفة في الدولة الأموية لبني أمية، يجلسون على الأسرة وبنو هاشم على الكراسي، وأما في الدولة العباسية فصارت الأفضلية لبني هاشم، وصاروا يسمونهم الملوك والأشراف، فيجلس الخليفة على السرير أو السدة، ويجلس بنو هاشم على الكراسي، ويقعد بنو أمية إذا حضروا على الوسائد تثنى لهم،٢٣ لكن الأمويين قلما كانوا يحضرون مجلس بنى العباس، بعد أن نكبوهم وقتلوا معظمهم وما بقي منهم أسقطت مرتبته في أيام المستعين سنة ٢٥٠هـ،٢٤ ويلي هؤلاء سائر طبقات الجلساء من أهل الدولة وغيرهم، وتتفاوت مراتب هؤلاء وتباين على مقتني الأحوال مما لا حد له.

الأدب في مجالسة الخلفاء

كانت مجالسة الخلفاء في صدر الإسلام مثل مجالسة سائر الناس، لما علمته من سذاجة الراشدين، وكانوا يخاطبون الخليفة باسمه أو كنيته، فيقولون: يا عمر ويتباحثون بلا احتراس ولا تهيب، لأسباب تقدم بيانها، فلما ضخم ملكهم وذهبت دهشة النبوة، عمل الأمويون على التشبيه بالدول المستبدة، وأخذ الدهاء من عمالهم بتعظيم أمر الخليفة وتفخيم منصبه وتتنزيه مجلسه عن مجالس سائر الناس، وأول من فعل ذلك زياد بن أبيه، فوضع القاعدة «أن لا يسلم على قادم بين يدي الخليفة»،٢٥ ثم منعوا الكلام في حضرة الخلفاء على الإطلاق، وأول من منعه عبد الملك بن مروان، وتجبر الخلفاء بعد ذلك حتى منعوا الناس من مخاطبتهم كما كانوا يخاطبون أسلافهم، وأول من تجبر الوليد بن عبد الملك، فكلف الناس أن لا يكلموه كما كانوا يكلمون أسلافه، وقال بعد كلام: «وإنني

أعطي الله عهداً يأخذني بالوفاء به لا يكلمني أحد بمثل ذلك إلا أتلفت نفسه، فلعمري إن استخفاف الرعية براعيها سيدعوها إلى الاستخفاف بطاعته والجرأة على معصيته.» وقال له رجل من بنى مرة يوماً: «اتق الله يا وليد فإن الكبriاء الله». فأمر به فوطئ حتى مات، فاتعظ الناس وهابوه،^{٢٦} وهو أول من منع الناس أن يكتبوه بما كانوا يكتبون أسلفه أو يكتبون بعضهم بعضاً.

ثم صارت القاعدة المرعية في مجالسة الخلفاء أن لا يُدعى لأحد في حضرتهم،^{٢٧} ولا ينحضر لداخل إلا إذا نھض الخليفة، ثم صارت رسوم أرباب الدواوين كبارهم وصغارهم إذا كانوا في دواوينهم لا يقومون لأحد من خلق الله من يدخل عليهم،^{٢٨} فلا يتكلم أحد في مجلس الخلفاء إلا إذا كلموه، أي لا يبدؤهم أحد بكلام، وجرت العادة أن يطلقوا الكلام للوادف عليهم بقولهم: «ما أنعمنا بك يا أبا فلان» وهي كلمة كانت تقولها العرب،^{٢٩} فيذكر الرجل ما جاء من أجله، وإذا لم يطلق له الكلام ظل ساكتاً.

وما زال ذلك سنة مرعية في مجالس الخلفاء، حتى أباح المأمون الكلام لأهل مجسه للمناظرة بين يديه،^{٣٠} واستمر ذلك بعده مع مراعاة الأحوال، أما مبادأة الخليفة بالكلام فأول من استطاعها أحمد بن أبي دؤاد وزير المعتضد.^{٣١} ولما استولى القواد على الأمور ضفت هيبة الخلفاء وذهب تكال الرسوم، حتى أصبح اللعب والضحك والهزل في مجالسهم، وأول من أباحها المتوكل على الله في أواسط القرن الثالث للهجرة.^{٣٢}

ومن آدابهم في ذلك المجلس أن لا يأمر فيه أحد غير الخليفة،^{٣٣} وإذا نھض نھض سائر الحضور، وأن يصغي الجليس إلى كلامه بكليته فلا يشغله عنه بشيء، ومن لطيف ما يروونه من هذا القبيل أن معاوية كان يحدث يزيد بن سحرة حدثاً، وابن سحرة مصح فشك جبينه حجر غائر فأدماه، فجعلت الدماء تسيل على وجهه ولحيته وثوبه ولم يتغير مما كان عليه من الاستماع، حتى نبهه معاوية إلى ذلك فأجابه: «إن حدث أمير المؤمنين ألهاني حتى غمر فكري وغطى على قلبي». فزاد معاوية عطاءه.^{٣٤}

والخلفاء لا يعزون، وإنما يقتصر على الدعاء لهم بدوام الظفر والسعادة من غير تطويل، ولا يقال لل الخليفة كيف أصبح ولا كيف أمسى، ولا يُسأل عن حاله ولا يطلب في تحسين كلامه ولا أفعاله، ولا يستعاد منه الكلام ولا يستزad ولا تحسن الإشارات في مجلسه ولا يغامر، ولا يشغله بحضوره بوداع راحل ولا سلام قادم،^{٣٥} ولا يليق أن يرد على الخليفة بلفظ «لا» فيحتمل في التخلص منها،^{٣٦} وقد قالوا في الاحتراس في مخاطبة الملوك: «من أراد مصاحبة الملك فليدخل كالاًعمى وليخرج كالآخرين».«^{٣٧} ومن

أمثلة التأدب في مخاطبة الخلفاء أن عبد الملك بن صالح وجه إلى الرشيد فاكهه في أطباقي الخيزران وكتب إليه: «أسعد الله أمير المؤمنين وأسعدني به، إني دخلت إلى بستان لي أفادتيه كرمك وعمرته لي نعمك، قد أينعت أشجاره وآتت ثماره، فوجهت إلى أمير المؤمنين منه شيئاً على الثقة والإمكان في أطباقي القضبان، ليصل إلى من بركة دعائه مثل ما وصل إلى من كثرة عطائه». فاستحسن الرشيد تكنيته عن الخيزران بالقضبان لأنه اسم أمه.^{٢٨}

وكان الحديث يجري في مجلس الخليفة في أول الإسلام باللغة العربية الفصحي، فيعربون الكلام ويضبطون حركات الألفاظ، فمن لم يستطع ذلك من الخلفاء عدوه لحانًا، فكان الأمويون يرسلون أولادهم إلى الباردية يشبون فيها ليضبطوا ألفاظهم، وقد أحسنوا ذلك إلا الوليد بن عبد الملك فإن أباه لم يرسله إلى الباردية فنشأ لحانًا، وكان أبوه يكره اللحن ومن أقواله: «اللحن في الكلام أقبح من التفتقى في التوب والجدرى في الوجه». ومنها: «تعلموا النحو كما تعلمون الفرائض». وكان يخاف اللحن إذا وقف للخطابة فيؤله ذلك، وسأله سائل: «لقد عجل إليك الشيب يا أمير المؤمنين». فقال: «شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن». وكذلك كان سائر بنى أمية، وللوليد أخبار في اللحن مضحكة،^{٢٩} وكان عمال بنى أمية مثل خلفائهم في المحافظة على الإعراب إلا الحجاج بن يوسف فقد كان يلحن أحياناً.^{٤٠} فلما استعجمت الدولة في زمان بنى العباس قلت عناء الناس بالإعراب، وظهر غير واحد من الفقهاء والعلماء يلحنون في كلامهم، كأبي حنيفة النعمان وأبى عبيدة وغيرهما.

احتياج الخلفاء عن جلساتهم

كان الخلفاء الراشدون يجالسون الناس ويختابونهم ولا يحتجبون عنهم، ثم احتجب الأمويون وجعلوا بينهم وبين الجلسة حجاباً، ووسطوا في حوائج الناس من يقضيها عنهم، وأول من احتجب معاوية بعد محاولة البرك بن عبد الله الخارجي سنة ٤٠ هـ قتله غيلة، وكان قد قعد له في المسجد فلما خرج ليصلِي الغدَّة شد عليه بالسيف فجرحه، فلما شُفي ابتنى هناك مقصورة يصلي فيها خوفاً من مثل ذلك، واحتجب عن الناس إلا من اختصهم بالمجالسة، واقتدى به الخلفاء بعده في أوائل دولتهم، وكذلك الأوائل من بنى العباس.^{٤١}

والحجاب كان شائعاً عند الفرس من عهد أردشير، فكانوا ينصبون في مجلس الملك ستارة بينها وبينه عشرة أذرع وبينها وبين الجلسة عشرة أذرع، فقلدتهم العباسيون،

ثم ضاعفوا الحجاب في بعض الأحوال، فاتخذوا عدة أ Starrar الواحد وراء الآخر إلى ثلاثة أو أربعة، وفعل ذلك وزراؤهم البرامكة أيضًا،^{٤٢} وجعلوا لقصورهم عدة أبواب الواحد وراء الآخر.^{٤٣}

كذلك كان شأن العباسين، من أبي العباس السفاح إلى المتوكل ومن بعده، إلا الهادى فإنه لم يحتجب عن أحد،^{٤٤} على أنهم كانوا يحتجبون غالباً عن الندماء والمغنين وسائر طبقات العامة، وليس عن الخاصة إلا أحياناً، فكانوا يقيمون عند الستارة حاجباً يسمونه صاحب الستارة، يتوسط في نقل ما يريد الخليفة إبلاغه إلى جلسائه أو ندمائه، واقتدى بالعباسيين غيرهم من الدول الإسلامية بمصر والأندلس.

علامة الصرف

وإذا أراد الخليفة صرف جلسائه أبدى إشارة يعرفونها فينصرفون، وهي عادة فارسية وضعها كسرى أنوشروان، فكان إذا أحب أن يصرف ندماءه مد رجله فينصرفون ... وتابعه ملوكهم على ذلك، فكان فيروز يدلك عينيه، وبهرام يرفع رأسه إلى السماء^{٤٥} وقدلهم فيها المسلمون من أيامبني أمية، فكان معاوية إذا أراد صرف الناس قال: «إذا شئتم» أو «العزّة لله»، وكان ابنته يزيد يصرفهم بقوله: «على بركة الله»، وعبد الملك كان يحمل بيده خيزرانة فإذا ألقاها من يده عرف جلاسه أنه يريد انصرفهم،^{٤٦} وقس عليه سائر الخلفاء من بنى أمية وأمرائهم، فكان يزيد بن هبيرة إذا أراد صرف جلسائه دعا بمنديل فيقومون.

أما بنو العباس فقد كانت إمارة السفاح منهم أن يتثاءب ويلقي المروحة من يده^{٤٧} وكانت علامة المؤمن أن يعقد أصبعه الوسطى بإبهامه ويقول: «برق يمان برق يمان!» ومن انصرف من حضرة الخليفة مشى القهقرى ووجهه نحو مجلسه حتى يتوارى.

(٣-١) مجالس الأدب والشعر

رغبة الخلفاء في الاطلاع

كان للخلفاء ميل شديد إلى سماع الأخبار، فيعقدون المجالس يحضرها الأدباء من أهل الأخبار والنواذر والأدب والشعر، يحادثون الخليفة بما يلذ له سماعه من أخبار العرب ونواذرهم وأشعارهم، وكان الدهاء من الخلفاء والأمراء مثل معاوية وهشام والمنصور

وابن هبيرة،^{٤٨} يقيمون أناساً يتلون عليهم أعمال القواد والملوك من الروم والفرس، وأخبار الدول وحوادث الشجاعة والرأي، يلتسون بذلك التوسع في أسباب الدهاء وأفانين السياسة، كما يفعل رجال اليوم بالاطلاع على تراجم العظاماء، على أنهم كانوا يعقدون مجالس الأدب على الغالب لترويج النفس من مشاغل الدولة، وتلذذاً بالاطلاع على آداب العرب وأخبارهم، فاختص بكل خليفة جماعة من عاصروه من أصحاب الأخبار والشعر، يجالسوه في أوقات معينة أو إذا دعاهم في ساعة قلقه أو أرقه، وقد يكون ذلك في أواسط الليل والناس نائم، فلا يزال الرجل ينتقل بحديثه من خبر إلى نكتة إلى نادرة إلى شعر، حتى يزول ما في نفس الخليفة وينشرح صدره، وقد تفرغ جعبة المحدث مما يعلمه من الأخبار قبل أن ينشرح صدر الخليفة، فيوضع قصة من عند نفسه يبنيها على نكتة أو حكمة مما يعلم ارتياح الخليفة له.^{٤٩}

احترام الخلفاء لأهل العلم

وكانوا يجلون أهل الأدب والعلم ويقربونهم ويبذلون لهم الأموال ويدافعون عنهم، ولا سيما الرشيد والمأمون، وفيما يروونه عن الرشيد ومعاملته للعلماء أدلة عديدة على ذلك، فكان كثير الملاطفة للأصماعي والإجلال له، فإذا خلا به سأله واستفاد منه علمًا وأدبًا، فيقول الرشيد عند ذلك: «هكذا وقمنا في الملا وعلمنا في الخلا». وكان يعطيه الجوائز الحسنة، وأكل أبو معاوية الضرير طعامًا مع الرشيد، فلما قام ليغسل يديه تناول الرشيد الإبريق وصب عليهما والرجل لا يعلم، فقال له: «أتدرى من يصب الماء على يديك؟» قال: «لا». قال: «أنت يا أمير المؤمنين؟» قال: «نعم، إجلالاً للعلم».^{٥٠}

ناهيك بما وقع من البحث في مسألة الزنبور والنحلية بين سبيويه والكسائي، وكيف انتصر الأمين للكسائي والمأمون لسبيويه، وما جرى من الجدال في ذلك بحضورة الرشيد، فأخذ الرشيد يناصر الكسائي في حديث طويل ذكرنا خلاصته في الجزء الثالث.

ومن أدلة إجلالهم للعلم أنهم كانوا يحرضون أبناءهم على تلقيه وحفظ الأشعار والأخبار، ويعينون لهم المعلمين من نخبة العلماء المعاصرين، فالمنصر ضم الشرقي بن القطامي إلى ابنه المهدي وأوصاه أن يعلمه أخبار العرب ومكارم الأخلاق وقراءة الأشعار،^{٥١} والرشيد عهد بتعليم ابنه الأمين إلى الأحمر النحوي ثم إلى الكسائي وعهد

بتأدیب المؤمن للیزیدی وسیبویه وغیرهما، وللرشید وصیة یقال إنه أوصى بها الأحمر المذکور لما عهد إليه بتأدیب الأمین وهي:

يا أحمر، إن أمير المؤمنین قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه، فصیر يدك عليه مبسوطة وطاعتھ لک واجبة، فکن له بحیث وضعك أمیر المؤمنین: أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بموقع الكلام وببدئه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظیم مشايخ بنی هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفیده إیاها من غير أن تحزنہ فتمیت ذهنہ، ولا تمعن في سماحته فیستحلي الفراغ ویألفه، وقومه ما استطعت بالقرب والملائنة، فإن أباهمما فعليك بالشدة والغلظة.^{٥٢}

وعهد المؤمن إلى الفراء بتعليم ولديه النحو، واتفق أن الفراء أراد أن ينهض ذات يوم إلى حوائجه فابتدا إلى نعله ليقدمها له، فتنازعاً أيهما يقدمها ثم اصطلحَا على أن يقدم كل منهما واحدة، وبلغ ذلك المؤمن فاستدعاه، فلما دخل عليه قال المؤمن: «من أعز الناس؟» قال: «لا أعرف أحداً أعز من أمير المؤمنين». فقال: «بل من إذا نھض تقاتل على تقديم نعله ولیاً عهد المسلمين حتى يرضي كل واحد منهمما أن يقدم له فردًا». فقال: «يا أمیر المؤمنین لقد أردت منعهما عن ذلك، ولكن خشيت أن أدفعها عن مكرمة سبقاً إليها أو كسر نفسيهما عن شریفة حرضاً عليها». ^{٥٣} وعهد المتوكل بتعليم أبنائه إلى ابن السکیت، ^{٥٤} وتعلم عبد الله بن المعتز الأدب والعربیة على المبرد وثعلب وأحمد بن سعید الدمشقي.^{٥٥}

تقديم الشعرا

ويقال نحو ذلك في تقديمهم الشعرا، فقد أجزلوا لهم الأعطیة، وعيّنا لهم أوقاتاً يدخلون فيها عليهم كما قلنا في غير هذا المكان، وكانوا يفرضون لهم مالاً يدفعونه إليهم كل سنة على الوفدة أو القصيدة، أو يعطونهم على البيت من الشعر مبلغاً معيناً، على أن مقامهم كان يعلو وي hepatitis تبعاً لأمیة الخلافاء وأغراضهم وأحوال السياسة، فمنهم من كان يبعد الشعرا بخلاً كعبد الملك بن مروان وابنه الوليد، ^{٥٦} ومنع عمر بن عبد العزيز الشعرا من بابه تورغاً لاعتقاده أنه لا تصح إجازتهم من بيت المال، وكان ذلك اعتقاد غير واحد

من أبناء الصحابة كعبد الله بن الزبير وغيره، وكان المنصور بخيلاً على الشعراء اشتغالاً عنهم بتائيid الدولة، فكانوا يخرجون في أيامه من بغداد ويجتمعون ويتداكرون أيامهم في الشام^{٥٧} على عهدبني أمية.

ولكن معظم الخلفاء كانوا يحبون الشعر ويقربون الشعراء، وبعضهم تعلموا العروض ونظموا الشعر ولهم أبيات مشهورة، وكان الشعراء يتقدرون إلى الخلفاء أو الأمراء بالمديح، وقد يرتكبون أثيبي الأكاذيب في هذا السبيل، إلا من لم ينطبع بشعره وهم قليلون، وكانت لهم منزلة رفيعة عند أهل الدولة^{٥٨}، وأما سائر الشعراء فكانوا يتعيشون بالمدح أو الهجاء، وقيل للخطيبة: «إياك وهجاء الناس». فقال: «إذا ممات عيالي جوعاً، هذا مكسيبي ومنه معاشي»^{٥٩}. وقد يمدح الشاعر الضدين رغبة في الكسب، كما فعل ابن دأب فمدح معاوية وعلياً^{٦٠}.

وكان الشاعر إذا دخل على الخليفة بقصيدة أنسدتها بصوت عال وهو قائم، وإذا تعدد المنشدون قدمهم على الأسنان، وكان الخلفاء يتفهمون معاني الشعر، حتى إنهم كثيراً ما كانوا يباحثون الشاعر في معنى البيت أو الكلمة، وإذا استبطئوا الشاعر أو الرواية بعثوا في استقادمه من العراق أو الحجاز، وقد لا يكون الغرض من ذلك إلا سمعاعيت أو قصيدة، كما فعل الوليد بن يزيد في استقادم حماد من العراق لينشده قصيدة تغنيها مغنيته^{٦١}، أو لينظم له شعراً في حادثة جرت معه كما فعل الواشق لما غضبت عليه حظيته فاستقدم ابن الضحاك ليقول في ذلك شعراً، وقد يجيرون من يأتיהם بشاعر يعجبهم، كما أجاز الم Heidi الفضل بن الربيع بعشرة آلاف دينار وولاه حجابته لأنه أتاه بابن جامع.^{٦٢}

وكانوا لا يكتفون بمن يفد عليهم من الشعراء للاستدعاء، فيرسلون في طلتهم إلى الأئم، وأرغب الخلفاء في ذلك الرشيد^{٦٤}، فتكاثر الشعراء ببابه حتى ضاقت بهم بغداد، واضطروا إلى امتحانهم وترتيبهم في الجوائز، فعهد يحيى بن خالد بذلك إلى شاعره إبان اللاحقي^{٦٥}، وأصبح الخليفة إذا أحب مجالسة الشعراء بعث رجلاً يثق به ليختار له أحسنهم^{٦٦}، أو إذا عَنَّ له بيت أو قصيدة خرج وصيف أو حاجب أو نحوهما فيقول للشعراء: «من منكم يقدر يقول قول فلان أو يحفظ القصيدة الفلانية فليدخل وله كذا وكذا»^{٦٧}، وكانوا يطربون للشعر ويستذلونه، وربما تزاحفوا عن مجالسهم إعجاباً وطرباً.^{٦٨}

(٤-١) مجالس المنااظرة والعلم

كانت مجالس الأدب في أيامبني أمية وأوائل بنى العباس يقتصر البحث فيها على المسائل الأدبية والعلوم اللسانية كما تقدم، فلما ترجمت علوم القدماء في العصر العباسي ونشأ علم الكلام شاعت المنااظرة بين العلماء والفقهاء، وقد سبق الناس إلى العناية في ذلك البرامة، فكان ليحيى بن خالد مجلس يجتمع فيه المتكلمون وغيرهم من أهل النحل، يتبااحثون في الكون والظهور والقدم والحدث والإثبات والنفي وغيرها من الأبحاث الفلسفية المبنية على علم الكلام.^{٦٩}

ثم اهتم الخلفاء أنفسهم في ذلك، ولا سيما بعد أن ظهر القول بخلق القرآن وقام به المؤمنون، فأخذ يعقد المجالس للمناظرة فيه وفي سواه، وعين لذلك يوم الثلاثاء من كل أسبوع، فإذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة وقيل لهم: «انزعوا أخلفاكم». ثم أحضرت الموائد وقيل لهم: «أصيروا من الطعام والشراب وجدوا الوضوء، ومن كان خفه ضيقاً فلينزعه، ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها». فإذا فرغوا أتوا بالمجامر فتبخروا وتطيبوا ثم خرجوا، فاستدناهم الخليفة حتى يدنوا منه ويناظرهم أحسن مناظرة وألطيفها وأبعدها من مناظرة التجربين، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس، ثم تنصب الموائد ثانية فيطعمون وينصرفون،^{٧٠} وسار الواثق على خطواته في هذا السبيل، وكانوا يعقدون هذه المجالس كلما دعت الحاجة إلى إثبات رأي أو مذهب جديد.

ولما استقرت الدولة الفاطمية بمصر فعل وزيرها يعقوب بن كلس مثل ما فعل يحيى البرمكي وزير العباسين، فأنشأ مجالس للمناظرة في الفقه والأدب والشعر وعلم الكلام وغيره، وغرض هذه الدولة إثبات مذهب الشيعة؛ لأن دولتهم قامت عليه، فأخذ الحاكم بأمر الله يفاوض العلماء ويجيزهم، ويسهل عليهم البحث والمناظرة في دار الحكمة التي أنشأها في القاهرة،^{٧١} وربما عقدوا حل المنااظرة في الجوابع أو غيرها.

وصارت تلك المجالس عامة في الدول التي خلفت الدولة العباسية أو تفرعت منها، وأكثر العقلاة والأقوباء من الملوك والسلطانين كانوا يعقدونها للمناظرة، كذلك فعل صلاح الدين الأيوبي وسيف الدولة الحمداني ونظام الملك وزير ملكشاه والحكم المستنصر الأندلسي، واقتدى بهم أهل العلم والوجهاء والأطباء، وأطلقت حرية البحث في كل شيء، ومن أشهر مجالس المنااظرة مجلس كان يعقده يوحنا بن ماسويه في بغداد، فيحضره العلماء على اختلاف طبقاتهم من الفلاسفة والأطباء والأدباء والمتكلمين

وغيرهم،^{٧٢} ومجلس أبي حامد الإسفرايني كان يحضره ٣٠٠ فقيه، وقس عليهم مجلس ابن المنجم وكان يعقد بحضور المكتفي.^{٧٣}

(٥-١) مجالس الغناء والأنس

منزلة المغنين

تقدّم الكلام في تاريخ الغناء وأصله وانتشاره، وقد رغب الخلفاء فيه على الخصوص في إبان الحضارة وعصر الرخاء والترف، وجعلوا للمغنين نوبات يدخلون فيها مجالسهم،^{٧٤} وفرضوا لهم الرواتب كما فرضوها للشعراء، وعهدوا بهم إلى بعض أهل البلاد أو الحاشية ينظرون في أمرهم،^{٧٥} وكانتوا يصطحبونهم في خروجهم للصيد أو نحوه ويحيزونهم^{٧٦} الجوازات الكبرى، وهم أقرب إلى ذلك من الشعراء لما يتافق في مجالسهم من طرب الخلفاء؛ لأنّهم قلما كانوا يسمعون الغناء من غير شراب، فإذا طربوا بذلوا الأموال بلا حساب كما تقدّم.

ومن أكثر الخلفاء الأمويين رغبة في الغناء وبذلًا للمغنين يزيد بن عبد الملك، الذي استخلفه الطرب من غناء جاريته حباية حتى قال: «أريد أن أطير!» فقالت له حباية: «على من تدع الأمة وتدعنا؟»^{٧٧} وكذلك كان ابنه الوليد بن يزيد، ومن الخلفاء العباسيين المهيدي والرشيد والأمين والمأمون والواشق والتوكل ومن نبغ في أيامهم من الوجاه والعظماء. على أنّهم كانوا إذا أدهمهم أمر الدولة وخافوا سقوطها أبعدوا المغنين ليترفّعوا لهم، كما فعل المأمون لما رجع من خراسان،^{٧٨} وكان لكيار المغنين منزلة رفيعة في الدولة كإبراهيم الموصلي وابنه إسحاق وابن جامع، وكانت جوازتهم من الخلفاء تفوق الحصر، ذكروا عن إبراهيم المذكور أنه غنى للأمين بشعر أبي نواس:

رشاً لولا ملاحته خلت الدنيا من الفتنة

فاستخلفه الطرب حتى وثب من مجلسه وركب على إبراهيم وجعل يقبل رأسه! فنهض إبراهيم وأخذ يقبل أخمص قدمي الأمين وما وطئت من البساط، فأمر له بثلاثة آلاف درهم، فقال إبراهيم: «يا سيدي قد أجزتني إلى هذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم». فقال الأمين: «وهل ذلك إلا خراج بعض الكور؟»^{٧٩} فاعتبر ما دخل على الموصلي من الرشيد وغيره، فلا غرو إذا توفي عن ثروة طائلة، واشتهر في الأندلس علي بن نافع

المعروف بزرباب المغني وهو الذي نقل هذه الصناعة إلى الأندلس، فقد أثري وارتقت منزلته حتى صار يركب في ٢٠٠ غلام ويملك ٣٠٠٠٠ دينار غير الخيل والضياع والرقيق.^{٨٠}

المضحكون والمجانون

ومن توابع مجالس الغناء المضحكون والمجانون، أشهرهم أشعب في دولة بنى أمية، وأبو الحسن الخليع الدمشقي في أيام الرشيد، وأبو العبر في أيام المتوكل وغيرهم كثيرون، فكانوا إذا عقدت مجالس الأنس ودارت الأقداح وطرب الخليفة لبسوا ملابس مضحكة يقلدون بها الدب أو القرد، يعلقون في عناقهم الجلاجل والأجراس مما يضحك الثكلى، وكان بعض الخلفاء إذا استخفهم الطرب كلفوا هؤلاء المجانين ما لا يطاق من ضروب العذاب وهم يتلذذون بعذابهم، فالمتوكل كان إذا طرب أمر بأببي العبر المجان أن يرمي به في المنجنيق إلى الماء وعليه قميص حرير، فإذا علا في الهواء صاح: «الطريق الطريق!» ثم يقع في الماء فيخرج السباح، وكان يجلس أحياناً على الزلاقة فينحدر فيها حتى يقع في البركة، ثم يطرح الخليفة الشبكة فيخرجه كما يخرج السمك،^{٨١} وكان الأمين إذا طرب صاح في ندمائه وجلاسه: «من يكون منكم حمار؟» فكل واحد يقول: «أنا!» فيركب الواحد ويصله،^{٨٢} وكان يقع في مجالس الوليد بن يزيد من السكر والفحش في القول والفعل ما نتحاشى ذكره، وقد أفرط الخلفاء في التبسيط في العيش والتمتع بالملذات، ولذلك كانوا قصار الأعمار فمات أكثرهم قبل سن الكهولة.

(٢) مواكب الخلفاء

نريد بالموكب الاحتفال بخروج الخليفة أو السلطان أو الأمير في عيد أو غير عيد، وهو من مقتضيات الأبهة والمدنية، وكانت المواكب معروفة عند ملوك العرب في الجاهلية، فكان لعد يركب عبيد من الأحباش يمشون بين يديه بالحراب،^{٨٣} فلما جاء الإسلام تزهد أصحابه من التقوى، فكان الخلفاء الراشدون يركبون في خروجهم كسائر الناس، وكان أبو بكر في أول خلافته يقيم في السنح بضاحية المدينة ويغدو كل يوم على رجليه إلى المدينة وقد يركب فرسه، وكان يغدو إلى السوق فيبيع ويبيع، وله قطعة غنم تروح عليه وربما خرج هو بنفسه فيها منفرداً، وكان عمر يخرج في الأسواق مashiّاً ويسوءه

أن يركب عماله وأمراؤه ركوب الفرس والروم. وفد على الشام أربع مرات جاءها في المرة الأولى على فرس، وفي الثانية على بغل، وفي الثالثة على بغل، وفي الرابعة على حمار، وبعث في إحدى خطراته إلى أمرائه أن يوافوه في الجابية، فكان أول من لقيه يزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة، ثم خالد على الخيول عليهم الدبياج والحرير، فنزل وأخذ الحجارة ورماهم بها،^{٨٤} فقس على ذلك سائر الراشدين.

(١-٢) مواكب الخلفاء في إبان التمدن

على أن اتخاذ الآلة والأعوان في المواكب إنما بدأ به العمال في الأنصار، لقربهم من حضارة الفرس والروم، فاتخذوا الطبل والأعلام والحرس وغيرها من شارات الدولة، وأسباقهم إلى ذلك معاوية، فأقام حراساً يرفعون الحراب بين يديه، أو يقفون بالسيوف عند المقصورة التي يصلى فيها خوفاً من الاغتيال،^{٨٥} واقتدى به عماله، وبعضهم سبقه إلى مثله، فاتخذ زياد بن أبيه رجالاً يمشون بين يديه بالأعمدة^{٨٦} أو بالحربة، وأصبح ذلك قاعدة في المسير بين يدي الخليفة، ثم صار المسير بالحربة خاصاً بولي العهد أو بكتاب العمال، يحملها رجل راكب على جواد يتقدم الخليفة أو الأمير، فجرى على ذلك الخلفاء العباسيون.^{٨٧}

وفي أيام الم توكل جاء بعضهم بحربة كانت للنبي ﷺ تسمى العنزة، وأصلها للنجاشي، فأهداها للزبير بن العوام فأهداها الزبير للنبي ﷺ، وكانت ترکز بين يديه في العيدين، ثم اتصلت بذلك الرجل فحملها إلى الم توكل، فكان صاحب الشرطة يحملها بين يديه،^{٨٨} إذا خرج في موكبه.

وتدرجوا في الأبهة بتدرجهم في أسباب المدنية واتساع السلطة، حتى اصطنعوا المحامل أو القباب أو المحفات يحملون بها بدل الركوب على الخيل، ثم صاروا يركبون الناس يمشون بين أيديهم، وأقدم من فعل ذلك الأشعث بن قيس سيد أهل اليمن، فكان يركب والناس يمشون بين يديه،^{٨٩} ثم صاروا يمشون بين يدي الخلفاء بالسلاح، وأول من فعل ذلك الهادي العباسي، فكان إذا ركب مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة والأعمدة المشهورة والقصي الموتورة،^{٩٠} فلما خلفه الرشيد تجاوزه فاتخذ خدماً صغاراً يسمونهم النمل يتقدموه وبأيديهم قسي البندق يرمون بها من يعارضه من الناس،^{٩١} ثم صار ذلك سنة جرى عليها الوزراء والأمراء، وأول وزير مشى أرباب الدولة بين يديه رجاله الحسن بن علي وزير المسترشد،^{٩٢} وكانوا إلى ذلك الحين يركبون باللحية الخفيفة

الفضية والسروج المكسوة بالديباج، ثم ركعوا في حلية الذهب، وأول من ركب بها المعتز العباسي المتوفى سنة ٢٥٥ هـ، فجرى الناس على ذلك.

أما في مصر فالخلفاء الفاطميين قلدوا العباسيين في مواكبهم على جاري العادة فيسائر أسباب المدنية، وزادوا عليهم الركوب بالملقطة والشمسية، ولعلهم نقلوا هذه العادة من المغرب؛ لأنها كانت جارية هناك قبل الإسلام، فكان الناس يظلون حكامهم بريش الطواويس،^{٩٣} فاتخذها الفاطميين من الديباج أو الخز المحلي بالذهب والمرصع بالجوهر وحولها الأعلام تختلفألوانها باختلاف الأحوال.

وكان السلاجقة يركبون بالطبل والبوق والعلم وبالجتر على رءوسهم، وهو كالقبة الصغيرة مرتفعة في الهواء على رمح يحمله من يسير قرب الملك بحيث يظلله من الشمس، ويتحذونه من الديباج أو الحرير المذهب.^{٩٤}

على أن تلك المواكب تختلف فخامة وشكلاً باختلاف المقصود منها وباختلاف الدول، أهمها موكب الخروج إلى الحج أو إلى بلد آخر، ومواكب الأعياد وهي تمتناز بمن يقف الخليفة في خروجه من صفوف الجند، وأول من صفت له الجنود زيد بن الوليد الأموي، فكان يخرج يوم العيد بين صفين عليهم السلاح.^{٩٥}

للخلفاء مواكب كثيرة لو أردنا الإتيان عليها كلها لضيق المقام، ولكننا نقول بالإجمال: إنهم كانوا يخرجون على الخيول أو في القباب، وحولهم الأعوان ركوباً والشرطة مشاة، وكذلك الغلمان على اختلاف طبقاتهم يلبسون مناطق الذهب أو يحملون المقارع أو الطبرزيّنات المحلة بالذهب، ويقف الناس أو الجند في الطريق صفين يسير الموكب بينهما، ويختلف طول هذا الموكب باختلاف ما يريدونه من إظهار الأبهة، وقد بلغ طوله في خروج المتوكل على الله أربعة أميال ترجل فيها الناس بين يديه،^{٩٦} وإذا كان المسير إلى مكان بعيد ضربوا القباب العظيمة في الطريق،^{٩٧} يستظل الخليفة بها أو يقيم فيها.

وكان الخلفاء الفاطميين يركبون يوم الجمعة إلى الجامع الأزهر بالملقطة المذهبة وبين أيديهم نحو ٥٠٠٠ ماش، وعلى الخليفة الطيلسان والسيف وبيده قضيب الخليفة، حتى يأتي الجامع ويصلّي، ولهم رسوم كثيرة يجرونها قبل الصلاة، وإذا خرجن للمباعدة أو الاحتفال لفتح الخليج ركب الخليفة وعليه العمامة الجوهر،^{٩٨} وثوب يقال له: البدنة؛ كله ذهب وحرير مرقوم والملقطة من شكله، وبين يدي الخليفة الجانبين عليها السروج الذهب المرصع بالجوهر والسرج العنبر والقباب الديباج بالحلبي، والعسكر على أزيائه من الأتراك والديلم والعزيزية والإخشيدية والكافورية بالديباج الثقيل والمناطق المذهبة،

وبين يديه الفيلة عليها الرجال بالسلاح والزراقة، وفوق الخليفة المظلة الثقيلة بالجوهر وببده قضيب الخلافة، ويمشي أمامه أصحاب الأبواق الذهب فأبواق الفضة فالنحاس، وأصحاب الطبول الكبار التي مكان خشبها فضة، والألوية تحقق فوق ذلك الموكب.

(٢-٢) احتفالاتهم

الاحتفالات الدينية

والاحتفالات في التمدن الإسلامي بعضها ديني كالموالد والأعياد والكسوة، وبعضها وطني كالنيروز والمهرجان وشم النسيم وفتح الخليج، على أن الاحتفالات الدينية إنما اتخذوا أسلوب الاحتفال بها من غير المسلمين، كما اتخد النصارى بعض طقوس الاحتفال بأعيادهم من الوثنين، ولا يزال الاحتفال بالأعياد الإسلامية شائعاً إلى الآن مع تغيير اقتضاه الفرق بين التمدين، وأكثر الدول الإسلامية عناية بهذه الأعياد الفاطميون، منها: يوم عاشوراء، والمولد النبوى، ومولد علي وفاطمة والحسن والحسين، وال الخليفة الحاضر، وليلة أول رجب، وعيد النحر، وعيد الفطر، وفتح الخليج، ويوم النيروز، وغيرها مما فصله المقريزى في خططه،^{٩٩} ولهם في كل من هذه الأعياد رسوم وقواعد يبذلون فيها الأموال ويفرون الصدقات ويهدون الهدايا من النقود والثياب والحلبي وغيرها مما يطول شرحه.

ومن اشتهرت عنایته بالاحتفالات الدينية مظفر الدين صاحب أربيل، وكان احتفاله بالمولود النبوى بالغاً حد النهاية في الأبهة، والمشهور أنه أول من احتفل به على الصورة المعروفة اليوم،^{١٠٠} وكذلك السلطان أبو حمو موسى صاحب تلمسان،^{١٠١} هذا غير احتفالاتهم الاجتماعية كالاعراس والملاتم والختان ونحوها، والسياسية كاستقبال الوفود والمباعدة والتتويج والخلع، فنذكر أمثلة منها فيما يلى:

احتفالات الأعراس ونحوها

فالاحتفال بالأعراس تقلب على أحوال شتى ترجع إلى نحو المشهور من الاحتفال بأعراس المسلمين في مصر الآن، مع اعتبار عوائد البلاد وتفاوت الثروة، ونأتي بمثال من أبلغ ما يُعرف من التناهي بالبذخ في مثل هذه الحال، فنذكر احتفالين اشتهرتا في تاريخ الإسلام:

الأول: زفاف خديجة بنت الحسن بن سهل المسمة بوران إلى الخليفة المأمون، احتفلوا به في «فم الصلح»، احتفالاً لم يسبق له مثيل، نثر الحسن فيه على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق المسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك، فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحتها فيقرأ ما في الرقعة، فإذا علم ما فيها مضى إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه، ويتسليم ما فيها، سواء كان ضيعة أو ملكاً آخر أو فرساً أو جارية أو مملوكاً، ثم نثر على سائر طبقات الناس الدنانير والدرهم ونواجح المسك وببيض العنبر، غير ما أتفقه على المأمون وقواده وأصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه، وكانوا خلقاً لا يحصى حتى على الحمالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسکره، ذكروا أنه خدم في ذلك الاحتفال ٣٦٠٠ ملاح ونجد الحطب يوماً فأوقدوا تحت القدور الخيش مغموساً في الزيت، ولما كانت ليلة البناء وجليت بوران على المأمون فرش لها حصير من الذهب، وجيء بمكتل مرصع بالجواهر فيه درر كبار نثرت على النساء وفيهن زبيدة وحمدونة بنت الرشيد مما مست إحداهم من الدر شيئاً، فقال المأمون: «شرفن أبا محمد وأكرمنه». فمدت كل واحدة منهن يدها فأخذت درة، فبقي سائر الدر يلوح على ذلك الحصير الذهب ويتألأً فقال المأمون: «قاتل الله الحسن بن هانئ». كأنه قد رأى هذا حيث يقول:

كأن صغرى وكبرى من فقاعتها حصباء در على أرض من الذهب

وكانت في المجلس شمعة عنبر فيها مائة رطل، فضج المأمون من دخانها فعملت له مثل من الشمع، فكان الليل مدة مقامه فيه كالنهار، وبلغت نفقة هذا الاحتفال ١٠٠٠٠٠ درهم، وأمر المأمون للحسن بن سهل عند منصره بمبلغ ٥٠٠٠٠ درهم وأقطعه فم الصلح، فجلس الحسن وفرق المال على قواده وأصحابه وحشمه، وأطلق له خراج فارس وكور الأهواز مدة سنة، وجاء المأمون إلى عروسه في الليلة التالية فنثرت عليه جدتها ألف درة كانت في صينية ذهب،^{١٠٢} وغير ذلك مما يفوق طور التصديق.

والاحتفال الثاني: أقامه المتوكل على الله حين ظهر ابنه المعتر بالموقع المعروف ببركواز، ومما جرى فيه أنه جلس بعد فراغ القواد والأكابر من الأكل ومدت بين يديه مرافع ذهب مرصعة بالجوهر، وعليها أمثلة من العنبر والنذر والمسك المعجون على جميع الصور، وجعلت بساطاً ممدوداً، وأحضر القواد والجلساء وأصحاب المراتب،

فوضعت بين أيديهم صواني الذهب مرصعة بأصناف الجوادر من الجانبين وبين السماطين فرجة، وجاء الفراشون بزنابيل قد غشيت بالأدم مملوءة دراهم ودنانير نصفين، فصبت في الفرجة حتى ارتفعت على الصوانى، وأمر الحاضرون أن يشربوا وأن يتتغل كل من شرب من تلك الدنانير بثلاث حفنات مما حملت يده، وكلما خف موضع صب عليه من الزنابيل حتى يرد إلى حالته، ووقف غلامان في آخر المجلس فصاحوا: «إن أمير المؤمنين يقول لكم: ليأخذن من شاء ما شاء!» فمد الناس أيديهم إلى المال فأخذنوه، وكان الرجل يتغله ما معه فيخرج به فيسلمه إلى غلاماته ويرجع إلى مكانه.

ولما تقوض المجلس خلع على الناس ألف خلعة، وحملوا على ألف مركب بالذهب والفضة وأعتقد ألف نسمة.^{١٠٣}

وقس على ذلك احتفال الخليفة المقتدى بالله سنة ٤٨٠ هـ لما زفت إليه بنت السلطان ملكشاه وحمل جهازها إلى دار الخلافة،^{١٠٤} وأما الاحتفال بتتويج السلاطين والبيعة فقد ذكرنا أمثلة منه في الجزء الأول من هذا الكتاب.

الخلع على الوزراء

ومن مظاهر الأبهة احتفالهم بالخلع على الوزراء والسلطين، وأول من خلع عليه جعفر البرمكي في اليوم الذي تولى الرشيد الخلافة فيه، وكان في جملة ما خلعه عليه ١٠٠ بدرة دراهم ودنانير، وأمر الناس فركبوا إليه حتى سلموا عليه وأعطاهم خاتم الملك ليختتم به على ما يريده،^{١٠٥} وهذا حذو الرشيد من جاء بعده فخلعوا على وزرائهم وعمالهم خلعاً تختلف شكلاً وقدراً باختلاف الأحوال، ومعها في كل حال ثوب يرسله الحال ويلبسه المخلوع عليه يقال له: الخلعة، فالخليفة العاضد الفاطمي لما ولى السلطان صلاح الدين الأيوبى الوزارة بمصر لقبه الملك الناصر، وخلع عليه خلعة مؤلفة من عمامه بيضاء تنسى بطرف ذهب وثوب ديبقى بطراز ذهب، وجبة بطراز ذهب وطليسان مطرز ذهب، وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار وسيف محل بخمسة آلاف دينار وحجرة بثمانية آلاف دينار عليها سرج ذهب وسرسار ذهب مجواهر، وفي رأسها مائتا حبة جوهر وفي قوائمها أربعة عقود جوهر وفي رأسها قصبة بذهب وفيها شدة بياض بأعلام بيض، ومع الخلعة عدة بقع وخيل وأشياء أخرى ومنشور الوزارة مكتوب في ثوب أطلس أبيض.^{١٠٦}

ولما نقلت الخليفة العباسية إلى مصر خلع الخليفة العباسي على السلطان الملك الظاهر بيبرس يومئذ خلعة ألبسه إليها باحتفال، هي عبارة عن جبة سوداء وعمامة سوداء وطوق في عنقه من ذهب وقيد في رجله من ذهب^{١٠٧} وقس على ذلك.

استقبال الوفود

أما استقبال الوفود فقد كان فخيمًا يظهرون به عز الإسلام، ولا سيما إذا كان القادمون من وفود الدول غير الإسلامية من الروم أو الهند أو الإفرنج، والاحتفال بذلك يختلف باختلاف الأحوال، نذكر من أمثلته احتفال المقتدر العباسي برسل جاءوه من ملك الروم سنة ٣٠٥ هـ، فإنه استقبلهم في «دار الشجرة» التي تقدم ذكرها وعبأ لهم الجيوش، وصفت الدار بالأسلحة وأنواع الزينة، وكانت جملة العساكر المصفوفة حينئذ ١٦٠٠٠ رجل بين راكب وواقف، ووقف الغلامان الحجرية بالزينة والمناطق المحلة، وكانوا اثنين وعشرين ألفاً، ووقف الخدم والخصيان كذلك وعدهم سبعة آلاف، منهم ٤٠٠ خادم أبيض و ٣٠٠ خادم أسود، ووقف الحجاب وكانوا سبعمائة حاجب، وزينت المراكب والزوارق في دجلة أعظم زينة، وزينت دار الخليفة، وكانت جملة الستور المعلقة عليها ٣٨٠٠ ستر منها ديباج مذهب ١٢٥٠٠ ستر، وكانت جملة البساط ٢٢٠٠٠ بساط، واستعرضوا مائة سبع مع مائة سباع، وكان في جملة الزينة الشجرة الذهب والفضة التي تشمل على ثمانية عشر غصناً من الذهب والفضة، فكانت أغصانها تتمايل بحركات موضوعة، وعلى الأغصان طيور وعصافير مختلفة من الذهب والفضة تصفر بحركات مرتبة كما وصفناها في محلها، فشاهد الرسل من العظمة ما يطول شرحه.^{١٠٨}

(٣-٢) الخلفاء والدول المعاصرة

هب العرب للفتح والعالم قد تضعضع وأهله في خمول، فبغتوهم وفتحوا بلادهم في بعض عشرة سنة على أسلوب لم يسبق له مثيل، فلما أفاقوا أرادوا ردهم فعجزوا عنه، وما لبثوا أن شاهدوا تمدنهم وعمران مملكتهم واشتغالهم بالعلوم والفنون والصناعة والتجارة والرحلة والسياحة، فهابوهم وأخذوا يتقربون إليهم بالوفود والهدايا إلى المدينة فدمشق، ثم أصبحت بغداد مجتمع الوفود القادمين من أطراف العالم من الهند والصين شرقاً إلى أعلى آسيا وأواسط أوروبا شماليًّا إلى أقصى إفريقيا غرباً والبحر الهندي جنوباً، وصارت البصرة مركز التجارة البحرية في الشرق وملتقى السفن القادمة من أقصى البحور.

الإسلام في تاريخ الصين

المشهور أن الإسلام لم يذكر ظهوره وانتشاره غير أصحابه، ولم يدون أخباره غير أهله، حتى الروم مع ما كان من مدنיהם يومئذ لم يكتب المعاصرون منهم شيئاً عن الإسلام أو المسلمين، ولكن الباحثين عثروا في الكتب الصينية على خبر الإسلام وانتشاره إلى استقلال معاوية بالخلافة لنفسه، فقيام أبي مسلم الخراساني ونقله الدولة إلى العباسيين وغير ذلك، فقرءوا أسماء محمد وقريش ومعاوية وأبي العباس وأبي جعفر وغيرهما من رجال الإسلام مكتوبة بالأحرف الصينية، ومما جاء هناك أن أبو جعفر أرسل سنة ٧٥٦ م وفداً إلى إمبراطور الصين التقى عنده بوفد قادم من «هوي هو» من مغول الشمال فاختصم الوفدان فيمن يتقدم بالدخول على الإمبراطور، فأنصف الحاج بينهما وأدخل كل وفد من باب؛ ذكروا ذلك بكتاب طنخ شو الفصل العاشر في أثناء سيرة الإمبراطور سوتونغ، قالوا: «ثم تولى المهدى وخليفة هارون الرشيد وفي أيامه (سنة ٧٨٦-٨٠٤ م) جرد العرب أصحاب الجبة السوداء على توفان (تبيت) ثم صار أهل توفان يتجندون لقتالهم كل سنة، وفي (٧٩٨ م) جاء ثلاثة سفراء من العرب إلى بلاط الإمبراطور ... إلخ». ^{١٠٩}
ووقفوا في تاريخ الصين أيضاً على نصوص تشير إلى ما كان من العلاقات التجارية بين الصينيين والعرب من أواسط القرن العاشر للميلاد أو الثالث للهجرة، فذكروا سفناً تجارية عربية كانت ترسو على شواطئ الصين يحملون فيها الزجاج والسكر وغيرها، وأن تجار العرب وربان سفنهم كثيراً ما كانوا يفدون على البلاط ويدخلون على الإمبراطور فيخاطبهم ويسأّلهم عن بلادهم وملوكهم وسائر أحوالهم، ووقفوا على نصوص أخرى تدل على علاقة مثل هذه بين الصين وغير العرب من دول الإسلام مما يطول بيانه، ومع اختصار هذه الأخبار وتشوش حوارتها وفساد تهجمة الأعلام فيها فهي عظيمة الأهمية؛ لأنها منقوله عن مصدر صيني مستقل.

أما العرب فقد ذكر مؤرخوهم وأهل الرحالة منهم كثيراً من أخبار نزولهم شواطئ الصين والهند ودخولهم على ملوكها ومخاطبتهن في بعض الشؤون التجارية، ولكن أكثر الناس كانوا لا يكترون بتلك الروايات لاعتقادهم أنها محسوبة بالبالغات والخرافات، لأنهم قاسوها بما يقرؤونه من الأقاوص الخرافية في ألف ليلة وليلة مثل قصة السندباد البحري والفرس المسحور وغيرهما، على أن هذه الأقاوص منقوله في الأصل عن غير العربية، وأكثر خرافات العرب دخيلاً في آدابهم، وأما ما يكتبونه من عند أنفسهم فالغالب فيه التحقيق والصدق، ولا سيما كتب التاريخ ونحوها إذا نظرنا فيها نظر الناقد المنصف واعتبرنا الفرق بين عصرهم وعصرنا.

على أننا لا نلوم المنكرين؛ لأنهم إنما عرّفوا العرب بعد ذهاب دولتهم وانحلال عصبيتهم وانحطاط هممهم وضعف عزائمهم، فأكثروا أن يكون لهم مثل تلك الهم الشماء في عهد ذلك التمدن، فكذبوا ما قرعوه في كتبهم من هذا القبيل، أما وقد رأينا ما يؤيده في كتب أهل الصين على غير تواتر أو نقل فلم يبق لنا بد من تصديقه.

وأقدم ما وصل إلينا من الكتب العربية التي ذكرت تجارة العرب مع الصين والهند، ونزول تجار العرب شواطئ تلك البلاد كتاب «سلسلة التواريχ» وهو يشتمل على السياحات البحرية التي أجرتها العرب والعلم من شواطئ خليج فارس إلى بلاد الهند والصين، تأليف سليمان التاجر وأبي زيد حسن من أبناء القرن الثالث للهجرة، وقد طبع هذا الكتاب بباريس سنة ١٨١١، ومعه ترجمة فرنسيّة للمستشرق الشهير رينو، ثم «مروج الذهب» للمسعودي، وهو مشهور ومتداول، غير أمهاط كتب الجغرافية العربية وكلها مبني على رحلات حقيقة أشهرها ما كتبه البلخي والإصطخري وابن حوقل والمقدسي وغيرهم، وليس هنا مكان الإفاضة في ذلك.

ويقال بالإجمال: إن في كتب التاريخ نصوصاً كثيرة تدل على علاقت تجارية وسياسية بين العباسيين وملوك المشرق في الهند والصين، وإن المهادأة كانت متواصلة بينهما، فكانت وفود ملوك الهند تؤمّن بغداد من أواخر القرن الثاني للهجرة تحمل الهدايا أو كتب المخابرة،^{١٠} ولا بد أياضًا من وفود كانت تأتي بغداد من صاحب الصين.

الإسلام وملوك أوربا

على أن علاقات ملوك المسلمين مع ملوك أوروبا — وأعظمهم يومئذ الروم والجرمان والإفرنج والإسبان — كانت أوثق من سواها، أما الروم، وهم ملوك القسطنطينية، فكانت المخابرات متواصلة بينهم وبين المسلمين من أيام بنى أمية، إما لصلاح أو مهادأة أو مهادأة أو مفادأة،^{١١} وال الحرب كانت سجالاً بينهما على الحدود أو في البحار، وقد حاصر الأمويون القسطنطينية غير مرة ولم يفتحوها، ولكنهم فتحوا بلاداً أخرى من أوروبا وأوقعوا الرعب في دول الإفرنج، وكذلك بنو العباس^{١٢} فإن الرشيد أخذ الجزية من إيريني صاحبة القسطنطينية.

وأما حوادث المهادأة فهدية الرشيد إلى شارللان ملك فرنسا أشهر من أن تُذكر، على أن هدايا ملوك الروم إلى دار الخلافة كانت متواصلة، وأكثرها من السيوف والثياب والأطياط والذهب والكلاب، منها هدية بعث بها قيسار الروم (ربما ميخائيل الثاني) إلى المؤمن وفيها تحف سنية من جملتها مائة رطل مسك ومائة حلة سمور.^{١٣}

وأهدت ثريا بنت الأوياري (كذا) ملكة الإفرنج إلى المكتفي بالله سنة ٢٩٣ هـ خمسين سيفاً، و ٥٠ رمحًا، و ٢٠ ثوابًا منسوجًا بالذهب، و ٢٠ خادماً صقلبياً، و ٢٠ جارية، و ١٠ كلاب كبار لا تغلبها السباع، وستة بازات وسبعة صقور ومضرب حرير ملون كقوس القزح وغيرها.^{١١٤}

وكان الخلفاء أيضًا يوجهون وفوداً من عندهم في مراسلة أو مخابرة، وмен سار في ذلك القاضي الأشعري المعروف بابن الباقلاني أنفذه ضد الدولة سنة ٣٧١ هـ إلى قيسar الروم (باسيل الثاني) في جواب رسالة فأظهر في بلاط القيصر أنفة زادت مقام المسلمين عندهم.^{١١٥}

الأندلسيون وملوك الإفرنج

على أن العلاقات كانت أكثر وثوقاً بين ملوك أوروبا وملوك الإسلام في الأندلس؛ لأن قياصرة القسطنطينية كانوا يتقربون من الخلفاء الأمويين في قرطبة ليستنصرُوهم على العباسيين أعداء الجانبين، حتى إن ثيوفيلوس ملك الروم المعاصر لعبد الرحمن الأوسط هاداه سنة ٢٢٥ هـ وكتب إليه يرغبه في ملك المشرق من أجل ما ضيق عليه به المأمون والمعتصم، وقد ذكرهما في كتابه له وعبر عنهما بابن مراجل وابن ماردة، تحيراً لهما بالانتساب إلى أمهات من الجواري، فكما فحَّ عبد الرحمن عن الهدية وبعث إليه يحيى الغزال شاعره وأحد كبار دولته فأحكم الصلة بينهما،^{١١٦} فلما ظهر الخليفة الناصر عبد الرحمن الثالث وأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الإفرنج ما لم يطأ أحد من أسلافه، تقدم إليه ملوكهم بالطاعة وتقربوا بالهدايا فأوفدوا رسالهم وهداياهم من رومية والقسطنطينية وغيرهما على سبيل المهادنة والسلم والعمل على كسب مرضاته، ووصل إلى بابه الملوك من الإسبان المتاخمين لبلاده بجهات قشتالة وبنبلونة وما ينسب إليها من التغور الشمالية فقبلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوانزه وامتطوا مركبته.^{١١٧}

وتولت الهدايا على عبد الرحمن الناصر من سائر ملوك الإسبان، فملك برشلونة وطركونة هادياه يلتمسان تجديد الصلح،^{١١٨} وملك الصقالبة وهو يومئذ «ذوفوة» (كذا) أوفد إليه رسولًا مع رسل آخرين من ملك الأлан (ربما أوتو الأعظم) وملك الفرنجة وراء الرون وهو يومئذ «أوفه» ورسول آخر من ملك الفرنجة بقاصية المشرق واسمه «كلدة» (ربما كونراد)، واحتفل الناصر لقدومهم احتفالاً شائقاً، ولما رجعوا بعث مع رسول الصقالبة ربيعاً الأسقف إلى ملوكهم، وبالجملة إن الخليفة الناصر كان سلطانه ضخماً

عزيزًا، لم يبق ملك من ملوك أوروبا إلا خطب موته، وفي جملتهم قياصرة الروم وملوك الإفرنج والإسبان والجرمان، وفي نفح الطيب للمقرن تفصيل ما كان يجريه من الاحتفال في استقبالهم^{١١٩} تعظيمًا لدولة المسلمين، ولما أراد بناء «الزهراء» أهداه أولئك الملوك من أصناف الحجارة والرخام على اختلاف أنواعه وأشكاله شيئاً كثيراً، وقد ذكرنا ذلك في كلامنا عن بناء هذا القصر الفخم.

وقد على ما تقدم علاقات ملوك أوروبا بسائر خلفاء المسلمين وملوكهم، فكانت هدايا قيصر القسطنطينية ترد على صاحب مصر، ولا سيما في زمن الفاطميين بعد أن ضخت دولتهم، منها هدية بعث بها الإمبراطور قسطنطين التاسع إلى المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٣٧هـ، اشتملت قيمتها على ثلاثة قنطارات من الذهب الأحمر، كل قنطرار في عشرة آلاف دينار، الجملة ٣٠٠٠٠٠ دينار،^{١٢١} وكان رسول الروم إذا قدم القاهرة في ذلك العهد نزل عند باب الفتوح، ولا يزال يقبل الأرض وهو ماش حتى يصل القصر الكبير مقر الخليفة.^{١٢٢}

(٣) ألعاب الخلفاء وملاهيهم

ما برح الملوك من قديم الزمان يلهون في ساعات الفراغ بألعاب يروضون بها عقولهم وأبدانهم، ولكل أمة ألعاب تلائم عاداتهم وتشاكل أخلاق أهلها، ولكن الملوك يتشاربون في أكثرها لتشابه مرادهم منها، وألعاب الخلفاء كثيرة، بعضها كان معروفاً في الجahليّة كالصيد والسباق، وبعضها اقتبسوه من الأعاجم كاللعب بالكرة والصلوجان والرمي بالبندق واللعب بالنرد والشطرنج ونحوها، وأسبق الدول إلى الاحتفاء بهذه الألعاب العباسيون في أيام الرشيد، فإنه أول من لعب بالصلوجان والكرة، وأول من رمى بالنشاب في البرجاس، وأول من لعب الشطرنج والنرد وقرب اللاعبين وأجرى عليهم الأرزاق،^{١٢٣} وإليك وصف أهم ألعابهم في إبان تمدنهم:

(٤-٣) الصيد والقنصل

كان الصيد معروفاً في الجahليّة، ولكنه كان قاصراً على صيد غزال أو طائر بالنبل أو الفخ، فلما تمدن العرب بعد الإسلام وخلطوا الفرس والروم توسعوا في طرائق الصيد والقنصل، فاتخذوا الجوارح من الطير وهي الباز والشاهين والعقارب والصقر يعلمونها

صيد الطيور، وغالوا في اقتناه الكلاب والفهود ونحوها يستعينون بها على صيد الخنازير والغزلان وحمر الوحش، وأول من اشتغل بالصيد من الخلفاء يزيد بن معاوية، وكان صاحب طرب وجوارح وقرود وفهود، وله كلف بالصيد فاتخذه ل فهو وليس للرياضة، وكان يلبس كلابه الأسوار من الذهب والأجلة المنسوجة بالذهب، ويهب لكل كلب عبداً يخدمه،^{١٢٤} واشتغل بالصيد غيره من خلفاء بني أمية على تفاوت في ذلك.

حتى إذا أفضى الأمر إلى بني العباس ورسخت أقدامهم في الدولة، اهتموا بالصيد وتفننوا في تربية الجوارح والكلاب والفهود، وغالوا في انتقامتها وبدلوا الأموال في اقتناها وتربيتها، وأقاموا عليها أناساً ينتظرون في شؤونها وفيهم البizarرة والجحافل والفهادون وأصحاب الصقور والكلاب، وأطلقوا لهم الأرذاق الجليلة وأقطعوهم الإقطاعات السنوية وسهلوا عليهم حجابهم، وتسابق الشعراء إلى وصف تلك الجوارح وحركاتها وسرعتها وخصالها،^{١٢٥} وكتبوا في فنون الصيد وأساليبه كتاباً عديدة، كتاب البزة والصيد وكتاب المصائد والمطارد.^{١٢٦}

وكان العباسيون يصيدون السباع والخنازير فضلاً عن الغزلان والطيور وحمر الوحش ونحوها، وأول من أحب الصيد منهم المهدي فالرشيد، وكان ابنه صالح يحب صيد الخنازير،^{١٢٧} وابنه الأمين يهوى صيد السباع يصطادها له جماعة يعرفون بأصحاب البابايد،^{١٢٨} وكان المعتصم ألهجهم به، فبني في أرض دجيل قرب بغداد حائطاً طوله فراسخ كثيرة يحدون الصيد عنده، وذلك أن يطارد رجاله تلك الحيوانات من الجهة المقابلة للحائط فتقر نحوه فيضربون حولها حلقة، ولا يزالون يطاردونها بخيولهم وكلابهم وفهودهم وهي تتب بين الأعشاب والأدغال حتى يضايقوها ويهصروها بين الحائط ودجلة، فلا يبقى لها مجال للنجاة فيقبل المعتصم وأولاده وأقاربه وخواص حاشيته، ويتأنقون في القتل والصيد ويتفرجون، فيقتلون ما يقتلون ويطلقون الباقى.^{١٢٩}

وقس على ذلك سائر الخلفاء من بني العباس والفاتميين والمروانيين وغيرهم من ملوك المسلمين السلجوقية والأتابكة والأيوبيية والملاليك، فقد عدوا ما اصطاده السلطان ملك شاه السلجوقى من الحيوانات بلغ عشرة آلاف رأس، حتى بني من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء التي صادها منارة،^{١٣٠} وكان السلطان مسعود السلجوقى يبالغ في ترفيه الكلاب حتى ألبسها الجلال الأطلس الموشأة وسورها بالأسوار الذهب، واصطنع السلطان أبو عبد الله المستنصر في المغرب مصيداً بناحية بنزرت في بقعة بسيط من الأرض، وأحاطها بسياج خرج نطاقه عن التحديد بحيث لا يراع فيه حمر الوحش، فإذا

ركب للصيد تخطى السياج في أصحابه ومواليه وفعل فعل المعتصم بحصر الصيد عند ذلك السياج،^{١٣١} وفي كتاب الاعتبار لابن منقد فصول طويلة في الصيد وطرقه.^{١٣٢}

(٢-٣) الحلة أو السباق

لم تبق أمة من الأمم القديمة أو الحديثة إلا لهجت بالسباق، ولا سيما اليونان والرومان والفرس، وكان العرب في الجاهلية يتتسابقون بخيولهم ويتفاخرون بذلك، وكثيراً ما انتشتبت الحرب بين القبائل من أجل السباق، وكانوا يرسلون خيالهم إلى الحلة وهي ميدان السباق عشرة عشرة، وعندهم لكل منها اسم باعتبار تقدمها في السباق بعضها على بعض.^{١٣٣}

ولما تحضروا بعد الإسلام بالغوا في اتخاذ الميادين، واستكثروا من الخيول وتقنعوا في تضميرها، وكان معاوية حلة يخرجون إليها في أيام معينة للسباق، فمن حاز قصب السباق أجازوه – وقصب السباق قصبة يغرسونها في آخر الحلة فمن سبق إليها واقتلعها فهو الفائز – ومن غريب ما ذكروه أن يزيد بن معاوية كان له قرد يكتن أباً قيس، يحضره مجلس منادمه ويطرح له متكاً، وكان نبيئاً خبيثاً يحمله على أثاث وحشية قد ریضت وذلت بسرج ولجام، وكان يسابق بها الخيل يوم الحلة، فجاء أبو قيس في بعض الأيام سابقاً وتناول القصبة ودخل الحجرة قبل الخيول، وعليه قباء من الحرير الأحمر والأصفر، وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق، وعلى الأثاث سرج من الحرير الأحمر المنقوش.^{١٣٤}

وكان لهشام بن عبد الملك رغبة في الحلة، يستجدid الخيل للسباق ويبذل في اقتنائها الأموال، فاجتمع عنده ٤٠٠٠ فرس ولم يسبق أحد من العرب في ذلك، وكان له فرس سابق اسمه «الزائد» اشتهر في ذلك العصر، وكان الوليد بن يزيد مغرماً بخيل السباق، فجمع منها ألف فرس أسبقها فرس اسمه «السندى» كان يسابق به في أيام هشام، وكان يقصر عن فرس هشام «الزائد» وربما ضامه أو جاء مصليناً (أي: جاء الثاني)، وكان ميدان السباق يومئذ في الرصافة (بالشام) ولهم فيها ميادين مشهورة وحوادث مذكورة.^{١٣٥} ولحمد بن يزيد بن عبد الله بن مروان قصيدة عامرة وصف بها خيل الحلة العشرة بأسمائها وصفاتها، هي أحسن ما نظم في هذا الموضوع.^{١٣٦}

أما العباسيون فلم يكونوا أقل رغبة في السباق، وكانت لهم ميادين كبيرة، منها الرقة والشمامية، ولرشيد موافق شهيرة في الحلة، نظم فيها الشعراء القصائد في

مدح السوابق،^{١٣٧} وقس على ذلك ما كان من ميادين الحلة فيسائر دول الإسلام، ومن أشهرها ميدان ابن طولون وميدان بيبرس بمصر،^{١٣٨} وميادين الحكم في الأندلس.

(٣-٣) الكرة والصلجان

هي لعبة فارسية لم يكن بنو أمية يعرفونها، وأول من لعبها بنو العباس وأسبقهم إليها الرشيد، وهي عبارة عن كرة تصنع من مادة خفيفة مرنة كالفلين ونحوه تلقى في أرض الميدان فيتسابق الفرسان إلى التقافها بعضا عقواء يسمونها الصلجان أو الجوكان، ويرسلون الكرة بها في الهواء وهم على خيولهم، وكان المعتصم شديد الرغبة فيها، ومن لطيف ما يُحكى أنه قسم أصحابه يوماً للعب بها، فجعل الأفشين في جهة وهو في جهة، فقال الأفشين: «يعفيني أمير المؤمنين من هذا». فقال: «ولم؟» قال: «لأنني ما أرى أن أكون على أمير المؤمنين في جد ولا هزل». فاستحسن ذلك منه وجعله في حزبه.^{١٣٩}

(٤-٣) البندق

البندق كرات تُصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص أو غيرها، وهي فارسية بلفظها واستعمالها، ويسمونها أيضاً الجلاهقات جمع جلاهق، فكان الفرس يرمون هذا البندق عن الأقواس كما يرمون النبال، واقتبس العرب هذه اللعبة في أواخر أيام عثمان بن عفان، وعدوا ظهورها في المدينة منكراً،^{١٤٠} ثم ألقواها حتى شكلوا فرقاً من الجند ترمي بها، وقد رأيت أن الرشيد كان عنده فرقة يقال لها: النمل تسير بين يديه ترمي البندق على من يقف في طريق الموكب، وكان رماة البندق في العصر العباسي طائفة كبيرة يخرجون إلى ضواحي المدن يتسابقون في رميهم على الطير ونحوه،^{١٤١} ويدعون ذلك من قبيل الفتوة، ويغلب في رماة البندق أن يستغلوا بتطيير الحمام، ولهم زي خاص يمتاز بسراويل كانوا يلبسونها ويسمونها سراويل الفتوة، وكان العيارون من أهل بغداد يلبسونها في أواخر الدولة، حتى إذا أفضت الخلافة إلى الناصر لدين الله العباسي المتوفى سنة ٦٢٢هـ جعل لرمي البندق شأناً؛ لأنه كان ولعاً به وباللعب بالحمام المناسب (أي: المنسوب ذي الأصل المعروف)، وكان يلبس سراويل الفتوة، وقد بلغ من رغبته في ذلك أن جعل رمي البندق فناً لا يتعاطاه إلا الذين يشربون كأس الفتوة ويلبسون سراويلها، على أن يكون بينهم روابط وثيقة نحو ما عند بعض الجمعيات السرية، وجعل نفسه رئيس

هذه الطائفة يُدخل فيها من شاء ويحرم من شاء، وكتب سنة ٦٠٧هـ إلى ملوك الأطراف الذين يعترفون بخلافته أن يشربوا له كأس الفتوة ويلبسوا سراويلها، وأن ينتسبوا إليه برمي البندق و يجعلوه قد وهم فيه، فأجابوه إلى ذلك؛ فمن أراد الانتظام في سلك هذه الطائفة يأتي بغداد فيلبسه الخليفة السراويل بنفسه ... فبطلت الفتوة في البلاد جميعها إلا من ليس سراويلها منه، ومنع الرمي بالبندق إلا من ينتسب إليه، فأجابه الناس في العراق وغيره إلا إنساناً اسمه ابن السفت من بغداد هرب إلى الشام، فأرسل الخليفة إليه يرغبه ببذل المال ليرمي عنه وينتسب في الرمي إليه، فلم يفعل فلامه بعضهم على ذلك فقال: «يكفيوني خرّاً أنه ليس في الدنيا أحد لا يرمي للخليفة إلا أنا». ^{١٤٢}

وكان لرمي البندق شأن كبير في العصور الإسلامية الوسطى بالعراق والشام ومصر وفارس وغيرها، وخط البندقانيين بالقاهرة ينسب إلى صناعة أقواس البندق، ثم تفننوا في رمي البندق بالمزاريق أو الأنابيب بضغط الهواء من مؤخر الأنبوب بما يشبه أنابيب البنداق ... فلما اخترعوا البارود صاروا يرمون البندق به من تلك الأنابيب وسموا هذه الآلة بندقية نسبة إليه، ومن قبيل رمي البندق رمي النشاب في البرجاس، وهو غرض في الهواء، أو على رأس رمح أو نحوه يطلبون إصابته بالنشاب، وهي لعبة فارسية أولى من لعبها من الخلفاء الرشيد.

ومما يدخل في الألعاب والملاهي لعبة الشطرنج، وهي هندية الأصل أخذها العرب عن طريق الفرس، وأول من لعبها من الخلفاء الرشيد أيضاً، وهو من لعب الترد كما تقدم، ولا تزال هاتان اللعبتان شائعتين إلى اليوم.

(٥-٣) ارتباط السباع

وكان من ملاهي الخلفاء والملوك ارتباط الأسود والفيلة والنمور لإثبات الهيبة في قلوب الرعية، وأول من اهتم بذلك بنو العباس، فكان المنصور كثير العناية في جمع الفيلة لتعظيم الملوك السالفة إليها، وكان للرشيد أقفاص فيها الأسود والنمور وغيرها، ^{١٤٤} وغالى الذين جاءوا بعده في اقتنائها واقتناء الكلاب والقردة ونحوها؛ ذكروا أنه كان عند أم جعفر زوج الرشيد قرد يخدمه ثلاثون رجلاً، وكانت يلبسوه لباس الناس ويقلدونه السيف، وإذا ركب ركبوا في خدمته، وإذا دخلوا عليه قبلوا يده، فجاء يزيد بن مرثد يوماً إلى أم جعفر ليودعها قبل سفره، فأتوا إليه بالقرد وأمروه أن يقبل يده، فشقق عليه

ذلك وجرد السيف وقطعه نصفين وانصرف، فبعث إليه الرشيد وعاتبه فقال: «يا أمير المؤمنين أبعد أن أخدم الخلفاء وأهلهم على ذلك حتى تولى المهدى، وكان يتشبه بعمر بن عبد العزيز في التقوى والزهد، فأمر بقتل السبع التي كانت في القصور وطرد الكلاب، ولكن ذلك المنع لم يدم طويلاً، فلما مات المهدى عادوا إلى المغالاة في اقتناه السبع حتى ارتبطها بعضهم في مجلسه، فقد كان عضد الدولة بن بويه إذا جلس على سريره أحضر الأسود والفيلة والنمور في السلالس، وجعلت في حواشي مجلسه تهويلاً بذلك على الناس وترويعاً لهم.^{١٤٦}

وقس على ذلك سائر دول المسلمين في مصر والأندلس وغيرهما، فقد كان لخمارویه بن أحمد بن طولون دار خاصة بالسباع، عمل فيها بيوتاً بازاج كل بيت يسع سبعاً ولبؤته، وعلى تلك البيوت أبواب تفتح من أعلىها بحركات، ولكل بيت منها طاق صغير يدخل منه الرجل الوكل بخدمة ذلك البيت يفرشه بالرمل، وفي جانب كل بيت حوض من رخام بميزاب من نحاس يصب فيه الماء، وبين يدي هذه البيوت قاعة فسيحة متعددة فيها رمل مفروش بها، وفي جانبها حوض كبير من رخام يصب فيه ماء من ميزاب كبير، فإذا أراد سائس سبع من تلك السبع تنظيف بيته، أو وضع وظيفة اللحم لغذائه، رفع الباب بحيلة من أعلى البيت وصاح بالسباع فيخرج إلى القاعة المذكورة، فيريد الباب وينزل إلى البيت من الطاق فيكنس الزبل ويبدل الرمل بغيره مما هو نظيف، ويوضع الوظيفة من اللحم في مكان معده لذلك بعدما يخلص ما فيه من الغدد ويعقطعه له، ويفصل الحوض ويملوه ماء ثم يخرج ويرفع الباب من أعلىه، وقد عرف السبع بذلك: فحالما يرفع السائس باب البيت يدخل إليه الأسد فيأكل ما هيئ له من اللحم حتى يستوفيه ويشرب من الماء كفايته، فكانت هذه البيوت مملوءة من السبع، ولهم أوقات تفتح فيها فترخرج السبع كلها إلى القاعة وتتمشى فيها وتترح وتلعب ويهاوش بعضها بعضاً، فتقيم يوماً كاملاً إلى العشي فيصبح بها السواس فيدخل كل سبع إلى بيته لا يتخطاه إلى غيره.

وكان من جملة هذه السبع أزرق العينين يقال له: زريق، وقد أنس بخمارویه وصار مطلقاً في الدار لا يؤذني أحداً، ويقام له بوظيفته من الغذاء كل يوم، وإذا نصبت مائدة خمارویه أقبل زريق معها وربض بين يديه، فيرمي إليه الدجاجة بعد الدجاجة والفضلة الصالحة من الجدي ونحو ذلك مما على المائدة فيتذكره به، وكانت له لبؤة لم تستأنس كما أنس هو، فكانت مقصورة في بيت ولها وقت معروف يجتمع معها فيه،

فإذا نام خمارویه جاء زریق لیحرسه، فإن كان قد نام على سرير ربع بين يدي السرير وجعل يرعايه ما دام نائماً، وإن نام على الأرض بقي قريباً منه وتفطن لهن يدخل ويقصد خمارویه لا يغفل عن ذلك لحظة واحدة، وكان على ذلك دهره وقد ألهه ودرث عليه، وكان في عنقه طوق من ذهب، فلا يقدر أحد أن يدنو من خمارویه ما دام نائماً لرعايته زریق له وحراسته إياه.^{١٤٧}

وتطرّف آخرون في اقتناه الحيوانات حتى الهوام والحشرات، فالوزير جعفر بن خنزابه أحد وزراء المقتدر بالله العباسى كان يهوى النظر إلى الحشرات من الأفاعي والحيات والعقارب، وأم أربعة وأربعين وما يجري هذا المجرى، وكان في داره بمصر قاعة لطيفة مركبة فيها تلك الحيات بالسلال ولها قيم وفراش حاو يستخدمون برسم نقلها وحطها، وكان كل حاو بمصر يصيد له ما يقدر عليه من الحيات ويتناهون في ذوات العجب من أجناسها وفي الكبير والغرير منها وهو يثبتهم على ذلك أجل ثواب وبيذل لهم المال الجليل، وكان له وقت يجلس فيه على دكة فيدخل المستخدمون والحواء فيخرجون ما في تلك السلال ويطرحوه على ذلك الرخام ويحرشون بين الهوام وهو يستعجب من ذلك ويستحسنـه.^{١٤٨}

وكانت لهم عناية في تربية الحيوانات الداجنة أيضاً كالغزلان والقماري وأشباههما، يجعلونها في حظائر وأقفاص مخصوصة عليها قوام يخدمونها.^{١٤٩}

واجتمع عند العزيز الفاطمي صاحب مصر من غرائب الحيوانات ما لم يجتمع عند غيره وذكروا بينها العنقاء. قالوا: «وهو طائر جاءه من صعيد مصر في طول البلاشون وأعظم جسماً منه، له غب ولحية وعلى رأسه وقارية وفيه عدة ألوان ومشابهة من طيور كثيرة».»^{١٥٠}

واتخذ الخليفة الناصر الأموي في مدينة الزهراء بالأندلس محلات للوحوش والسباع واسعة الأرجاء متباعدة السياج، ومسارح للطيور مظللة بالشباك كالأقفاص الكبيرة.^{١٥١} وهناك ألعاب آخر تتعلق بالحيوانات كسمكة كانت للأمين مقرطة، صيدت له وهي صغيرة فقرطتها بحلقتين من ذهب فيما حبتا در، وكلعب الحمام وتطييره، واللعب بالكباش والديوك للمناظحة والمهارشة، وغير ذلك مما لا محل لذكره.

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسته
الأثار الباقيه عن القرون الخالية الآداب السلطانية (الفخرى)	البيروني لابن الطقطقي	ليبسك سنة ١٨٧٨ م مصر ١٢١٧ هـ
أبجد العلوم، ٣ أجزاء	لصديق الفنوجي	الهند ١٢٩٦ هـ
ابن الأثير، تاريخ	انظر: الكامل	
ابن الجوزي، تاريخ	انظر: كتاب الأذكياء	
ابن حوقل، جغرافية	انظر: المسالك والممالك	
ابن خرداذبة، جغرافية	انظر: المسالك والممالك	
ابن خلدون، تاريخ	انظر: العبر والمبتدأ والخبر	
ابن خلكان، معجم	انظر: وفيات الأعيان	
ابن الساعي، تاريخ	انظر: مختصر أخبار الخلفاء	
ابن عساكر، تاريخ	انظر: تاريخ دمشق	
ابن الفقيه، جغرافية	انظر: كتاب البلدان	
ابن هشام، تاريخ	انظر: السيرة النبوية	
أبو الفرج الملطي، تاريخ	انظر: مختصر الدول	
أبو الحasan، تاريخ	انظر: التنجوم الزاهرة	
الأتيلدي، معجم	انظر: أعلام الناس	
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم	للمقدسي	ليدن ١٨٧٦ م
الأحكام السلطانية	للماوردي	مصر ١٢٩٨ م
أخبار الدول وأثار الأول	لأحمد شibli بن يوسف الدمشقى القرمانى	بغداد ١٢٨٢ م
أدب الدنيا والدين	للماوردي	بهامش الكشكول
الاستقسا في المغرب الأقصى ٤ أجزاء	للسلاوي	مصر سنة ١٣١٢ م
أسد الغابة في أخبار الصحابة ٥ أجزاء	لابن الأثير	مصر سنة ١٢٨٦ هـ
الإصطخري، جغرافية	انظر: المسالك والممالك	
أعلام الناس	الأتيلدي	مصر ١٣١٨ هـ
الأغاني ٢٠ جزءاً	لأبي الفرج الأصفهانى	بولاق ١٢٨٥ هـ

تاریخ التمدن الإسلامي (الجزء الخامس)

اسم الكتاب	العنوان	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنة
الإفادة والاعتبار	انظر: صحيح البخاري	عبد اللطيف البغدادي	مصر ١٢٨٦ هـ
ألفباء، جزآن	يوسف البلوي		مصر ١٢٨٧ هـ
بغية الطالبين في علوم وعوائد المصريين	لأحمد بك كمال		بولاقي ١٣٠٩ هـ
بلوغ الأربع في أحوال العرب ٣ أجزاء	انظر: فتوح البلدان		بغداد ١٨٩٨ م
البيان والتبيين جزآن	للحاظ		مصر ١٣١٣ هـ
البيروني، تاريخ	انظر: الآثار الباقية		الأستانة ١٢٨٦ هـ
تاريخ أبي الفداء ٤ أجزاء	للملك المؤيد		لبن ١٨٨٥ م (خط)
تاريخ الأمم والملوك ١١ جزءاً	لابن عساكر		لبن ١٩٠٤ م (خط)
تاريخ دمشق	لصليبا بن يوحنا		لبن ١٩٠٤ م (خط)
تاريخ المشارقة	للهلال الصابي		لبن ١٩٠٤ م (خط)
تاريخ الوزراء	محمد ظافر		لبن ١٩٠٤ م (خط)
تحذير المسلمين	لابن القسطي		لبن ١٩٠٤ م (خط)
تراث الحكماء	لحسن بن عبد الله		بولاقي ١٢٩٥ هـ
ترتيب الدول	لداود الأنصاطكي		مصر ١٣٠٨ هـ
تزيين الأسواق	للنبوبي		جوتجن ١٨٣٢ م
تهذيب الأسماء	انظر: عجائب الآثار		مصر ١٢٩٩ هـ
الجبرتي، تاريخ	للسفيطي		مصر ١٢٩٩ هـ
حسن المحاضرة في مصر والقاهرة جزآن	لشمس الدين النواجي		مصر سنة ١٣٠٩ هـ
حلبة الكمييت	للدميري		بولاقي ١٣٠٢ هـ
حياة الحيوان الكبرى (جزآن)	لأبي يوسف		لبن ١٣٠٦ هـ
الخرج - كتاب	لقدامة بن جعفر		بولاقي ١٣٠٦ هـ
الخرج - كتاب	على باشا مبارك		بولاقي ١٢٧٠ هـ
الخطط التوفيقية ٢٠ جزءاً	للمقرizi		
خطط مصر (جزآن)			

أبهة الدولة

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسته
الخميس (جزآن)	الديار بكري	مصر ١٨٢٣ م
المديري، كتاب ديوان أبي نواس	انظر: حياة الحيوان	مصر بن هانئ ١٨٩٨ م
رحلة ابن بطوطة جزان	لابن بطوطة	مصر ١٢٨٧ هـ
رحلة ابن جبير	لابن جبير	لبندين ١٨٥٢ م
رسائل الخوارزمي	لأبي بكر الخوارزمي	الأستانة ١٢٩٧ هـ
سراج الملوك	للطروشي	على هامش مقدمة ابن خلدون ١٣١١ م بمصر سنة ١٣١١
سلسلة التواريخ	لسليمان وأبي زيد	باريس ١٨١١ م
السيرة الحلبية ٢ أجزاء	علي بن برهان الدين اللقب	مصر ١٣٠٢ هـ
سيرة الملوك	نور الدين الحلبي القاهري	لبيروت ١٨٨٥ م
السيرة النبوية ٣ أجزاء	لعبد الرحمن الأربلي	بولاق ١٢٩٥ هـ
السيوطى، تاريخ شعراء السريان	لابن هشام	انظر: حسن المحاضرة
الشعر والشعراء	للقرداحي	روميا ١٨٧٥ م
الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية	لابن قتيبة	لبندين ١٩٠٢ م
الشهرستاني، كتاب صحيح البخاري ٤ أجزاء	لطاشكبرى زاده	على هامش ابن خلkan
طبقات الأطباء – جزان	انظر: الملل والنحل	مصر ١٣٠٤ هـ
طبقات الأدباء	للإمام البخاري	مصر ١٨٨٢ م
طبقات ابن سعد	لابن أبي أصيوعة	مصر ١٢٩٤ هـ
تاريخ تغري بردي	لعبد الرحمن الأنباري	(خط)
العبر والمبدأ والخبر ٧ مجلدات	لابن سعد	بولاق سنة ١٢٨٤ هـ

تاریخ التمدن الإسلامي (الجزء الخامس)

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسته
عجبات الآثار ٣ أجزاء	الجبرتي	على هامش ابن الأثير
عجبات المخلوقات	القزويني	على هامش الدميري
العقد الفريد ٣ أجزاء	لابن عبد ربه	مصر ١٢٥٠ هـ
العقد الفريد	للملك السعيد	مصر ١٢٨٣ هـ
فتوح البلدان	للبلاذري	لبندين ١٨٦٦ م
الفخرى في الآداب السلطانية، تاريخ	انظر: الآداب السلطانية	مصر ١٩٠٣ م
الفرج بعد الشدة جزآن	للتنوخي	(خط)
الفلاحة النبطية	لابن وحشية	ليبيسك ١٨٧٢ م
الفهرست	لابن النديم	مصر ١٢٨٢ هـ
فوات الوفيات جزآن	لابن شاكر الكتبني	مصر ١٨٩٠ م
قاموس الإدارة والقضاء ٧ أجزاء	ليفيليب جلاد	رومية ١٥٩٣ م
القانون	لابن سينا	بيروت ١٨٩٣ م
القبة الزرقاء	للكتور فانديك	مصر ١٨٩٣ م
قدامة، كتاب	انظر: الخراج	مصر ١٢٠٢ هـ
القرمانى، تاريخ	انظر: أخبار الدول	مصر ١٢٨٦ هـ
القزويني، كتاب	انظر: عجائب المخلوقات	لابن الجوزي (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسين) مصر ١٢٠٦ هـ
القوانين العقارية للحكومة المصرية	لابن الأثير	لبندين ١٨٨٤ م
الكامل ١٢ جزءاً	للمبرد	مصر ١٢٢٤ هـ
الكامل		لبن الدين الهمداني
كتاب الأذكياء	لابن منقذ	لبندين ١٨٨٥ م
كتاب الاعتبار	للحاجظ	لبندين ١٨٨٥ م
كتاب البخلاء	لابن الفقيه الهمذاني	
كتاب البلدان	لليعقوبى	
كتاب البلدان		

أبهاة الدولة

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسته
كتاب الحيوان ٣ أجزاء	الجاحظ	مصر سنة ١٣٢٤ هـ
كشف الظنون جزآن	لكاتب جليبي	الأستانة ١٣١١ هـ
الكتشكول	للعاملي	مصر ١٣٥٠ هـ
لطائف المعارف	للشعالي	ليدن م ١٨٦٧
اللمعة الشهية في اللغة السريانية الماوردي، كتاب	المطران يوسف داود	الموصل ١٨٧٩ م
مجمع الأمثال جزآن	انظر: الأحكام السلطانية للميداني	بيروت ١٣١٢ هـ
مختصر أخبار الخلفاء	لابن الساعي (محمد بن أنجب البغدادي)	بولاق ١٣٠٩ هـ
مختصر أخبار الدول	لأبي الفرج بن هرون الملطي المعروف بابن العربي	بيروت ١٨٩٠ م
مروج الذهب جزآن	للسعودي	مصر ١٣٠٤ هـ
المزهر جزآن	للسيوطي	بولاق ١٢٨٢ هـ
المسالك والممالك	لابن حوقل	ليدن ١٨٧٣ م
المسالك والممالك	لابن خردانة	ليدن ١٨٨٠ م
المسالك والممالك	لإصطخري	ليدن ١٨٧٠ م
المستطرف جزآن	للبشبيهي	مصر ١٣١١ هـ
المسعودي، كتاب	انظر: مروج الذهب	دهلي ١٣١٠ هـ
مشكاة المصايب	لولي الدين العمري	مصر ١٣٠٠ هـ
المعارف	لابن قتيبة	ليبسك ١٨٧٠ م (خط)
معجم البلدان ستة أجزاء	لياقوت الحموي	
مفتاح السعادة	لطاشکبری زاده	
المقدسي، غرافية	انظر: أحسن التقاسيم	
المقري، تاريخ	انظر: نفح الطيب	
المقريزي، تاريخ	انظر: خطط مصر	
الملل والنحل جزآن	للشهرستاني	لندن ١٨٤٢ م

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسته
الموطأ الميداني، كتاب	الإمام مالك انظر: مجمع الأمثال	(خط) بولاق سنة ١٩٠٣ م
میزانیة مصر لسنة ١٩٠٢ للحكومة المصرية		
النجم الزاهرة جزآن نفح الطيب ٤ أجزاء	لأبي المحسن للقرني	لبندين ١٨٥١ م بولاق ١٢٧٩ هـ
نهاية الأرب في قبائل العرب الهداية	اللقاقيشندی	(خط) لكنهو ١٣١٤ هـ
الهمداني، جغرافية وفيات الأعيان ٣ أجزاء	برهان الدين الفرغاني انظر: كتاب البلدان	لابن خلكان مصر ١٣١٠ هـ
اليعقوبي، جغرافية	انظر: كتاب البلدان	

هوامش

- (١) المسعودي ٥١ ج .٢
- (٢) ابن الأثير ١١ ج .٦
- (٣) العقد الفريد ٤ ج .٢
- (٤) طبقات الأطباء ١٣٠ ج .١
- (٥) العقد الفريد ١٠٨ ج .٣
- (٦) طبقات الأطباء ١٤٢ ج .١
- (٧) المقرئي ٣٨٥ ج .١
- (٨) نفح الطيب ١١٢٨ ج .٢
- (٩) الألغاني ٩٩ ج .٢
- (١٠) ترتيب الدول ١٢٣ .
- (١١) العقد الفريد ٢١ ج .١

- (١٢) الأغاني ٦٠ ج.٥.
- (١٣) العقد الفريد ٥ ج، ٣، و ٢١ ج.١.
- (١٤) الأغاني ٧٠ ج.٦.
- (١٥) لطائف المعارف ١٤.
- (١٦) العقد الفريد ٢٠٩ ج.١.
- (١٧) الأغاني ٣٥ ج.١٢.
- (١٨) المقرizi ٢٨٨ ج.٢.
- (١٩) ترتيب الدول ٦٠ ج.٩.
- (٢٠) ابن خلkan ١١٩ ج.١.
- (٢١) ابن الأثير ٤٢ ج.٦.
- (٢٢) الأغاني ٩١ ج.٩.
- (٢٣) الأغاني ٩٢ ج.٤.
- (٢٤) ابن الأثير ٥١ ج.٧.
- (٢٥) العقد الفريد ٦ و ٢١٨ ج.٢.
- (٢٦) لطائف المعارف ١٤ والبيان والتبيين ١٢ ج، ٢، وابن الأثير ٢٥١ ج.٤.
- (٢٧) البيان والتبيين ٣٨ ج.٢.
- (٢٨) الفرج بعد الشدة ١٠٠ ج.١.
- (٢٩) ترتيب الدول ٩٢ ج.
- (٣٠) الأغاني ٣٦ ج، ١٤، والمسعودي ٢٥٧ ج.٢.
- (٣١) ابن خلkan ٢٢ ج.١.
- (٣٢) المسعودي ٢٦١ ج.٢.
- (٣٣) العقد الفريد ١١١ ج.٣.
- (٣٤) المسعودي ١٥٧ ج.٢.
- (٣٥) ترتيب الدول ٦١ ج.٦.
- (٣٦) ابن الجوزي ٣٦ و ٦٠ ج.٦.
- (٣٧) ترتيب الدول ٩٨ ج.
- (٣٨) فوات الوفيات ١٣ ج.٢.
- (٣٩) العقد الفريد ٢٢٤ ج، ١، والفارسي ١١٢ ج.

- (٤٠) ابن خلkan ٢٤٤ ج .١.
- (٤١) المسعودي ١٠٦ ج .١.
- (٤٢) الفرج بعد الشدة ٢٣ ج ، المستطرف ١٦٤ ج ، والأتلidi ١٣٣ .
- (٤٣) الأتلidi ١١٥ .
- (٤٤) الأغانى ١٦ ج .٥.
- (٤٥) حلبة الكميٰت ٢٦ .
- (٤٦) البيان والتبيين ٦٠ ج .٢، العقد الفريد ٢١٩ ج .١.
- (٤٧) الأغانى ٢٠٦ ج .١٨.
- (٤٨) ابن الأثير ١١ ج .٦، المسعودي ٥١ ج .٢، وابن خلkan ٢٨٠ ج .٢، وسیر الملوك .٢٢
- (٤٩) المسعودي ١٦٣ ج .٢.
- (٥٠) سیر الملوك .٧٩ .
- (٥١) المسعودي ١٨٠ ج .٢، وطبقات الأطباء .٤٢ .
- (٥٢) ابن خلدون ٤٧٥ ج .١، والمسعودي ١٩٤ ج .٢.
- (٥٣) طبقات الأدباء ، وابن خلkan ٢٢٨ ج .٢.
- (٥٤) طبقات الأدباء .٢٢٨ .
- (٥٥) فوات الوفيات ٢٤١ ج .١.
- (٥٦) الأغانى ١٥٨ ج .١٥، و ١١٩ ج .٢٠ .
- (٥٧) الأغانى ٩١ و ١٠٢ ج .١٢ .
- (٥٨) الأغانى ٧٩ ج .٢٠ .
- (٥٩) الأغانى ٥٥ ج .٢ .
- (٦٠) الأغانى ١٣٩ ج .٤ .
- (٦١) الأغانى ٦٥ ج .٢ .
- (٦٢) الأغانى ١٧٨ ج .٦ .
- (٦٣) الأغانى ٨٢ ج .٦ .
- (٦٤) الأغانى ٧٤ ج .١٧ .
- (٦٥) الأغانى ٧٣ ج .٢٠ .
- (٦٦) الأغانى ٢ ج .١٢ .

- (٦٧) الأغاني ١٣٥ ج ١١، و ١٤١ ج ١٧.
- (٦٨) سير الملوك .٩٣
- (٦٩) المسعودي ٢٠٢ ج ٢، وابن خلكان ٤٨٩ ج ١.
- (٧٠) المسعودي ٢٣١ ج ٢، وأبو الفرج المطبي ٢٣٦.
- (٧١) الجزء الثالث من هذا الكتاب.
- (٧٢) طبقات الأطباء ١٧٥ ج ١، وأبو الفرج المطبي ٢٢٧.
- (٧٣) ابن خلكان ٢٣٥ ج ٢.
- (٧٤) الأغاني ٩ ج ١٣.
- (٧٥) ابن الأثير ٦١ ج ٨.
- (٧٦) الأغاني ١١١ ج ٥.
- (٧٧) المسعودي ١٢٦ ج ٢.
- (٧٨) الفرج بعد الشدة ٨٧ ج ١.
- (٧٩) العقد الفريد ١٩٥ ج ٣.
- (٨٠) الأغاني ١٣٢ ج ١.
- (٨١) الأغاني ٩٢ ج ٢٠.
- (٨٢) الأغاني ٢٠٣ ج ٦.
- (٨٣) المسعودي ١٩٧ ج ١.
- (٨٤) ابن الأثير ٢٤٦ ج ٢، والعقد الفريد ٢٣٦ ج ٢.
- (٨٥) الفخرى .٩٧
- (٨٦) لطائف المعارف ١٢، والعقد الفريد ٤ ج ٣.
- (٨٧) البيان والتبيين ١٥ ج ٢، وابن الأثير ٣٩ ج ٦، والمقرizi ٣٠٧ ج ١.
- (٨٨) ابن الأثير ٣٢ ج ٧.
- (٨٩) لطائف المعارف .١٢
- (٩٠) المسعودي ٣٦٥ ج ٢.
- (٩١) الأغاني ٩٤ ج ٢٠.
- (٩٢) الفخرى .٢٧٢
- (٩٣) الأغاني ٥٩ ج ٦.
- (٩٤) ترتيب الدول .١٠٣

- (٩٥) ابن الأثير ١٤٧ ج ٥.
 - (٩٦) ابن الأثير ٣٦ ج ٧، والأغاني ٣٢ ج ٩، وابن خلkan ٣٨٠ ج ٢.
 - (٩٧) فوات الوفيات ٤ ج ٤.
 - (٩٨) المقرizi ٢٨٠ و ٢٨٥ ج ٢.
 - (٩٩) المقرizi ٤٩٠ ج ١.
 - (١٠٠) ابن خلkan ٤٣٦ ج ١.
 - (١٠١) نفح الطيب ٦٠٤ ج ٤.
 - (١٠٢) لطائف المعارف ٧٣، وابن خلkan ٩٣ ج ١.
 - (١٠٣) لطائف المعارف ٧٤.
 - (١٠٤) ابن الأثير ٦٥ ج ١٠.
 - (١٠٥) المقرizi ٩٩ ج ٢.
 - (١٠٦) السيوطي ٢٥ ج ٢.
 - (١٠٧) السيوطي ٥٨ ج ٢.
 - (١٠٨) أبو الفدا ٧٣ ج ٢، وابن الساعي ٧٥.
- E. Betschneider. The knowledge Possessed by the Ancient Chinese & Arabian Colonies 7

- (١١٠) العقد الفريد ١٤٩ ج ١، والمسعودي ٢٤٨ ج ٢، وترتيب الدول ٩٦.
- (١١١) المبرد ٢٩٦ و ٣٢٤.
- (١١٢) ابن الأثير ٧٤ ج ٦.
- (١١٣) فوات الوفيات ٢٤٠ ج ١.
- (١١٤) المستطرف ٤٦ ج ٢.
- (١١٥) ابن الأثير ٦ ج ٩.
- (١١٦) نفح الطيب ١٦٣ ج ١.
- (١١٧) نفح الطيب ١٦٧ ج ١.
- (١١٨) نفح الطيب ١٨١ ج ١.
- (١١٩) نفح الطيب ١٧٢ ج ١.
- (١٢٠) نفح الطيب ٢٧٠ ج ١.
- (١٢١) المستطرف ٤٦ ج ٢.

- (١٢٢) المقريزي ١٠٧ ج ٢.
- (١٢٣) المسعودي ٣٦٥ ج ٢.
- (١٢٤) الفخرى ٤٩.
- (١٢٥) ترتيب الدول ١٣٦، وديوان أبي نواس والأغاني ١١٦ ج ٩.
- (١٢٦) ابن خلكان ٢٣٥ ج ٢، و٤٢٣ ج ١.
- (١٢٧) الأغاني ٩٧ ج ٩.
- (١٢٨) المسعودي ٢١٣ ج ٢.
- (١٢٩) الفخرى ٤٧.
- (١٣٠) ابن خلكان ١٢٤ ج ٢.
- (١٣١) ابن خلدون ٢٨١ ج ٦.
- (١٣٢) كتاب الاعتبار ١٥٠.
- (١٣٣) المسعودي ٣٨٠ ج ٢.
- (١٣٤) المسعودي ٦٨ ج ٢.
- (١٣٥) المسعودي ١٢٩ و ١٣٥ ج ٢.
- (١٣٦) المسعودي ٣٨١ ج ٢.
- (١٣٧) العقد الفريد ٤٧ ج ١، والمسعودي ١٩٩، ج ٢.
- (١٣٨) المقريзи ١١١ ج ٢.
- (١٣٩) ترتيب الدول ١٣٠.
- (١٤٠) ابن الأثير ٩٠ ج ٣.
- (١٤١) الأغاني ٩٣ ج ٢٠.
- (١٤٢) ابن الأثير ٢٠٢ ج ١٢، وأبو الفدا ١١٩، و١٤٢ ج ٣، وابن خلدون ٥٣٥ ج ٣.
- (١٤٣) المقريзи ٣١ ج ٢.
- (١٤٤) العقد الفريد ١٥٠ ج ١.
- (١٤٥) تاريخ طبرستان لابن إسفنديار ترجمة إدورد برون إلى الإنجليزية صفحة ٤٥.
- (١٤٦) الفخرى ٢٠.
- (١٤٧) المقريзи ٣١٧ ج ١.
- (١٤٨) فوات الوفيات ١٠٥ ج ١.

تاریخ التمدن الإسلامي (الجزء الخامس)

- (١٤٩) المسعودي ج ٢٦٠، وابن الأثير ج ٦٦ .٨.
- (١٥٠) ابن خلكان ج ٢٦٧ .١.
- (١٥١) نفح الطيب ج ٢٧٤ .١.